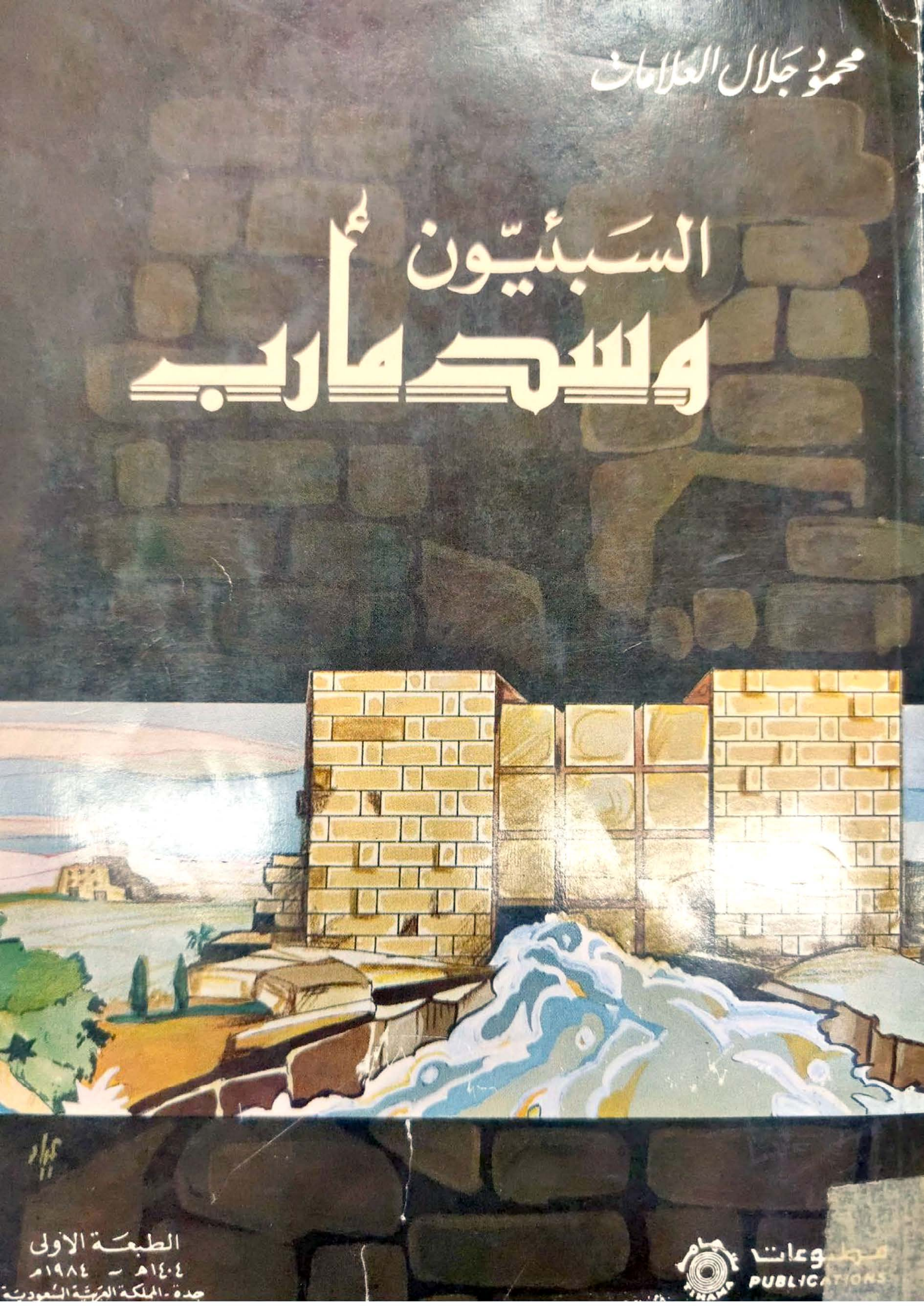


محمود جلال العلاماتي
السبئيون
وسد مارب
الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية
مطبوعات تهامة
PUBLICATIONS

محمود جلال العلامات

السبئيون وسد مأرب

الطبعة الاولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ
عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ
وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ
سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

المقدمة

ما الحضارةُ الانسانية بجوانبها المتعددة إلاّ حصادُ تفكير الانسان ونتائج تجاربه وسلسلة اختراعاته على مر العصور. ولقد أسهمتْ مختلف الأمم قديمها وحديثها في تشييد صرح هذه الحضارة بجهودٍ مختلفة وبمجالاتٍ متنوعة بحيث اعتُبِرتْ من صنع البشرية جمعاء.

وتعتز الأمم عادة بما قدّمته في هذا المجال، وتحرص على إبرازه بشتى الوسائل ليس في النطاق المحلي فقط، بل على المستوى العالمي.

والعرب كغيرهم من الأمم، أسهموا بدورهم الحضاري قبل الاسلام و بعده، ولئن وفّق العربُ المسلمون في إبراز دورهم بعد الاسلام بحيث غدا ساطعاً لاينكره إلاّ حاقدٌ أو متعصبٌ أو متعامٍ، فإنهم لم يتمكنوا بعد من تقييم الدور الذي قام به العرب قبل الاسلام في خدمة الحضارة الإنسانية.

وفي هذه الدراسة عرض تفصيلي لأهم جانب حضاري برع فيه العرب قبل الإسلام بحيث يمكن اعتبارهم رواداً له ألا وهو: إنشاء السدود، وأشهرها على الإطلاق سدّ مأرب.

والدراسة الشاملة لسد مأرب تدخل في إطار تاريخ عرب الجنوب خاصة وتاريخ العرب قبل الاسلام عامة، ذلك أنه عاصر الجزء الأعظم من تاريخ العربية الجنوبية كما امتدت آثاره في بعض النواحي إلى خارج المنطقة التي أنشىء فيها. لهذا فإن دراسة سد مأرب تستوجب تتبّع وتفهّم تاريخ عرب الجنوب خاصة، فبمقدار ما يتضح هذا التاريخ نقترب أكثر فأكثر من الدراسة التفصيلية عن السد.

بيد أن تاريخ عرب الجنوب لايزال يكتنفه الغموض رغم مئات المقالات والبحوث والكتب التي تناولته بالبحث والدراسة. ومن الغريب أن أكثر الناس إدراكا لهذا الغموض هم أولئك الذين قضوا سنوات طويلة من أعمارهم بالبحث والدراسة في هذه الحقبة من التاريخ، ذلك أنهم لم يصلوا حتى الآن إلى حقائق تاريخية يقينية أو على الأقل شبه أكيدة يمكن الاستناد عليها كأسس ثابتة لتفسير الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذا التاريخ. ولهذا، فلا عجب ان تُعتبر الدراسة والبحث في تاريخ عرب الجنوب من أشقّ الأمور وأعسرِها، ولولا الرغبةُ المُلِحة في البحث عن الحقيقة لما أقدم أحد على الغور في متاهاتِ لايدرى مُنتهاها.

والسؤال : لِمَ كل هذا الغموض في تاريخ عرب الجنوب خاصة ؟!

إذا بحثنا في هذه المشكلة من أساسها وجدنا أنّ هناك عدّة أسباب تضافرت في تعقيد هذا التاريخ نُجملها فيما يلي :

١) انشغال المسلمين الأوائل بعقيدة التوحيد التي مَلَكَتْ عليهم ألبابَهم وقلوبَهم بحيث لم يَعُدْ هناك مجالٌ لِتَقَبُّلِ غيرها . فقد انصرف المسلمون تماما إلى فهم العقيدة ومتابعة تعاليم القرآن وسيرة الرسول وسُننه القولية والفعلية .

فإذا عَلِمْنا أنّ أخبار الجاهلية ارتبطت بالوثنية وبعادات وصفات نبذ الاسلام منها الكثير، أدركنا أنّ هذا سببٌ منطقي لأنْ تُهْمَل أخبارُ الجاهلية في هذه المرحلة .

وفي مرحلةٍ تالية لبّى المسلمون داعيَ الجهاد فانطلقوا يستعجِلون الشهادةَ في سبيل إعلاء كلمة الله ، فما كان لديهم الوقت للنظر في الماضي أو الحديث عنه .

٢) تأخُّر تدوين التاريخ عند المسلمين :

واختلط العرب المسلمون بغيرهم من الأمم في البلدان المفتوحة ، وقد أدى ذلك إلى ظهور علوم ومعارف لم تكن معروفة لهم من قبل كان من جُمْلَتِها تدوينُ التاريخ .

وبالطبع كان لابدّ أن يبدأ التدوين بسيرة الرسول عليه السلام ، فدُوِّنت من قِبَلِ إبن هشام (المُتوفَّى سنة ٢١٨ هـ) . ولأن السيرة النبوية ترتبط بالعقيدة الإسلامية وتعاليمها ، ولأن الوازع الديني كان قويا في تلك الفترة، جاءت السيرة التي حقّقها وكتبها ابن هشام نموذجا مثاليا ومرجعا أصيلا لكلّ باحث أراد أن يكتب عن توالي الأحداث التي غيرت المفاهيم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية وما جاورها من الأقطار.

إلاّ أنّ نصيب تاريخ عرب الجنوب (في أجزاء السيرة هذه) قليل لايتعدّى عشرات الصفحات في مقدّمة الجزء الأول حول أحداث لها صلة بالسيرة النبوية من قريب أو بعيد . ومع ذلك فإنّ أهمية هذه الصفحات جاءت من توجيه انتباه المؤرخين إلى تاريخ عرب الجنوب ، فتطرق بعضهم — كابن قُتيبة والطبري والكلْبي وحمزة الأصفهاني وغيرهم — بشيء من التفصيل عن هذا التاريخ وإنْ كان الوقت لهذا التدوين قد جاء متأخرا .

٣) سُقم المصادر التاريخية لهذه الفترة :

كان لابدّ من الاعتماد على أقوال المسنين وأخبار الرواة عند تدوين تاريخ عرب الجنوب حيث لاتوجد مصادر غيرها . وهذه لاتخلو عادة من أخطاء ومبالغات وتناقضات . إلا أنّ المؤرخين — في تلك الفترة — نقلوا هذه الروايات غثّها وسمينها على السواء دونما تمحيص أو تحليل ، فجاءت مؤلفاتهم غنّية بالقصص والحوادث الحقيقية والخيالية والمبالغات المعقولة وغير المقبولة — وبين ثنايا كلّ هذا تكمُن الحقيقة التي هي سرّ دفين .

٤) نقص النقوش المكتشفة:

ورغم ما شملته مؤلفات المؤرخين الإسلاميين من حقائق وأخطاء وتناقضات، إلاّ أنها بقيت المصادر الوحيدة لتاريخ عرب الجنوب حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فقد اطّلع بعض المستشرقين على هذا التاريخ وشكّوا في أكثر رواياته، مما جعلهم يبحثون عن مصادر جديدة لهذا التاريخ. وقد وجدوها في النقوش والكتابات المدوّنة على الآثار في جنوب الجزيرة وفي بعض مؤلفات الإغريق والرومان والعبرانيين التي أشارت إشارات عابرة لهذا التاريخ.

ومع الأهمية التاريخية العظيمة للنقوش والكتابات المُكتشفة ــ بسبب ما تضمنته من حقائق جديدة لم تذكرها كتب المؤرخين الإسلاميين إطلاقا ــ إلا أنها لا تزال ناقصة، لا تُكمل ما كتبه المؤرخون ولا تعطي مفهوماً واضحاً لهذا التاريخ.

وإن كانت هذه بعض أسباب غموض تاريخ عرب الجنوب، فينبغي ألاّ نصل منها إلى حالة اليأس وفقدان الأمل في الوصول إلى الحقيقة، بل يجب البحث عن مناهج وأساليب جديدة نستطيع بواسطتها حلّ المُعْضِلة.

والحقيقة التي لابدّ من أخذها بعين الاعتبار أن دراسة تاريخ عرب الجنوب ينبغي ان تتناول أربعة جوانب متكاملة هي:

الجانب الأول:

دراسة واستيعاب كل ما كتبه المؤرخون العرب وغيرهم عن هذا التاريخ، فبين ثنايا هذه المؤلفات حقائق متناثرة يحتاج الوصول إليها إلى بذْل جهودٍ كبيرة.

والحقائق هذه لابد من الوصول إليها لا لأصالتها فحسب، بل لأن الجهل بها يؤدى إلى وجود ثغرات بهذا التاريخ لا يمكن سدّها من غير هذا السبيل.

الجانب الثاني:

البحث والتنقيب عن الآثار المطمورة تحت الرمال، فكثير من الحقائق التاريخية مدون على هذه الآثار، ولا سبيل للتحقّق من تاريخ عرب الجنوب دونها ما دامت هي الشاهد الوحيد الذي لم يدل بشهادته بعد.

غير أن هذه النقوش والكتابات لا تكفي وحدها، فبينما يحتاج التنقيب عنها إلى زمن طويل وأموال طائلة وجهود مضنية، نتوقع في أكثر الحالات تفاؤلا ألاّ يتم العثور على جميع هذه المستندات ما دامت المدن نفسها مدفونة تحت الرمال. فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ كثيرا منها غير مؤرخ (كما لوحظ في النقوش التي عثر عليها) تبيّن لنا انها لا تكفي (وحدها) لحلّ لغز تاريخ عرب الجنوب رغم أنها

عنصر أساسي في الدراسة .

الجانب الثالث :

ولابد من الدراسة الجغرافية الميدانية لبيئة عرب الجنوب التي سطروا بها تاريخهم . فلا شك أن لبيئتهم أثرا كبيرا في توجيه السكان إلى اتجاهات سياسية واجتماعية واقتصادية معينة لايمكن تفسيرها إلاّ بدراسة البيئة نفسها . فالموقع الجغرافي وتضاريس الأرض والأحوال المناخية والحياة النباتية والحيوانية ــ كلها أمور لازمة لتفسير الظواهر البشرية التي برزت في تاريخ عرب الجنوب : كالهجرات المتتالية واحتكار التجارة وإنشاء السدود واختيار مواقع المدن ومسالك الطرق والحروب المستمرة والصراع العقدي والقيم الاجتماعية وغيرها .

ورغم أن دراسة البيئة أمر حتمي أثناء دراسة الحضارات عامة ــ على اعتبار أن الحضارة نتاج تفاعل الإنسان و بيئته ــ إلاّ أنّ الباحثين في تاريخ عرب الجنوب لم يتناولوا البيئة بالدراسة التفصيلية والميدانية ، فجاءت كتاباتهم في أغلب الأحيان سرْد حوادث مجرّدة لايُعرف مكانها ولا سببها ولا دافعها .

وعلى هذا فإن الدراسات الميدانية لمسرح أحداث هذا التاريخ لاغنى عنها للباحثين في هذا المجال . ولنأخذ عبرة مما كتبه الهمداني منذ ألف عام ، فلا تزال مؤلفاته مراجع أصيلة لكل باحث في تاريخ عرب الجنوب لا لأنه أتى بالخبر اليقين عن هذا التاريخ بل لأنه قام بدراسة ميدانية دوّنها في كتابيه : الإكليل،وصفة جزيرة العرب . وإن كان الهمداني أكمل هذا الجانب فإنه فقد جانبا آخر من الجوانب التي لابد منها عند الكتابة في تاريخ عرب الجنوب وهو النقوش .

ولنأخذ بالمقابل دراسات جوجي زيدان وجواد علي اللّذين اعتمدا على النقوش وقصّرا في الدراسة الميدانية أو اعتمدا على دراسات غيرهما ، فلم تأت دراستهما وافية بحقائق تاريخ عرب الجنوب رغم الجهود الكبيرة التي بذلاها في هذا المضمار.

الجانب الرابع :

ولابد للعقل البشري من أن يتدخل في هذه الدراسات على نطاق واسع معتمدا على الجوانب الثلاثة السابقة ، فالمقارنة بين المصادر المختلفة ور بط الأحداث وتحليلها ثم الوصول إلى استنتاجات صحيحة ــ كلها أمور ضرورية في دراسة هذا التاريخ الغامض . وقد استطاع بعض الباحثين الوصول إلى أفكار واستنتاجات مفيدة ساهمت في إنارة بعض المسالك إلى الطريق القو يم .

والمقصود أن المنهج القو يم لدراسة تاريخ عرب الجنوب لابد أن يتناول الجوانب الأ ربعة السابقة مجتمعة ومتكاملة ،لأن إهمال أحدها يؤدي إلى القصور عن الوصول إلى حقيقة هذا التاريخ .

* * *

ولمّا كان سد مأرب أبرز ما خلّفته الحضارة العربية القديمة ــ باعتبار أنه مرحلة في تطور الفكر الإنساني واستغلال ظواهر الطبيعة لصالحه من ناحية، ولأثره الكبير في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية وخارجها من ناحية أخرى ــ فقد حاولت تطبيق المنهج السابق في دراستي عنه: إذ قرأت وفهمت كل ما وقع بين يديّ من كتب وأبحاث أشارت إلى السدّ بكثير أو قليل، ثم تفحّصتُ معظم النصوص التي تم العثور عليها من مصادر متنوعة، وتناولت منها تلك التي لها صلة قريبة بالسدّ أو بعيدة بالمقارنة والتحليل. كما قمت بدراسة ميدانية لمنطقة السد أفادتني كثيراً في تحليلات واستنتاجات توصلت إليها ودونتها في كتابي هذا.

ولكي أحيط بموضوع سد مأرب من جميع جوانبه، فقد عمدت إلى تقسيم كتابي إلى أربعة أبواب رئيسية يتناول كل واحدٍ منها جانبا معينا من الدراسة الشاملة للسد:

فالباب الأول:

يختص بدراسة السبئيين الذين ارتبطت شهرة السد بهم، فهم اصحابه والمستفيدون منه طيلة مدة صلاحه، كما أنهم هم المنكوبون بخرابه، فتاريخهم وتاريخ السد توأمان لاينفصمان ولا يُعرف أحدهما دون الآخر. لهذا تتبعت ذكر السبئيين في المصادر القديمة ــ العربية والاجنبية ــ علّني استطيع معرفة بداية تاريخهم، فواجهتني مشكلة تحديد أصل السبئيين لاسيما وأن المصادر الوحيدة التي أشارت إلى ذلك متناقضة فيما بينها، فعرضتُ مختلف الأقوال في نسب السبئيين وقارنتُ بينها، وخلصت من ذلك إلى أن معظم قبائل جنوب الجزيرة ترجع في نسبها إلى سبأ بن يشجب على الأرجح، ووقفت عند هذا الحد.

ثم بحثت دور السبئيين في تاريخ عرب الجنوب فوصلت من بحثي أنهم المسطرون لتاريخ عرب الجنوب عامة. لهذا قسّمت تاريخهم السياسي إلى فترات تناولتُ كل فترة منها بالتفصيل، وخاصة عند البحث في بداية ونهاية هذه الفترات.

ولاشك أنّ هذاالتقسيم الجديد أفادني كثيرا في حل مشاكل ومعضلات كانت من أسباب غموض تاريخ عرب الجنوب: كمشكلة تحديد بداية تأريخ المملكة السبئية ونهايتها وكذلك سبب التداخل التاريخي بين ممالك جنوب الجزيرة، ثم عقدة ملكة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ملكة سبئية، بينما هي ضمن قوائم ملوك حمير في المصادر التاريخية الإسلامية، في حين أن النصوص لم تشر إليها بتاتا. وأوليت موضوع الاقتصاد السبئي القديم عناية خاصة، فأفردت له فصلا مستقلا عرضت فيه تفاصيل ركني هذا الاقتصاد وهما: التجارة والزراعة، وخلصت من هذا العرض إلى ان بيئتهم هي التي وجهتهم نحو هذا الاتجاه الذي كان له أثر كبير في بناء صرح حضارتهم.

وفي الفصل الأخير من هذا الباب عرضت أبرز مظاهر حضارة عرب الجنوب متمثلة في نظمهم

السياسية والاجتماعية وكذلك علومهم ومعارفهم وآدابهم وفنونهم. وقد ركزت على العمارة السبئية التي كان لها طابعها المميز والتي تظهر في آثارهم ومخلفاتهم ومنها سدّ مأرب الذي نحن بصدده.

والباب الثاني:

دراسات دينية حول سد مأرب، وقد تطرقت فيه إلى مواضيع دينية تدور في مدار السد، واتخذت من النتائج التي توصلت إليها قاعدة ارتكزت عليها في دراستي التاريخية والجغرافية للسد. ففي القرآن الكريم ذكر لسدود متنوعة يخدم كل منها جانبا معينا، إلا أن الجامع بين هذه السدود كونها نعمامن الله على عباده. وكما اختلفت مواقف البشرية من النعم الالهية عامة، كذا كان موقفها من نعمة السدود: فمنهم الشاكر لله على نعمائه، ومنهم الجاحد، وكان السبئيون من الصنف الثاني. وكان ما حاق بسبأ من عقاب ـ مقابل الجحود والنكران لنعم الله ـ يشابه ما حاق بغيرهم من منكري نعم الله. وقد قارنت بين قصة سبأ وقصص هؤلاء في القرآن الكريم فوجدت أن تلك الأقوام خاصة كانت لديهم معرفة بالخالق عز وجل، ولكنهم قصّروا في عبادته بجحودهم ونكرانهم نعمه عليهم فاستحقوا العقاب الإلهي وهو سلب تلك النعم منهم.

وفترة معرفة السبئيين بعقيدة التوحيد مهمة جداً في تأريخ سدّ مأرب، إذ يمكن بتحقيقها تحديد وقت خراب السد من سبيل العرم المشار إليه في القرآن الكريم. ولهذا تتبعت العقائد المختلفة التي اعتنقها السبئيون ابتداء من ديانة سبأ بن يشجب فعبادة ملكة سبأ للشمس قبل إسلامها، ثم سيادة ديانة المقه (القمر) فترة طويلة من الزمن شُورِكَ في المراحل الأخيرة بكواكب أخرى، وانتهيت إلى وصول أهل اليمن إلى عقيدة التوحيد للمرة الثالثة بتأثير اليهودية والنصرانية.

وعرضت في آخر هذا الباب موضوعا جديدا تماما هو موضوع السدود وعلاقتها بالديانة السبئية في مراحلها المختلفة. فوصلت من ذلك: أن السبئيين ـ في مرحلة طويلة من عقيدتهم الدينية ـ يُرجِعون حماية السدود وحفظها وإمدادها بالماء إلى إلههم (المقه). إلاّ أنّ الحقيقة الناصعة أنّ بناء السد وزراعة الجنتين كانا إلهاماً من الله ـ عز وجل ـ للسبئيين سواء أدركوا ذلك أم نسبوه للمقه.

أما الباب الثالث:

فدراسة تاريخية لسد مأرب، وقد تطلّب ذلك تتبع مراحل بناء السد وتصدعاته وخرابه والنتائج التي ترتبت على ذلك الخراب.

والتناقض بيّن في كل جانب من الجوانب الخاصة بتأريخ السد مما جعل دراسة هذا الباب من أعقد الدراسات ما دامت تتصل بتاريخ عرب الجنوب اتصالا وثيقا من ناحية، ولتناقضات أقوال المؤرخين فيما بينها ومع النصوص المكتشفة ثانية.

ولاشك أن النصوص كانت محور دراستي في هذا الباب، إلا انني لم أهمل أقوال المؤرخين المختلفة. ولهذا فقد عمدت إلى تحليل النصوص وأقوال المؤرخين، وقارنت بينها في محاولة

لاستجلاء الحقيقة من بين المصادر المختلفة والنقوش الناقصة. وقد خرجت من دراستي باستنتاجات جديدة عن بناء السد وخرابه بفعل سيل العرم وأسباب ذلك الخراب والنتائج التي ترتبت على ذلك.

أما الباب الرابع والأخير من كتابي:

فهو دراسات جغرافية وميدانية لسد مأرب، والمنطقة المحيطة به. وقد تطلب ذلك دراسة مجملة لليمن على اعتبار ان منطقة مأرب جزء منها، كما بحثت في فصل تال مخلاف مأرب من حيث الموقع والتضاريس، وكذلك المناخ والنبات والسكان والآثار المتبقية ومنها سد مأرب.

وفي الفصل الثالث من هذا الباب أوردت وصفا دقيقا مدعما بالصور والخرائط والرسوم التوضيحية لأجزاء سد مأرب وادي اذنة وجسم السد ومصارفه اليمنى واليسرى ثم للجنتين اللتين كانتا تُرو يان من مياه السد. وقد توصلت إلى مفاهيم جديدة وصححت أخطاء كانت سائدة لدى المؤرخين الذين كتبوا أو وصفوا السد من قبل منها: نظام صرف المياه من بحيرة السد.

والفصل الأخير من هذا الباب يدور حول مشروع إعادة بناء سد مأرب، ورغم ان المشروع لايزال قيد الدراسة، إلا أن زيارتي لأطلال السد حتّمت عليّ تنبيه المسؤولين — وهم أدرى بذلك — إلى ضرورة المحافظة على بقايا السد القديم خشية أن تغمرها مياه السد الجديد. ولهذا اقترحت أن يتم بناء السد البديل أمام الضيقة الأولى (قبل السد القديم بأربعة كيلومترات) وحذرت من بنائه في مكانه القديم أو بعده.

***

ولا شك أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لدراستي هذه، فهو أرقى المصادر وأصدقها، ولهذا اعتبرت ما ورد في القرآن الكريم حول السد أساس الحقيقة التي بنيت عليها معلوماتي عنه. ورغم أن ذكر السد جاء خلال قصة السبئيين وجنتيهم في القرآن الكريم، إلا أن الحقيقة الواضحة أنه لو لم يرد ذكر لسبأ وسدها في هذا الكتاب ما كان ليكتب عنهما ما كُتب، ولما كان الاهتمام بهما ذلك الاهتمام.

وعند دراستي للسبئيين استفدت من الكتاب المقدس — خاصة العهد القديم — فقد ورد بأسفاره ذكر للسبئيين ولتجارتهم، كما تكررت به قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان (عليه السلام). أما فيما يختص بنسب سبأ فقد وجدتُ به تناقضا، ولهذا فقد التزمت جانب الحذر في الاعتماد عليه في هذه الناحية.

وكُتُبُ تفسير القرآن — كتفسير القرطبي وفتح القدير للشوكاني وتفسير أبي السعود وغيرها من التفاسير المثبتة في قائمة المصادر — وما ورد بها من أحاديث نبوية وأشعار حول سبأ وسدها من المصادر التي رجعت إليها رغم ما حوته من المبالغات، في بعض الأحيان، عن ملكة سبأ وسد

مأرب. وقد أتت أهمية هذه المصادر ــ بالنسبة لموضوعنا ــ في انها نقلت عن الإخباريين والمُسنين ما كان عالقا في أذهانهم عن سبأ وسدها.

وقد استفدت من كتب الحديث كصحيح البخاري ومسند الإمام احمد، وكذلك كتب السيرة وخاصة سيرة ابن هشام ــ عند استعراضي نسب سبأ وهجرتها بعد خراب السد.

كما رجعت إلى المراجع اللغوية ــ تاج العروس، ولسان العرب، والقاموس المحيط ــ عند تحقيق معاني بعض الكلمات الأساسية التي رأيت انها ضرورية في بحثي كالمعنى اللغوي لكلمة «السد» و«العرم».

وقد أفادتني دائرة المعارف الاسلامية كثيرا عندما تتبعت ذكر السبئيين في المصادر القديمة، كما استفدت من دائرة المعارف البريطانية في هذا المجال.

وقد ذكر كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب أمثال: ابن المجاور وابن رسته والكلبي والاصفهاني ــ أخبارا مستفيضة عن سبأ وسدها بين ثنايا كتبهم، حاول بعضهم كابن خلدون و ياقوت الحموي أن يستجلي الحقيقة فوفّقوا أحيانا، ولم يتعد ما ورد في كتبهم ــ في حالات كثيرة ــ ما جاء في كتب التفسير والكتب الأخرى. ولهذا كانت هذه الكتب مكملة للتفاسير في اطلاعنا على آراء المؤرخين العرب حول سبأ وسدّها.

وأصدق كتب المؤرخين التي وصفت سد مأرب وتحدثت بتفاصيل أكثر عن سبأ خاصة وعن عرب الجنوب عامة ــ هي كتب المؤرخ اليمني: الحسن بن احمد الهمداني (القرن الرابع الهجري)، فقد زار سد مأرب و بقية الآثار اليمنية ووصفها وصف شاهد عيان دوّنه في كتابيه «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب»، وعلى كتب الهمداني هذه استند نشوان الحميري (القرن الخامس الهجري) في تأليفه قصيدته المشهورة التي ذكرت ملوك سبأ وحمير وآثارهم الدارسة. ولهذا كان لكتب هذين المؤرخين اليمنيين أهمية خاصة عند بحثي موضوع السبئيين وملوكهم وآثارهم.

وأول من استنطق الآثار المتبقية (وتمكن من قراءة النصوص التي عثر عليها المستشرقون والباحثون) هم الرحالة الأورو بيون الثلاثة: أرنو الفرنسي، وهاليفي اليهودي الفرنسي وجلاسر النمساوي، فلقد خاطر هؤلاء بحياتهم من اجل العلم وتمكنوا من زيادة معارفنا عن تاريخ عرب الجنوب عامة وسد مأرب خاصة، بل هم أول من دق الناقوس لإعادة الكتابة في تاريخ الجزيرة قبل الاسلام على أساس منهج علمي صحيح.

وقد استفاد من دراسات هؤلاء مؤرخون عرب معاصرون كجورجي زيدان وجواد علي اللّذين كتبا في تاريخ العرب قبل الاسلام أسفارا قيّمة تأتي في قمّة المراجع الحديثة التي ينبغي الرجوع إليها عند البحث في هذا التاريخ. وقد استفدتُ كثيراً مما نقلاه عن كتب ومجلات أورو بية صدرت بلغات مختلفة، وكذلك ممّا أورداه من معلومات وآراء ذات قيمة كبيرة.

وكان لكتب الرحالة العرب المعاصرين أمثال: احمد فخري ونزيه العظم فائدة لي عندما تطرقت لموضوع آثار مأرب ومنها السد، لاسيما وأن احمد فخري وصف تلك الآثار وصف عالم أثري قدير سجلها في كتابه القيم «اليمن ماضيها وحاضرها».

ومن المصادر العربية الحديثة التي أفادتني في الباب الخاص بالسبئيين كتب: (اليمن وحضارة العرب) لعدنان ترسيسي، و(تاريخ العرب) لفيليب حتى، و(العرب في الشام قبل الإسلام) لمؤلفه محمد احمد باشميل.

وأكملت اطّلاعي على المصادر الحديثة بكتب مترجمة مثل: (كنوزمدينة بلقيس) لمؤلفه وندل فيليبس (رئيس البعثة الامريكية التي نقبت في آثار جنوب الجزيرة)، و(التاريخ العربي القديم) لـديتلف نيلسون وقد ترجمه واستكمله فؤاد حسنين، وكذلك تاريخ يوسيفوس اليهودي وغيرها من الكتب المترجمة التي مكّنتني من الإطلاع على نظرة وآراء الأجانب في هذا التاريخ.

وقد شمّر المؤرخون اليمنيون المعاصرون عن ساعد الجِدّ للبحث في تاريخ اليمن القديم فصدرت في هذا الصدد عدّة كتب: لأحمد شرف الدين ومطهر الإرياني وزيد عنان ومحمد حداد ومحمد الأكوع وغيرهم. وقد أفادتني كتب هؤلاء كثيرا، لما تضمنته من نقوش وكتابات سبئية مترجمة، ولما حوته من معلومات واستنتاجات قيّمة لاسيما وانهم من اليمن وقد قيل: أهل مكة أدرى بشعابها.

ولا شك أن زيارتي لمنطقة مأرب والسد، وكذلك اتصالي بالمسؤولين في اليمن كان ذا فائدة عظيمة في معرفة آخر الاكتشافات التي عُثر عليها والأوضاع الحالية لمنطقة مأرب والتي كنت بموجبها أحاول تفسير جانب من الجوانب الغامضة أو تصحيح معلومات كانت خاطئة. وقد ظهرت نتائج زيارتي بكل وضوح في الفصلين الأخيرين من الدراسة الجغرافية عندما تعرضت لوصف أجزاء سد مأرب وصفا دقيقا مدّعما بالصور الفوتوغرافية التي التقطتها والخرائط التي رسمتها.

• • •

وبعد،

هذه دراسة عن «سد مأرب» اجتهدت فيها كي أصل إلى الحقيقة، فإن كنتُ قد وُفِّقتُ فذلك فضل من الله، وإن أخفقت فذاك مبلغنا من العلم.

«وقل ربِّ زدني علما».

المؤلف

الباب الأول

السَّبئيُّون

الفصل الأول : السَّبئيون ونسبهم في المصادر المختلفة .

الفصل الثاني : موقع السبئيين من تاريخ عرب الجنوب .

الفصل الثالث : أسس الاقتصاد السَّبئي .

الفصل الرابع : مظاهر الحضارة السبئية .

الفصل الأول

السبئيون ونسبهم في المصادر المختلفة

السبئيون في المصادر القديمة :

لو رُتِّبَتْ المصادر التي ذكرت «سبأ» حسب قدمها التاريخي لوجد أن أقدمها نص سومري يعود إلى عهد «إردنانز» ملك لكش — الذي عاصر آخر ملوك أور— وذلك في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل المسيح، فقد ورد في هذا النص كلمة SA-Ba-A-A=Saba وكان هذا الاسم علما على ارض السبئيين(١).

وفي زمن أحدث ورد ذكر «سبأ» في النصوص الأشورية :

فقد دوّن تغلت بلاصر الثالث (٧٤٥— ٧٢٧ق.م.) في سجلاته انه أتته جزية من قبيلة (مسأى) ومدينة (تمأى) و(السبأى)(٢).

كما ورد ذكر يثعمر السبئي (أحد مكارب سبأ) في نص أشوري آخر يعود إلى عهد سرجون الثاني (٧٢٢— ٧٠٥ق.م) ذكر فيه الأمم التي كانت تؤدي له الجزية ومن جملتها فرعون مصر وشمسية ملكة العرب و يثعمر السبئي(٣).

وفي نص أشوري ثالث في عهد سنحاريب (٦٨٥ ق.م) أشار فيه أنه تسلّم هدية كاريبلو (كرب ايل وتر) ملك سبأ(٤).

والمقارنة بين النصين الأشوريين الأخيرين تبّين لنا تغيّر الوضع عند السبئيين، إذ أنهم يقدّمون جزية في النص الأ ول، بينما يقدّمون هدّية في النص الثاني، ولا عجب في ذلك، فإن (كرب ايل وتر) أول من توسع في فتوحاته وأسس مملكة سبأ كما سنرى.

و يأتي بعد المصادر الأشورية في القدم التاريخي: العهد القديم وفيه ذكر لسبأ وللسبئيين في

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الحادي عشر «مادة السبئيين»

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٤٥

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق

(٤) دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britannica Sabaeans

أسفار متعددة منها ما يشير إلى نسب سبأ، ومنها ما يلقي ضوءا على تجارة السبئيين: ففي الإصحاح العاشر[1] من سفر التكوين أنّ سبأ من أبناء حام، وفي مكان آخر من الإصحاح نفسه[2]: شبا بن يقطان من أحفاد سام. كما أشارت بعض الأسفار الأخرى إلى ارض السبئيين ومحاصيلهم التجارية: ففي (أرميا) الإصحاح السادس[3] ان ارضهم كانت مركز اللبان. وفي سفر أيوب[4] اقترن اسم سبأ بتيماء مما يوحي بأن قوافل سبأ كانت تمر منها.

وجاء في «أخبار الأيام الثاني»[5] ذكر لغارة شنّها العرب (الذين بقرب الكوشيين) على مملكة يهوذا، ومن المعروف ان كوش هي أرض الحبشة، وأقرب جيران الحبشة هم العرب السبئيون. فإن صح هذا تكون العلاقة بين السبئيين واليهود غير مقتصرة على التجارة فقط في تلك العصور.

إلا أن معرفة العبرانيين بالسبئيين تتجلى بوضوح في قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان (عليه السلام) وهي القصة التي وردت في القرآن الكريم[6] بتفصيل أكثر مما ورد في «الملوك الأول»[7] و«أخبار الأيام الثاني»[8] حيث وردت القصة مكررة في السفرين تذكر الهدايا التي قدمتها ملكة سبأ لسليمان (عليه السلام) وكانت الهدايا من الذهب والطيب والحجارة الكريمة.

وتأتي المؤلفات اليونانية والرومانية بعد الكتاب المقدس في الترتيب التاريخي للمصادر التي ذكرت السبئيين. وأقدم من ذكرهم من اليونانيين «ثيوفرسطس» الذي أكد أن سبأ وثلاث ممالك أخرى في جنوب بلاد العرب هي مصدر الطيب[9]. وذكرهم كذلك الجغرافي «استرابون» نقلا عن روايات أراتوستين: فيصف سبأ بأنهم جيران لبني معين من الجنوب ولمملكة حضرموت من الغرب ولأوسان من الشمال[10] وبهذا يكون استرابون قد حدّد لنا الأراضي السبئية ــ بالضبط ــ في إحدى مراحل تاريخهم. و يقول الدكتور حسن ابراهيم[11] لقد كانت سبأ في العهد القديم أكثر دول الجنوب شهرة لدرجة أن لفظ سبأ كان يطلق على جميع تجّار العرب».

ومن مؤرخي الرومان الذين ذكروا السبئيين وبلادهم المؤرخ المشهور «هيرودوت» قال: «و بلاد السباى بلاد مزدحمة.. وهي أخصب تلك الأراضي على الإطلاق، ثمارها المرّ واللبان

(١) الآية ٧
(٢) الآية ٢٦
(٣) الآية ٢٠
(٤) الإصحاح السادس الآية ١٩
(٥) الإصحاح الحادي والعشرون الآية ١٨
(٦) سورة النمل الآيات ٢٢ــ ٤٤
(٧) الإصحاح العاشر الآيات ١ــ ١٣
(٨) الإصحاح التاسع الآيات ١ــ ١٠
(٩) دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الحادي عشر «مادة سبأ»
(١٠) المصدر السابق، نفس المكان
(١١) تاريخ الإسلام، جـ١، ص ٢٤

والقرفة..»([1]).

إلا أن المصادر الأشورية والعبرانية واللاتينية لا تعطينا إلا النزر اليسير من المعرفة عن أحوال السبئيين، ولولا أن أكملتها المصادر العربية والكتابات التي عُثر عليها أخيرا لكانت معلوماتنا عن سبأ لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

وفي طليعة المصادر العربية التي أمدتنا بحقائق ثابتة عن أحوال سبأ واقتصادها الزراعي والتجاري: القرآن الكريم: ففي صورتي النمل([2]) وسبأ([3]) وصف موجز لعبادة سبأ ونظام حكمهم وتقدمهم الزراعي وتجارتهم مع بلاد الشام.

وعلى أساس ما ورد في القرآن الكريم وحوله بدأ المفسرون والمؤرخون يتلقّفون أقوال المسنين وحكاياتهم عن السبئيين و يدونونها دونما تمحيص أو تدقيق، فجاءت مؤلفاتهم مزيجا من الغث والسمين، بحيث غدا الإعتماد عليها كليا لا يوصل إلى حقيقة أخبار السبئيين. فمثلا لا تشير هذه المصادر إلى السبئيين كما أشارت لهم المصادر الأجنبية وكما ذكرتهم النصوص المكتشفة في الفترة الأخيرة.

وعلى العموم فإن الإستفادة من المصادر العربية تحتاج إلى دقّة في التمييز بين السبئيين وغيرهم من سكان جنوب الجزيرة، كما تحتاج إلى المقارنة بين ما ورد في هذه المصادر و بين المصادر الأخرى، وهذا ما سأفعله ــ إن شاء الله ــ في دراستي عن السبئيين في الفصول التالية.

نسب السبئيين:

المصادر الأشورية واللاتينية لم تتعرض لأصل السبئيين وإن كان يُفهم منها إجمالا أنهم من سكان جزيرة العرب. والمصادر الوحيدة التي أشارت إلى نسب السبئيين هي المصادر العربية واليهودية:

ففي الكتاب المقدس تناقض في أصل السبئيين: فتارة ينسبهم إلى الحاميين، وتارة أخرى إلى الساميين.

فنسب سبأ في سفر التكوين:

بنو حام([4]) ــ كوش ومصرايم وفوط وكنعان
وبنو كوش: سبأ وحويلة ورعمة وسبتكا

---

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٥٩
(٢) الآيات ٢٢ ــ ٤٤
(٣) الآيات ١٥ ــ ١٩
(٤) الإصحاح العاشر الآيتان ٦، ٧

بنو سام[1] — عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام

وأرفكشاد ولد شالح

وشالح ولد عابر

وعابر ولد فالج و يقطان

و يقطان ولد الموداد وشالف وحضر موت و يارع ورهد ورام وأوزال ودلة ودقلة وأبيحايل وشبا وأوفير و يوباب.

و يبدو أن هذه التناقض في نسب سبأ بالعهد القديم هو الذي أوقع بعض المستشرقين في الظن بأن السبئيين من الحاميين الذين جاءوا إلى جنوب الجزيرة من الحبشة، وأقنعهم بظنّهم هذا: الكتابات السبئية التي عُثر عليها في الحبشة[2]. إلا أن علماء التوراة يفسّرون هذا التناقض بأنه تعبير وكناية عن انتشار السبئيين ونزوح قسم منهم إلى السواحل الإفريقية المقابلة حيث استوطنوا هناك واختلطوا بأبناء كوش[3].

أما المصادر العربية فتُجمِعُ على أن العرب قسمان أو طبقتان:

العرب البائدة:

وهي العرب التي هلكت واندرست معالمها وانقطعت أخبارها: كعاد وثمود وطسم وجدين وأميم وعبيل وجرهم وجاسم وعمليق.

والعرب الباقية وهم:

القحطانيون: وموطنهم الأصلي جنوب الجزيرة.

والعدنانيون: وهم البدو والحضر الذين كانوا يقنطون أواسط الجزيرة والحجاز والشام.

والسبئيون في هذه المصادر هم من القحطانيين — فسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. أما قحطان نفسه (في هذه المصادر) فهو قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح[4].

وأشير هنا إلى بعض الملاحظات حول نسب سبأ كما ورد في الكتاب المقدس وكما ذُكر في المصادر العربية:

١ — تقارب نسب قحطان بين المصادر العربية والعبرانية، ولا يحدث الاختلاف إلاّ في بعض الحروف، مما يوحي أن المصادر العربية اعتمدت على المصادر اليهودية في ذكر أنساب الأمم الماضية.

---

(١) الإصحاح العاشر الآيات ٢١ — ٢٩

(٢) جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام ص ١٣٧

(٣) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٢٦١

(٤) السيرة النبوية: ابن هشام جـ١ ص ٥، جهرة الأنساب، ابن الكلبي، مخطوط رقم ٩٩٥٩ ص ٢٣ دار الكتب بمصر

٢ــ ان الكتاب المقدس المتداول حاليا ليس هو التوراة المنزلة على موسى ،عليه السلام، فذكر الانساب بهذا التسلسل بعيد عن الصحة شأنه في ذلك شأن ما ذكر عن خلق السموات والأرض وتحديد ذلك بالأيام. فموسى، عليه السلام، يسأله فرعون: «ما بالُ القرونِ الأولى، قال عِلْمُها عند ربي في كتابٍ لا يضِلُّ ربّي ولا ينسى»(١). وفي القرآن الكريم أيضا ما يشير إلى أن معرفة الخلق بخلق السموات والأرض لا تتعدى ما أخبرهم به الله ــ عز وجل ــ قال تعالى «ما أشهدتُهم خلْق السمواتِ والأرض ولا خلْق أنفسهم وما كنتُ مُتخِذَ المُضلّين عَضُدا»(٢).

٣ــ لم يَرِدْ في القرآن الكريم ولا في الحديث ما يشير إلى انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين، بل جاء هذا التقسيم في وقت مُتأخر. فقد خاطب القرآن الكريم العربَ على أنهم من نسل ابراهيم كما في قوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملّة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هومولاكم، فَنِعْم المولى ونعم النصير»(٣).

٤ــ وقد أدرك المسلمون صعوبة التحقُّق من الأنساب، فقد حُكي(٤) عن النبي «صلى الله عليه وسلم» أنه كان إذا انتسب لم يتجاوز عدنان ثم يُمسك و يقول: كَذَبَ النسّابون.

وقال عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»: إني لأنتسب إلى معد بن عدنان ولا أدرى ما هو.

وقال سليمان بن خيثمة: ما وجدنا في عِلْمِ عالم ولا شِعْرِ شاعر أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان و يعرب بن قحطان.

وإنما أوردنا هذه الملاحظات في إطار نسب السبئيين لتبيّن صعوبة التحقّق من الأنساب. ولهذا فإننا لانزيد عمّا ورد في الحديث عن السبئيين عندما سئل الرسول «عليه السلام» عن سبأ أهو رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال عليه السلام: بل هورجل ولدَ عشرة، فسكن اليمن منهم ستة و بالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير. وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان(٥).

وعلى هذا الأساس فإن السبئيين مجموعة من القبائل تعود في نسبها إلى سبأ.

---

(١) سورة طه، الآيتان ٥١، ٥٢

(٢) سورة الكهف، الآية ٥١

(٣) سورة الحج، الآية ٧٨

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام، جـ١ ص٢

(٥) مسند الامام احمد بن حنبل، جـ٤ ص ٢٩٠٠

وإذا وقفنا عند هذا الحد في تتبع نسب السبئيين ، فإن أولاد سبأ والقبائل التي تفرعت عنهم أكثر وضوحا ، ففي الحديث السابق أن أولاد سبأ هم : غسان ولخم وجذام وعاملة وحمير ومذحج ومخندة والأشعر وأنمار الذين منهم بجيلة وخثعم(١). و يذكر ابن كثير في تفسيره أن هؤلاء العشرة ترجع إليهم أصول قبائل اليمن عموما(٢) .

هذه الأصول العشرة تفرعت إلى بطون كثيرة ــ لايسع المجال لذكرها ــ وإنما تهمنا القبائل التي سترد في هذا البحث وهي تتفرع من كهلان وحمير ابني سبأ : فمن القبائل التي تنسب إلى كهلان : الأزد وأنمار وخثعم و بجيلة وجذم وشهران وهمدان وجشم ــ بكيل وحاشد .

ومن القبائل التي تنسب إلى حمير: قضاعة و يلي وردمان وقتبان وآل زرعة والصوار وآل يحضب(٣) .

وتكاد تُجمع كتب المؤرخين العرب على أن سبأ بن يشجب أعطى الملك لأبنه حمير بينما اعطى ابنه كهلان حماية الثغور وقيادة الجيش .

ولكثرة القبائل السبئية حدث إختلاف بين المؤرخين والباحثين في تحديد هويّة السبئيين :

فالقرآن الكريم ، قول الحق ، يجمع أولاد حمير وأولاد كهلان و ينسبهم إلى جدهم الأكبر سبأ ، جاء ذلك عند ذكر ملكة سبأ (التي يعتبرها المؤرخون العرب ملكة حمير) وعند ذكر جنتي سبأ وخرابهما بسيل العرم ، وأيام تجارتهم الآمنة .

أما المؤرخون العرب فيجعلون سبأ هي حمير أو من حمير، ولهذا لايرد اسم سبأ في مؤلفاتهم إلاّ نادرا .

ثم جاء المستشرقون ومؤرخو العرب المعاصرون بتحديد جديد للسبئيين بعد أن ذكرتهم النصوص ، فرأوا أن السبئيين هم أولاد كهلان فقط ، أما أولاد حمير بن سبأ فهم الذين يطلق عليهم الحميريون .

وهذا التقسيم موضع نظر، إذ أن النصوص المكتشفة تشير إلى ملوك حمير (الذين ذكرتهم المصادر العربية) بألقاب «ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات» .

ومن بين المصادر المتعددة التي ذكرت السبئيين ونسبهم ، والاختلافات المتباينة في تحديد هوية السبئيين والحميريين على السواء ، والنصوص المكتشفة التي ركّزت على السبئيين دون الحميريين ــ من بين هذه لابد من تحديد موقع السبئيين بتاريخ عرب الجنوب عامة ، ذلك أن شهرة سد مأرب إرتبطت بهم ارتباطا وثيقا بحيث غدت دراستهما معا أمرا لازما .

(١) ابن الكلبي ، جمهرة الأنساب ــ مخطوط رقم ٩٩٥٩ ص٢٣ دار الكتب المصرية

(٢) المجلد الثالث «تفسير سورة سبأ» ص ٥٣٠ وما بعدها

(٣) محمد الأكوع الحوالي ، اليمن الخضراء : أنظر شجرة نسب أولاد سبأ ص ١١٢

الفصل الثاني

موقع السبئيين من تاريخ عرب الجنوب

الخطوط العريضة التي يسير عليها الباحثون بتاريخ جنوب الجزيرة اليوم تتناول دراسة الممالك التي ظهرت هناك واشتركت في تسطير هذا التاريخ. ومن هذه ما عرف منذ القدم: كمملكة حمير، ومنها ما عرف أخيرا بعد اكتشاف النصوص والنقوش المدونة: كسبأ ومعين وقتبان وأوسان وحضرموت. وقد رتب الباحثون ممالك جنوب الجزيرة الرئيسية ترتيبا زمنيا، فذكروا أنّ أقدمها معين تلتها سبأ وأخيرا حمير. أما بقية الممالك الأقل شهرة فقد عاصرت الدول الثلاث أو بعضها.

ومنهج الدراسة هذا مشكوك في صحته حتى من قبل الذين وضعوه، فجورجي زيدان المصدر الأساسي[١] لهذه الدراسة يقول في مقدمة تاريخ (العرب قبل الإسلام): «وغاية ما نرجوه من دراسة ذلك أن تزيد مواضع الإصابة في هذا الكتاب على مواضع الخطأ، ولا نقول ان كل خطأ سهو جرى به القلم، بل نعترف أنّ ما نجهل أكثر مما نعلم»[٢].

ومهما يكن رأي زيدان في كتابه فإنه لايزال المنهج الذي يسير عليه الباحثون في هذا التاريخ حتى الآن، رغم ان المشاكل المعقدة التي واجهته ما برحت تعترض الباحثين حتى بعد اكتشاف نصوص جديدة. ومن هذه المشكلات المحيرة التي لا تزال قائمة:

١ــ لماذا اقتصرت المصادر الإسلامية على ذكر مملكة حمير ولم تُشر إلى مملكة سبأ وغيرها من الممالك رغم أن شهرة مملكة سبأ ومعين وصلت إلى اليونان والرومان ومن قبلهم الأشوريين والعبرانيين؟ وَلِمَ حدث العكس تماما في النقوش والكتابات التي أشارت إلى كل هذه الممالك ما عدا حمير؟

فهل حمير هي سبأ أم أن سبأ هي حمير؟ أم أنهما دولتان منفصلتان متتابعتان؟ وهل نعتبر ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ملوكا حميريين كما تذكرهم المصادر العربية أم نعتبرهم ملوكا سبئيين قياسا على ملكة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وكما جاء في النصوص بأن ألقابهم «ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت» وإذا اعتبرناهم حميريين لأنهم

(١) جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام، انظر تقديم الدكتور حسين مؤنس ص ٥

(٢) المصدر السابق، المقدمة ص ١٤

من نسل حمير بن سبأ، فما مكان أبرهة الحبشي الذي تلقّب بلقب هؤلاء؟

٢ــ ومشكلة أخرى معقّدة هي: تحديد بداية المملكة السبئية ونهايتها: فالدراسات الحالية المعتمدة على النصوص تشير إلى أن بداية المملكة السبئية كانت في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد، إلا أننا نجد ملكة سبأ في القرآن الكريم معاصرة لسليمان، عليه السلام، الذي عاش في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ــ كما سنرى ــ أي ان ملكة سبأ حكمت قبل أول مكرب سبئي بــ(١٥٠) عاما، و بالتأكيد فإن ملكة سبأ ليست أول حاكم لسبأ، لأننا لم نشهد في التاريخ القديم أو الحديث إمرأة أسست مملكة؟

وإذا كان هذا حال بداية المملكة السبئية فإن نهايتها لا تزال غامضة كذلك، رغم ان كثيرا من الباحثين يعتبرون عام (١١٥ ق.م) نهايتها و بداية الحكم الحميري بألقاب «ملوك سبأ وذي ريدان».

غير أن هذا الاعتبار مردود، ذلك أن (علهان نهفان) و(شعر أوتر) وهما من أوائل ملوك «سبأ وذي ريدان» ليسا حميريين وإنما هما سبئيان حاشديان كما أشارت النصوص[1]. أضف إلى ذلك أن (اليشرح يحضب) وأخاه (يازل) «ملكي سبأ وذي ريدان» سجّلا انتصاراتهما على (كرب إل) صاحب ريدان و(شَمّر ذي ريدان) في أرض حمير![2] كما أن هناك نصوصاً كثيرة تشير إلى غزوات (اليشرح يحضب) للحميريين![3].

٣ــ ومشكلة ثالثة تبرز في أسماء الملوك: فعندما نسمع اسم: سبأ أو زهير أو أيمن، أو بلقيس، أو شمر يهرعش، أو حسان.. فإننا لانشك إطلاقا في أنها أسماء عربية.

لكننا إذا سمعنا أسماء: (سمهعلي ينوف)و(كرب إيل وتار)و(يثعمر بين) فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان أنها أسماء غريبة وكأنها ليست أسماء عربية أصيلة رغم أنها من أسماء مكارب سبأ!!

فهل ملوك سبأ ومكاربها خاصة ليسوا من العرب؟ أم أنهم عرب اختلطوا بغيرهم من الأمم وتأثروا بهم حتى في اسمائهم؟

٤ــ ومشكلة أخرى وهي كيفية تفسير التبدّل السريع في معبودات السبئيين، فملكة سبأ وقومها تركوا عبادة الشمس إلى عقيدة التوحيد كما جاء في القرآن الكريم، إلاّ أن النصوص السبئية ذكرت بعد ذلك آلهة أخرى كالمقه وعثتر وهوبس وشمس الملك تنوف وسميدع. وقد انتهت جميع هذه الآلهة بظهور عقيدة التوحيد في جنوب الجزيرة بتأثير اليهودية والنصرانية في المرحلة الأخيرة. فما هو سر تبديل السبئيين لآلهتهم بتلك السرعة لاسيما وأنه ليس من السهل تغيير العقيدة الدينية؟ فهل نرجع ذلك إلى عدم الاستقرار السياسي في جنوب الجزيرة؟ أم نرجعه

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، نقش رقم ٤ ص ٢٣، محمد حداد، تاريخ اليمن السياسي ص ٨٧

(٢) زيد عنان، حضارة اليمن القديم، نقش رقم ٤ ص ١٦٢، ورقم ٥٩ ص ٣٩٤

(٣) مطهر الارياني المصدر السابق ص ١١٨

إلى تنافس الأسر الحاكمة حتى في عقائدها؟ أم كان ذلك بتأثير أمم غازية حملت من جُملة ما حملت عقائد جديدة إلى جنوب الجزيرة؟

هذه جملة المشاكل الرئيسية التي تعترض الباحثين في تاريخ عرب الجنوب عامة وتاريخ المملكة السبئية خاصة، ناهيك عن مشاكل أقل وزنا في الظروف الراهنة –رغم أهميتها– كترتيب الملوك ومدد حكمهم والتمييز بين الأسر الحاكمة والتداخل التاريخي بين الممالك.. وغيرها من المشاكل التي لا تزال تحيّر الباحثين في هذا المجال.

وكان لابد من الإطلاع على تفاصيل عرب الجنوب أثناء البحث عن سد مأرب ما دام هذا السد قد عاصر معظم دول الجنوب. وقد أدى إلمامي بما ذكرته المصادر المختلفة عن تاريخهم إلى ادراك المشاكل والتعقيدات السابقة، فحاولت حلّ بعضها خاصة تلك التي تمتّ إلى موضوع السد بصلة، وفق منهج الدراسة الحالي، فلم أقدر على ذلك. وقد دفعني ذلك إلى البحث عن نظرة جديدة لهذا التاريخ قد أتمكن بواسطتها من المساهمة في حل هذه المشاكل أو بعضها على أقل تقدير.

والاتجاه الجديد للدراسة التي أود أن أعرضها ينطلق من تقسيم حُكْم السبئيين إلى أربع فترات هي: الدولة السبئية الأولى، والدولة السبئية الثانية، وفترة الصراع على السلطة بين الأسر، والدولة السبئية الثالثة.

ومعنى هذاالتقسيم أنني اعتبرت السبئيين –الكهلانيين والحميريين– هم الموجهين لتاريخ عرب الجنوب عامة، وأن مساهمة غيرهم كانت في فترات قصيرة إذا ما قيست بالحكم السبئي الطويل. وحتى هذه الفترات القصيرة (التي حدثت إبان ضعف الحكم السبئي أو في المراحل الانتقالية بين الدول السبئية) لم يعترف بها السبئيون ولم يوردوها ضمن تاريخهم سواء أكان حكام تلك الفترات ممّن يمُتُّون لهم بصلة أو ممّن اتخذوا من شهرة السبئيين شعاراً لهم ولمملكتهم، أو ممّن احتلوا جنوب الجزيرة من الأمم المجاورة لهم.

وتفاصيل فترات الحكم السبئي توضح هذه الفكرة الجديدة والتي يمكن بواسطتها حلّ كثيرٍ من المعضلات المستعصية في تاريخ عرب الجنوب كما يلي:

أولا: الدولة السبئية الأولى:

وتبدأ هذه الدولة بسبأ بن يشجب وتنتهي بملكة سبأ الوارد ذكرها في القرآن الكريم.

واعتبار سبأ بن يشجب مؤسس هذه الدولة يعتمد على ما يلي:

١– إجماع مؤرخي العرب على ذلك.

٢– لا توجد آراء أو أقوال قديمة أو حديثة تناقض ذلك.

٣ـ إن الدول كثيراً ما تُنسب إلى مؤسسيها أو إلى أحد آبائهم أو أبنائهم: كالدولة العثمانية أو الدولة السعودية أو دولة الأدارسة أو الدولة الطاهرية. وتبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحا في الدول التي قامت في اليمن بعد الإسلام: كدولة آل يعفر وآل نجاح وآل زياد والصليحيين وآل زريع و بني أيوب و بني رسول.

اما اعتبار ملكة سبأ آخر الحكام للدولة السبئية الأولى فيفهم من النقوش وأقوال مؤرخي العرب.

فقد جاء في النقوش التي تلت حكم ملكة سبأ ـ بفترة ـ أسماء حكام جدد للسبئيين تختلف أسماؤهم تماما في الاشتقاق والمعنى عن ملوك الدولة السبئية الأولى التي أوردتهم كتب المؤرخين العرب. أضف إلى ذلك ظهور إله جديد في النقوش لم يُعرف من قبل في جنوب الجزيرة وهو (المقه). وظهور هذا الإله في هذه الفترة بالذات يوحي لنا أن تغيرات جذرية حدثت في جنوب الجزيرة لاسيما وأن ملكة سبأ كانت قد اعتنقت ديانة التوحيد كما نصّ على ذلك القرآن الكريم.

أما مؤرخو العرب فيذكرون وقوع فتنة(١) على الملك في اليمن وتغلب كلّ على ما تحته بعد وفاة سليمان، عليه السلام، أضف إلى ذلك أنهم يجعلون (ياسرينعم) هو الذي حكم بعد ملكة سبأ(٢) في حين أنه حكم حوالي (٢٧٠م) ـ كما سنرى ـ أي بعد حكم ملكة سبأ بأكثر من (١٢٠٠) سنة. وهذا يؤكد حدوث تغيرات بعد حُكم الملكة كأن حكمت أسرة أو عدة أسر لم يعترف بحكمهم عند المؤرخين العرب.

بقي أن نحاول استقصاء تأريخ بداية الدولة السبئية الأولى بسبأ بن يشجب ونهايتها بملكة سبأ. و بالطبع فإنه من المستحيل تحديد ذلك بدقة في الظروف الراهنة بسبب عدم وجود نص أو نقش يشير إلى أحد من ملوك هذه الدولة اطلاقا ولهذا فإن محاولتنا لا تعدو كونها تقريبية كما سنرى:

المشهور في كتب السيرة والتاريخ ان اسماعيل، عليه السلام، نزل مكة و بها قبيلة جرهم، وأخبار وصول رئيس جرهم إلى مكة مذكورة في قصيدة نشوان الحميري، إذ أنه جاء إليها واليا من قبل (الهميسع بن حمير بن سبأ)(٣). وابراهيم وابنه اسماعيل، عليهما السلام، كانا قبل ملك الاسكندر (٣٣٣ق.م) بـ(١٨٥٣) سنة(٤) وعلى هذا الحساب يكون ابراهيم وابنه اسماعيل عاشا في حوالي عام (٢١٨٦ ق.م)، فإذا أضفنا إلى هذا العام مدة حُكم سبأ (مؤسس الدولة) وابنه حمير بن سبأ (اللّذين سبقا الهميسع بن حمير المعاصر لقبيلة جرهم التي بدورها زمن ابراهيم واسماعيل)

(١) قصيدة نشوان ص ٨٨

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) المرجع نفسه ص ١٧

(٤) تاريخ يوسيفوس اليهودي ص ٣٩

كانت تلك بداية الدولة السبئية الأولى. إلاّ أننا لانعرف مدة حُكم سبأ وابنه حمير لكي نحدد بداية هذه الدولة بالضبط، ولهذا فإننا نُقدّر بأنها بدأت قبل عام (٢٢٠٠) قبل الميلاد على أقل تقدير.

ومن مصادر أخرى نصل إلى تقدير تقريبي يقارب التقدير السابق، فقد جاء في نص سومري يعود إلى الملك أردننز (٢٣٠٠ ق.م) ذكر لسبأ أو (سبو) كما أسلفنا[١]، ولم يكن لسبأ أن تصل أخبارها إلى سومر لو لم تنل حظا من الشهرة أتاح لها ذلك.

ومن هذه المصادر المختلفة يكون تقدير بداية المملكة السبئية الأولى في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل المسيح تقديرا معقولا.

أما نهايتها بآخر عهد ملكة سبأ فيمكن تحديده على النحو التالي: ملكة سبأ عاصرت سليمان، عليه السلام، بنص القرآن الكريم، فإذا بحثنا في فترة حكم سليمان وجدنا اختلافات متقاربة حول فترة حكمه:

فيوسيفوس اليهودي يذكر أن مُلك داود، عليه السلام، قبل ملك الاسكندر (٣٣٣ق.م) بـ(٧٤٠) عاما[٢] أي ان داود كان عام (١٠٧٣ق.م) وحكم سليمان بعد حكم أبيه داود كما هو معروف.

ويرى الدكتور فؤاد حسنين في استكماله ان سليمان جلس على عرش مملكته عام (٩٩٧ق.م)، وأن ملكة سبأ تولّت الحكم عام (٩٦٨ق.م) وتركته عام (٩٤٤ق.م)[٣].

أما البروفيسر البريت (عالم الآثار في بعثة وندل فيليبس الأمريكية) فيقدّر فترة حكم سليمان ما بين عامي (٩٦١ـ ٩٢٢ق.م)[٤].

وبناء على هذه المصادر المتقاربة في تقديراتها تكون نهاية الدولة السبئية الأولى في النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد.

هذا وإن كنا حددنا المفهوم العام لهذه الدولة: بدايتها ونهايتها، فإن معلوماتنا عن ملوكها وأعمالهم جاءت من مصادر وحيدة هي المصادر الإسلامية وأفيدها في هذا الموضوع: قصيدة نشوان الحميرى الذي ذكر فيها كثيراً من ملوك هذه الدولة وأعمالهم.

ويُفهم من هذه القصيدة وغيرها من المصادر الإسلامية أن هذه الدولة كانت قوية بحيث تعدّت فتوحاتها نطاق الجزيرة العربية إلى ما جاورها من الأقطار، غير أن النقوش السبئية وكتابات

---

(١) انظر الفصل الأول ص ٢

(٢) تاريخ يوسيفوس اليهودي ص ٣٩

(٣) التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ٢٦٤

(٤) كنوز مدينة بلقيس، وندل فيليبس ص ٢٧١

الأمم المعاصرة لهم لم تشر إلى هذه الفتوحات.

و يأتي اسم هذه الدولة في المصادر الإسلامية «الدولة الحميرية» على أساس أن سبأ بن يشجب أوصى بالمُلك بعده لابنه حمير وأولاده من بعده. إلاّ أن ورود ملكة سبأ في القرآن الكريم ـــ لاملكة حمير كما ترد في قوائم ملوك حمير عند المؤرخين العرب ـــ جعلني آخذ بتسمية القرآن لها فأسميتها الدولة السبئية الأولى.

ثانيا: الدولة السبئية الثانية:

جُلّ المعلومات عن هذه الدولة مستقاة من النقوش والكتابات التي عُثر عليها أخيرا، إذ أن المصادر العربية لم تُشر إلى هذه الدولة إطلاقا. و بالطبع فإن النقوش والكتابات مصادر موثوقة يمكن الاعتماد عليها بكل اطمئنان. إلا أن نقطة الضعف التي سببت الغموض في معرفة أحوال هذه الدولة بالرغم من وجود النقوش هي:

١ـــ نقص النقوش المكتشفة.
٢ـــ عدم وجود تاريخ ثابت لهذه النصوص.
٣ـــ تشابه أسماء الحكام وتكرارها بحيث يصعب نسبة الحادثة المدونة في النصوص إلى زمنها.

مع هذا فسنحاول الاستفادة من هذه النقوش إلى أقصى حد ممكن مهما كلّف ذلك من جهد ومشقّة ما دامت هي المصدر الوحيد الذي يوصلنا إلى أخبار هذه الدولة.

وقبل البدء في التحديد الزمني لبداية هذه الدولة ونهايتها نعود إلى الفترة الانتقالية بين نهاية حكم ملكة سبأ (٩٢٢ق.م) و بداية ظهور أول حاكم للدولة السبئية الثانية عام (٨٢٠ أو ٨٠٠ق.م).

هذه الفترة التي تمتد أكثر من قرن من الزمن فترة مظلمة تماما بكل ما تعنيه الكلمة، فلم يرد عنها أي نقش سبئي ولم يُذكر عنها أي خبر سواء أكان ذلك من المؤرخين العرب أم من المصادر العبرية أو اليونانية أو الرومانية أوغيرها من المصادر القديمة.

إلا أن هناك خيطا دقيقا نريد ان نتشبث به علّنا نستنير بواسطته في ظلام هذه الفترة. فقد جاء في شرح قصيدة نشوان ان سليمان، عليه السلام، زوّج ملكة سبأ من ذي بتع أحد الأقيال.(١) و يبدو أن الأمر لم يستتب لذي بتع هذا، فقد حدثت فتنة وتنازع على المُلك في اليمن بعد حكم ملكة سبأ مكّن الطامعين من الاستيلاء على ما تحت أيديهم والاستقلال عن الدولة السبئية الأولى.

---

(١) قصيدة نشوان الحميري ص ٨٥

و يلوح لنا من النصوص السبئية للدولة الثانية أن أبرز قوة في هذه الفترة كانت قوة المعينيين، إذ أننا نجد مكارب سبأ الأ وائل يصطدمون بقوة المعينيين في الجوف(١). ولا يعني هذا أن المعينيين يظهرون على المسرح لأ ول مرة في هذه الفترة ــ فهم أقدم من ذلك بكثير فقد ورد ذكرهم حوالي عام (١٥٠٠ق.م)(٢)، أي انهم كانوا معاصرين للدولة السبئية الأ ولى وإن كانت شهرتهم آنذاك تجارية فقط ــ وإنما نعني بظهورهم في هذه الفترة كقوة عسكرية تحاول أن تخلف الدولة السبئية الأ ولى.

ومن القوى التي ظهرت في هذه الفترة (منافسة لمعين) قتبان وحضرموت، فقد جاء في نص معيني ذكرٌ لملك معين (اليثع) وملك قتبان (شهريجل يهرجب) في نص واحد(٣) مما يدل على أنهما (معين وقتبان) متعاصرتان ومتقاربتان في قوتهما.

وحضرموت كانت معاصرة لمعين أيضا، فقد ذكر فيليبي وهومل أن أول ملك حضرمي (صِدَقِ إل) عاصر الجماعة الثانية من جماعات ملوك معين(٤).

وَ بروز هذه الممالك في الفترة التي نحن بصددها ــ والتي تلت حكم ملكة سبأ ــ يؤكد لنا ما سبق أن ذكرناه وهو: حدوث تنازع على السلطة بعد نهاية الدولة السبئية الأ ولى.

وتبدو لنا في هذه الفترة ظاهرة واضحة في تاريخ عرب الجنوب عامة وهي: التداخل التاريخي بين ممالك الجنوب. فقد رأينا أن معين ظهرت إبان الدولة السبئية الأ ولى القو ية، كما ذكرنا أن حضرموت وقتبان عاصرتا معين، ونضيف إلى ذلك أن هذه الممالك الثلاث ترد في نصوص الدولة السبئية الثانية التي نحن بصددها.

و يهمنا جداً تفسير هذه الظاهرة على أساس أنها تحل كثيرا من الألغاز في تاريخ جنوب الجزيرة خاصة فيما يتعلق بقيام الدول وحرو بها ونهايتها:

والتفسير المعقول لهذه الظاهرة ينبع من واقع تاريخ اليمن القديم والمعاصر، إذ أن النظام القبلي مستمر بها إلى ما شاء الله، ولكل قبيلة في هذا النظام أرض معينة معروفة لا تتعداها ولا يُتعدى عليها حتى في حالة تبعتها لمملكة معينة تبقى مستقلة ذاتيا ما دامت قو ية، فإذا آنست ضعفا في الدولة المسيطرة فسرعان ما تخرج عليها وتنتزع السلطة منها إن استطاعت ذلك ولو اقتضى الأمر الاتحاد مع غيرها. وهذا يفسر لنا قيام ممالك ودول كثيرة في اليمن خلال العصور المختلفة جعلها مرشحة لأن تكون أكثر أمكنة العالم في عدد الدول التي أقيمت فيها.

---

(١) جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام ص ١٣٢

(٢) دائرة المعارف البريطانية «مادة السبئيين»

(٣) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٣ ص ٥٢

(٤) محمد حداد، تاريخ اليمن السياسي ص ٥٧

وقد يتسع نفوذ إحدى الممالك بحيث تشمل جارتها، ولكنها ــ حتى في هذه الحالة ــ لا تقضي عليها نهائيا وإنما تكون تبعيةُ الدولة المحتلة إسميا أو مؤقتاً أو اتحاداً مع الدولة الغالبة، والنص التالي يُبيّن لنا جانبا من هذه التبعية :

«أحد الأقيال يُقدّم تقرُّبا للمقه لأنه نصر سيده (شعرأوتر) عندما شنّ حربا على (العزيلط) ملك حضرموت .... كما أنه (مقدّم القربان) يحمد المقه على أن نصره في غزوتين سابقتين قام بهما في ارض حضرموت»(١) .

فهل كان في نية شعرأوتر القضاء التام على مملكة حضرموت؟ بالطبع لا، لأنه لو أراد ذلك لتمّ له في الغزوة الأولى فهو أشهر ملوك سبأ وذي ريدان، وإنما كل ما كان يريده شعرأوتر ــ كما يبدو من غزواته المتكررة لحضرموت ــ أن تخضع له إسميا وألا تخرج عليه مرة أخرى أو تنضم لقوة أخرى مُنافسة له، لعِلمِه أن أرض حضرموت لشعب حضرموت لا لغيرهم. وبهذا التفسير يمكن إيضاح وجود عددٍ من الممالك في وقت واحد.

وبعد هذا العرض للفترة القصيرة التي أعقبت الدولة السبئية الأولى والتي برزت فيها عدّة دول مستقلة ومتنافسة، نبدأ في تحديد بداية الدولة السبئية الثانية ونهايتها :

تُقسم فترة حُكم حكّام هذه الدولة إلى دورين :

الدور الأول : حُكم مكارب سبأ

الدور الثاني : حُكم ملوك سبأ

وقد جمعنا بين هذين الدورين في دولة واحدة، لأن حكام الدورين من جماعة واحدة، وليس أدل على ذلك من أن آخر مكرب هو أول ملك كما سنرى.

ويبدأ دور المكارب حوالي عام (٨٠٠ق.م) أو عام (٨٢٠ق.م) عندما ظهر أول مكرب واسمه (سمهعلي ينوف) في صرواح العاصمة الأولى لهذه الدولة. وقد جاء ذكره في نقش يتحدث عن تقديمه البخور باسمه ونيابة عن قبيلته التي قادها من الشمال عبر الفيافي والقفار إلى الأرض السعيدة(٢).

واكتشاف هذا النقش فتح بابا كان موصدا وشكّل منعطفا تاريخيا خطيرا في تاريخ عرب الجنوب عامة، إذ أن المشهور لدى المؤرخين أن حكّام سبأ هم أصلا من السبئيين سكان جنوب الجزيرة. فما بال هذا المكرب الأول يأتي من الشمال إلى الأرض السعيدة؟ وأي شمال؟ أمن العراق أم الشام أم من شمال الجزيرة.

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، انظر النقش رقم ١٣ ص ٧٩ وما بعدها

(٢) التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ٢٨٩

لم يحدد لنا النص المكان الذي جاءت منه هذه القبيلة والتي قادها (سمهعلي) وإنما الشيء الذي يؤكده النص أنهم وصلوا إلى ارض اليمن من خارجها.

فهل يعني ذلك أنّ حكام الدولة السبئية الثانية (مكارب وملوك سبأ) ليسوا من سبئيي جنوب الجزيرة الذين بقوا فيها؟

هناك بعض الملاحظات التي تؤيد هذا الاتجاه منها:

١ــ ما ذكرناه سابقا من اختلاف أسماء هؤلاء الحكام عن أسماء حكام الدولة السبئية الأولى وعن حكام الدولة السبئية الثالثة كما سيأتي.
٢ــ الإله الجديد الذي دخل جنوب الجزيرة ــ بعد ملكة سبأ ــ مع هذه القبيلة وهو المقه.
٣ــ إهمال ذكرهم في المؤلفات العربية، ويمكن أن يكون سبب ذلك أنهم ليسوا من حكام جنوب الجزيرة الأصليين المُعترف بهم.
٤ــ لفظة (مكرب) التي دخلت جنوب الجزيرة مع هذه القبيلة، إذ أن حاكم المقاطعة يسمى في اليمن القديم «قيل» وحاكم المملكة يسمى «ملك».

وقد فسر الباحثون في تاريخ جنوب الجزيرة كلمة (مكرب) بأنه مقرب من الآلهة، أي أن المكرب السبئي كان يجمع بين الكهانة والملك معا، بينما تجرد من صفته الكهنوتية في دور ملوك سبأ الذي تلا دور المكارب(١). وهذا اجتهاد من الباحثين لتفسير لقب (مكرب) أو (مقرّب) ولا دليل عليه من النصوص. فقد قارنتُ بين النصوص التي تعود إلى عهد المكارب والنصوص التي ترجع إلى زمن الملوك فلم أجد اختلافا في صيغة تقديم القربان: ففي الفترتين تأتي الصيغة «فلان قدّم قربانا للإله المقه في عهد مكرب أو ملك سبأ فلان..» فلو كان المكارب مقربين من الآلهة في نظرهم لجاءت صيغة تقديم القرابين مميزة عن صيغتها في عهد الملوك: كأن تأتي ــ قدّم للإله المقه بواسطة المكرب فلان، أو قدّم للمكرب فلان ليوصلها إلى الاله المقه.. أو غير ذلك من الألفاظ التي تشير إلى قرب المكرب من الآلهة أو تُبيّن مركزه الديني في أذهان الناس كما دلّت صكوك الغفران على مركز البابا في العصور الوسطى أو كما تدل اعترافات النصارى بذنوبهم أمام الراهب على أساس أنه أقرب إلى الله منهم كما يعتقدون.

والتفسير الأقرب للصحة لمعنى «مكرب» أنه عَلَمٌ على حكام القبيلة التي جاءت من الشمال إلى الارض السعيدة تماما كلقب: فرعون أو خديوي مصر وكسرى فارس وقيصر الروم بل قل كلقب «مزواد»(٢) عند المعينيين.

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب جـ١ ص ٧٠

(٢) جورج زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٣١

أما إن كانت لفظة (مكرب) هي بعينها (مقرب)، فليس معناها مقرب من الآلهة بل إن هذه القبيلة حاولت التقرب للسبئيين الأصليين بعد عودتها من الشمال لئلا يُظنّ انها جسم غريب في مجتمع جنوب الجزيرة.

وعلى العموم فإن النص الذي سجّله أول مكرب بقدوم قبيلته من الشمال والملاحظات التي أشرت إليها سابقا تؤكد لنا أنّ حكام الدولة السبئية الثانية ليسوا من السبئيين الذين بقوا في جنوب الجزيرة.

فما هي الصلة الحقيقية بين هذه القبيلة وبين السبئيين في جنوب الجزيرة بحيث جعلتهم يتجهون إلى بلاد سبأ خاصة ويحكمونها باسم مكارب وملوك سبأ؟؟

إن هذه الصلة لا تتعدى احتمالين لا يُفَضَّلُ أحدهما على الآخر:

الأول: ان هذه القبيلة سبئية أصلا، هاجرت إلى الشمال ابّان قوة الدولة السبئية الأولى واستقرت هناك فترة من الزمن تأثّرت أثناءها بغيرها من الأمم في أسلوب معيشتها ولهجتها وعقيدتها، ثم عادت إلى بلدها الأصلي لأسباب سنراها بعد قليل. وليس هذا الاحتمال ببعيد، إذ أنّ كثيرا من قبائل الجنوب هاجرت إلى الشمال في أوقات مختلفة.

الثاني: ان هذه القبيلة من سكان المستعمرات التجارية السبئية التي أُنشئت على طول طرق التجارة لحمايتها في عهد الدولة السبئية الأولى. وهذه المستعمرات ارتبطت بالدولة الأم في الجنوب كارتباط المستعمرات الفينيقية التجارية على سواحل البحر المتوسط بدولتهم الفينيقية في لبنان.

وقد أوقعت الصلة القوية بين المستعمرات السبئية والدولة الأم بعض المؤرخين في الظن بأن ملكة سبأ كانت في شمال الجزيرة العربية[1] وهم يستندون على ذلك بنص أشوري ذكر الأمم التي كانت تؤدي الجزية لسرجون الثاني ومن جملتهم فرعون مصر وشمسية ملكة العرب ويثعمر السبئي[2] وبالطبع فإن هذا المستند ضعيف، لأنه لو جاز لنا القول بوجود دولة سبئية في شمال الجزيرة لورد ذكرها في النص الأشوري، فما المانع من اعتبار فرعون مصر في شمال الجزيرة ما دام قد ورد ذكره في نفس النص!!

وعلى هذا يمكن ان يُفسّرَ النص الأشوري ــ على حسب ما ذهبت إليه ــ من أن الوجود السبئي المتمثل في شمال الجزيرة كان متمثلاً في المستعمرات التجارية السبئية.

---

(١) جواد علي، المفصل جـ٢ انظر ص ٢٦٢

(٢) جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام، ص ١٣٧

والسؤال:

لماذا رجعت القبيلة السبئية (المهاجرة أصلا من جنوب الجزيرة أو التي كانت من سكان المستعمرات السبئية) من شمال الجزيرة واتجهت نحو بلاد سبأ خاصة؟

السبب في رجوعهم: ان شمال الجزيرة تعرض لغزوات متتالية من ثلاث قوى:

فراعنة مصر: زمن رمسيس الثالث ورمسيس الرابع بين عامي (١٢٠٠–١١٦٦ق.م)[1].

والمملكة اليهودية: بعهد سليمان، عليه السلام، حوالي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد.

والأشوريون: ابتداء من سنة ٨٥٤ق.م في عهد شلمناصر الثالث[2].

هذه الغزوات المتتالية دقت ناقوس الرحيل للجماعات السبئية في شمال الجزيرة لاسيما وأن دولتهم الأولى بدأت تعجز عن حمايتهم. فأخذوا يرحلون من الشمال إلى الجنوب متجهين إلى وطنهم الأم.

و يبدو ان استقبال سكان الجنوب للمغتربين العائدين كان فاترا رغم محاولة هؤلاء التقرب إلى سكان الجنوب بالانتساب إليهم وإقامة المدن والمعابد والمشاريع الضخمة التي أكملوها أو أعادوا بناءها كسد مأرب. وعندما رأوا عدم جدوى محاولات التقرب هذه، عمدوا إلى استخدام القوة في فرض أنفسهم فأسسوا دولة سبأ الثانية التي نحن بصددها.

و يبدأ الدور الأول لهذه الدولة بـ(سمهعلي ينف) الذي سبق ذكره والذي قاد قبيلته من الشمال عام (٨٠٠ أو٨٢٠ق.م) وانتهى إلى صرواح (العاصمة الأولى لحكام هذا الدور).

أما نهاية حكم (المكارب) فقد كان ذلك في عهد (كرب إيل وتار) آخر المكارب وأول الملوك كما جاء في نقش (النصر) الذي عثر عليه في ساحة معبد صرواح[3] وكما ورد في اللوحة الاتحادية[4] المُكتشفة بجبل اللّوذ والتي تشير إلى انضمام المعينيين في الجوف إلى مملكة سبأ الفتية سواء أكان هذا الانضمام بالقوة أو بالاتحاد مع سبأ، وذلك في عام (٦١٠ق.م) على رأي معظم الباحثين[5].

أما نهاية حُكم الملوك (الدور الثاني) فالباحثون يجعلونه عام (١١٥ق.م) وهي بداية حكم ملوك سبأ وذي ريدان وانتقال العاصمة من مأرب (عاصمة دور الملوك) إلى ظفار كما هو المشهور. (ولي وجهة نظر ابديها عند ذكر ملوك سبأ وذي ريدان حول تاريخ بداية حكمهم).

(١) المرجع السابق ص ١١١

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٤٥

(٣) احمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٠٤

(٤) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٢١

(٥) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ انظر ص ٧٠

وعلى هذا التقدير تكون فترة حكم مكارب سبأ من (٨٠٠ أو ٨٢٠ق.م) إلى (٦١٠ق.م) أي(١٩٠أو٢١٠) سنوات، وفترة حُكم الملوك من (٦١٠— ١١٥ق.م) أي (٤٩٥) عاما. ومدة حكم الملوك أكثر من ضعف هذه الفترة بالعصر الحميري الأول لولا وجود نصوص تشير إلى أنّ مركز الحكم في هذه الفترة لم يكن في ظفار دائما كما يؤكد ذلك النص التالي: «ياسر ينعم وابنه شمر يرعش ملكا سبأ وذي ريدان ينتقلان من قصر ريدان بمدينة ظفار إلى مدينة مأرب لتسنم (لتسلم) العرش في سلحين مأرب[1].

إذن اعتبار ملوك سبأ وذي ريدان بداية حكم الأسرة الحميرية أو هم حكّام العصر الحميري الأول اعتبار مردود، لأن بعض ملوك سبأ وذي ريدان ليسوا من العائلة الحميرية بل يحار بون حمير، ولأن مركز الحُكم لم يكن في ظفار وحدها خلال هذه الفترة.

خطأ اعتبار عام (١١٥ق.م) بداية حكم ملوك سبأ وذي ريدان:

علهان نهفان الذي يتصدّر قوائم ملوك سبأ وذي ريدان عند المؤرخين ليس أولهم، لأن والده (يريم أيمن بن أوسلت الهمداني— ملك سبأ) كان تابعا إلى (واتريهامن— ملك سبأ وذي ريدان) و(واتريهامن) هذا تولى الحُكم بعد والده (اليشرح يحضب الأول— ملك سبأ وذي ريدان)[2] ولهذا فمن البداهة القول ان علهان نهفان ليس أول ملوك سبأ وذي ريدان ما دام والده كان تابعاً لأحد ملوك سبأ وذي ريدان، والأخير سبقه أيضا والده اليشرح في حكم سبأ وذي ريدان.

وخلاصة ما ذكرناه حتى الآن عن هذه الفترة:

ان ملوكها ليسوا جميعا من العائلة الحميرية، وان بداية حكمهم لم تكن بعلهان نهفان عام (١١٥ق م) كما يذكر الباحثون.

و يعني ذلك أنه لابد من دراسة جديدة لهذه الفترة:

والدراسة حول هذه الفترة من الأمور المعقدة، لا لقلة النقوش التي تعود إلى هذه الفترة، بل لأن النقوش متناثرة وغير متكاملة ،دون تاريخ معين أو حادثة ثابتة نستطيع بواسطتها تنسيق هذه النصوص لمعرفة سير أحداث هذه الفترة.

وقد بذلت جهدا مضنيا في محاولة الوصول لفكرة عامة في هذه الحقبة تسير مع الاتجاه العام لتاريخ عرب الجنوب معتمدا على تحليل النقوش ومقارنتها والوصول إلى استنتاجات معقولة يمكن الاستناد عليها إلى حين اكتشاف نصوص جديدة نصل منها إلى الحقائق التاريخية الأكيدة مباشرة.

لقد سميت هذه الحقبة «فترة الصراع على السلطة» وليست هذه التسمية اجتهادا من عندي

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن نقش رقم ١٤ ص ٨٩

(٢) المرجع السابق، نقش رقم ٤ ص ١٣

وإنما هي مستندة على نصوص هذه الفترة التي تشير إلى ان بعض ملوك سبأ وذي ريدان من قبيلة همدان وآخرين من قبيلة بني جرت وآخرين من حاشد وآخرين من ريدان حمير. إلاّ أن الشيء الذي يجمع بين هذه القبائل المتنافسة على الحكم هو كونهم سبئيين أصليين سواء أكانوا من نسل حمير أم من نسل كهلان.

ولكن لماذا لم يظهر هذا التنافس إلا في هذه الفترة بالذات؟

السبب في ذلك هو ان الدولة السبئية الثانية ـــ دولة المغتربين ـــ كانت قوية قبل هذه الفترة، فلم تستطع القبائل السبئية الأصلية مناهضتها، إلا انها في بداية فترة الصراع هذه، انتهزت ضعف الدولة السبئية الثانية، واتحدت معا واستولت على السلطة من دولة المغتربين. وما كادت هذه القبائل السبئية الأصلية تستولي على السلطة، حتى دب بينها التنافس والصراع الذي سجلته نصوص هذه الفترة.

فلنتتبع هذا الصراع منذ انتزاعهم السلطة حتى استقر الأمر للأسرة التي ترجع في نسبها إلى حمير بن سبأ:

هناك نصوص تشير إلى عائلة (ذرح) الأولاد يلقبون بملوك سبأ وذي ريدان والآباء دون لقب، في حين أن النصوص تشير دائما إلى لقب الأب والابن. وعلى هذا يعتقد[1] أن عائلة (ذرح) هي آخر عائلة من الدولة السبئية الثانية القادمة من الشمال والتي حكمت باسم مكارب وملوك سبأ. ويؤيد هذا ان عائلة (ذرح) لم تُذكر في شجرة نسب أولاد سبأ بن يشجب التي أوردها المؤرخ اليمني محمد الأكوع[2]، مما جعلنا نعتبر حكام هذه العائلة من ضمن حكام الدولة السبئية الثانية.

ويبدو ان جماعة ذي ريدان بدأوا في الظهور زمن عائلة (ذرح) إلا أن حكام العائلة الأخيرة استطاعوا ضم ريدان إليهم وتلقبوا بملوك سبأ وذي ريدان بدل اللقب الأول «ملك سبأ» فقط. ومن ملوك هذه العائلة الذين تلقبوا بهذا اللقب الجديد:

١ ـــ ذمرعلي وتريهنعم (ملك سبأ وذي ريدان) بن سمهعلي ذرح.
٢ ـــ نشاكرب يهامن (ملك سبأ وذي ريدان) بن ذمرعلي ذرح.
٣ ـــ وأخوه كرب إل بين (ملك سبأ وذي ريدان) بن ذمرعلي ذرح.
٤ ـــ وأخوهما يهقم (ملك سبأ وذي ريدان) بن ذمرعلي ذرح.

ولا نعلم ترتيب هؤلاء الملوك في الحكم، إلا أنه من المحتمل ان يكون (يهقم) آخرهم، فقد ورد اسمه في نقش[3] يذكر اعتداء قبيلة (شدّاد) على سلطته في مأرب مما يوحي بأن ذلك كان بداية

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن ـــ انظر ص ٥
(٢) اليمن الخضراء مهد الحضارة ص ١١٢
(٣) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٨١

الطمع في ملك عائلة (ذرح).

و يبدو أن السبئيين الأصليين اتحدوا وانتزعوا السلطة من أسرة ذرح، وكان هذا الاتحاد بين البكيليين والحاشديين والريدانيين والجرتيين ــ بزعامة (اليشرح يحضب الأول) البكيلي والذي يُعتقد أنه أول من تلقب بملك سبأ وذي ريدان من السبئيين الأصليين بعد عائلة آل ذرح التي تتبع الدولة السبئية الثانية.

ومن المُعتقد أن هذا الاتحاد بقي قائما إلى أواخر عهد (اليشرح يحضب الأول) وابنه (واتريهامن) حيث بدأ هذا الاتحاد في التفسُّخ نتيجة طمع الحاشديين والريدانيين الحميريين في السلطة، ولم يبق مع اليشرح وابنه إلا قبيلة بني جرت، فتبنّى[1] اليشرح رئيس هذه القبيلة واسمه (سعدشمس)، و يؤكد هذا التبني اللقب المدون في النصوص: سعدشمس بن اليشرح يحضب.

إلا أن هذا التبنى لم يُجد نفعا امام طمع الحاشديين بزعامة (يريم أيمن الهمداني وابنه علهان نهفان) اللّذين تمكنا من الوصول إلى السلطة زمن واتريهامن بن اليشرح. غير أن سلطتهما لم تدم طو يلا اذ تمكن سعد شمس وابنه مرثد يهحمد الجرتيان ــ واللذان تبناهما اليشرح يحضب من إعادة السلطة من الهمدانيين الذين اغتصبوها.

وحدث تطور جديد بعد سعد شمس وابنه مرثد، إذ دخل في حلبة الصراع الريدانيون الحميريون، فأصبح التنازع بين أسر ثلاث هي: الحاشدية الهمدانية بزعامة (شعرأوتر بن علهان نهفان)، والريدانية الحميرية برئاسة (لعيز يهنف يصدق) والجرتية بزعامة (لحيعثت يرخم) الذي يعتقد أنه جرتي ورث الحكم عن سعد شمس وابنه.

وقد جمع هؤلاء الملوك الثلاثة النقش رقم (٦٦) من مجموعة زيد عنان[2] وقد تلقّب كل منهم بلقب «ملك سبأ وذي ريدان» مما يدل على عدم الاستقرار لواحد من هؤلاء في السلطة. إلا أن الملوك الثلاثة يتّحدُون أمام غزوة حبشية لظفار كما بيّن النقش المذكور.

و يظهر أن شعرأوتر كان أقوى شخصية في هذا الاتحاد بعد زوال خطر الأحباش، فله نصوص كثيرة تشير إلى حروبه مع الأحباش والقبائل المؤيدة لهم، وإلى غزوات متكررة لحضرموت.

وجاء بعد شعرأوتر ابنه (يريم أيمن الثاني)[3] وفي عهده تمكن الريدانيون من الاستقلال بحكم سبأ وذي ريدان على ما يظهر. وهذه أول مرة (على ما أظن) تستقل هذه الأسرة بالحكم.

واستمر الحكم الريداني في عهد (ياسريهصدق، لعله ابن لعيز يهنف) وابنه ذمار علي يهبر

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، انظر ص ١٨، ٣٤

(٢) حضارة اليمن القديم ص ٣٣١

(٣) محمد يحي حداد، تاريخ اليمن السياسي ص ٨٧

وحفيده ثاران يهنعم بن ذمار علي.

إلا أن الأسرة الجرتية عادت للحكم بزعامة فرعم ينهب وابنيه اليشرح يحضب الثاني و يازل (ملكي سبأ وريدان).

وفي عهد اليشرح الثاني وأخيه يازل قام الريدانيون الحميريون بحركة مناوئة بزعامة (كرب إل) وخليفته (شمرذي ريدان) المعاصرين لـ(اليشرح الثاني) وقد تمكّن شمّر بالفعل من الوصول إلى قصر الحكم في مأرب[١] لفترة قصيرة، تمكن بعدها اليشرح من استعادة سلطته وأسر شمرريدان وربطه بالحبال[٢].

وتولى (نشاكرب يهامن) السلطة بعد أبيه (اليشرح يحضب الثاني). ولنشاكرب يهامن نصوص كثيرة ولكن لا يُعرف بالضبط من الذي أتى بعده.

إلا أن الأسرة الريدانية الحميرية تظهر من جديد بزعامة (ياسريهنعم) و(شمريهرعش بن ياسر يهنعم) ملكي سبأ وذي ريدان.

وهذان الملكان هما آخر من حكم من ملوك سبأ وذي ريدان على وجه التأكيد، ذلك أن بعض النصوص التي تعود إلى عهدهما تذكر ألقابهما «ملكي سبأ وذي ريدان» وفي بعضهما الآخر يأتي لقب شمريهرعش «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات» ولكن في جميع النصوص يرد لقب ياسريهنعم: ملك سبأ وذي ريدان فقط: ففي مجموعة زيد عنان[٣] يرد شمريهرعش بن ياسريهنعم (ملكا سبأ وذي ريدان) مرتين على الأقل، كما ورد في مجموعة أحمد شرف الدين: شمريهرعش ملك سبأ وذي ريدان في نص[٤]، و بلقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت في نصوص أخرى[٥].

وعلى هذا فإن (شمريهرعش) يُلقَّب بـ(ملك سبأ وذي ريدان) في بعض النقوش، و بـ(ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات) في نقوش أخرى، بينما والده (ياسريهنعم) يلقب بـ(ملك سبأ وذي ريدان) فقط في كل النقوش. و يعني ذلك أن ياسريهنعم هوآخر من تلقب بملك سبأ وذي ريدان فقط، وأن شمريهرعش أول من أضاف لقب حضرموت ويمنات.

وأقوال المؤرخين العرب تتفق مع ما جاء في النصوص بأن (ياسريهنعم) و يسمونه أحيانا (ناشر النعم) هو الذي أعاد المُلك للأسرة الحميرية كما جاء في قصيدة نشوان الحميري:

أو ياسر الملك المعيد لما مضى ... من ملك حي لا تراه لقاح

وفي شرح القصيدة[٦] اسمه (ياسرينعم)، وأن شمريهرعش تولى الحكم بعده:

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن ص ٩٦ (لاحظ أن شمر كان في مأرب قبل اليشرح)

(٢) زيد عنان، حضارة اليمن القديم نقش رقم ٥٩ ص ٣٩٥

(٣) حضارة اليمن القديم، نقش رقم ٥٦ ص ٤١٢، نقش رقم ٦٠ ص ٣١٩ (النصوص غير مرتبة حسب الصفحات)

(٤،٥) تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٢٩ ص ٨٣، ورقم ٣١ ص ٨٧ ورقم ٣٣ ص ٨٩

(٦) قصيدة نشوان ص ٨٩

أم أين شمر يرعش الملك الذي ملك الورى بالعُنف والأسجاح

وهذه أول مرة تتفق النصوص مع أقوال العرب فيما عرضناه عن ملوك فترة الصراع على السلطة والتي تلقب حكامها بـ« ملوك سبأ وذي ريدان » و يعني ذلك أن الأمور ستتضح بعد شمر يهرعش هذا ، لاسيما وأنه لم يعد هناك أدنى شك بأن شمر يهرعش أول حكام الدولة السبئية الثالثة ، في حين أن ياسر يهنعم هو آخر حكام فترة الصراع على السلطة .

وهنا نتوقف قليلا لتسجيل النقاط التي توصلنا إليها من عرضنا لفترة الصراع على السلطة ، والتي تأتي ألقاب حكامها « ملوك سبأ وذي ريدان » :

١ـ اسرة آل ذرح آخر من حكم من ملوك الدولة السبئية الثانية ، وقد تلقب ملوك هذه الأسرة في آخر الأمر بملوك سبأ وذي ريدان بدل لقب ملك سبأ فقط .

٢ـ اتحد السبئيون الأصليون بزعامة اليشرح يحضب الأول وانتزعوا السلطة من الأسرة السابقة .

٣ـ تنازعت القبائل السبئية : البكيلية والحاشدية والريدانية و بنوجرت السلطة فيما بينها بعد أن كانوا قدوصلوا إليها عن طريق اتحادهم .

٤ـ لم يستقر الوضع لقبيلة من هذه القبائل ، وإن كان النزاع في الفترة الأخيرة بين الريدانيين الحميريين و بني جرت .

٥ـ رتبت جدولا بحكام هذه الفترة والقبائل التي ينتسبون إليها[1] على طريقة جدول (مندليف) في ترتيب المعادن حسب وزنها الذري بحيث يسهل إضافة ملوك جدد إذا ما اكتشفت نصوص جديدة أوتصحيح الجدول إذا ما رأى الباحثون ذلك ، علما بأن الملوك المتتابعين في الجدول مرتبون حسب ما ورد في النصوص . (انظر الجدول رقم (١)ص ٤٥) .

والخلاصة ، أن حكام فترة الصراع على السلطة (ملوك سبأ وذي ريدان) بدأوا قبل علهان نهفان الذي يعتبره المؤرخون والباحثون أول ملوك سبأ وذي ريدان في عام (١١٥ ق.م) ، فقد رأينا ان والده يريم أيمن (الذي تلقب بملك سبأ فقط) قد سبقه في الحكم ، كما أن واتريهامن وأباه اليشرح يحضب (ملكي سبأ وذي ريدان) قد سبقا علهان نهفان ، كما ان هناك أربعة ملوك لسبأ وذي ريدان من أسرة آل ذرح . و بهذا يكون عدد الحكام الذين سبقوا علهان نهفان ستة ملوك تسمى كل منهم (بملك سبأ وذي ريدان) على أقل تقدير، إذ لاندري ما تحمله لنا النقوش التي يمكن ان يعثر عليها مستقبلا .

---

(١) استفدنا في ترتيب هذا الجدول من قائمة ملوك سبأ وذي ريدان التي أوردها مطهر الارياني في كتابه : في تاريخ اليمن ص ٣٧ ، ومن كتاب محمد يحي حداد تاريخ اليمن السياسي ص ٨٧ ، وكذلك من النصوص السبئية في المصادر التي اعتمدنا عليها .

جدول رقم (١)

حكام فترة الصراع على السلطة

- (ملوك سبأ وذي ريدان) والقبائل التي ينتسبون إليها

أواخر حكام الدولة السبئية الثانية من أسرة آل ذرح	البكيليون	الحاشديون	الريدانيون	ينوجرت

ذمارعلي وتر بن سمهعلي ذرح

نشاكرب يهامن بن ذمرعلي ذرح

كرب ال بين بن ذمرعلي ذرح

يهقم بن ذمرعلي ذرح

اليشرح يحضب الأول

واتر يهامن

يريم أيمن — (ملك سبأ)

علهان نهفان

سعد شمس

مرثد يهحمد

شعرأوتر — لعيز يهنف — خليعثت يرخم

يريم ايمن الثاني

ياسر يهصدق

ذمارعلي يهبر

ثاران يهنعم

فرعم ينهب

اليشرح يحضب الثاني

يازل

نشاكرب يهمن

ياسر يهنعم

شمر يهرعش

وهو أول ملوك الدولة السبئية الثالثة

أما نهاية هذه الفترة فتبدو لنا أكثر وضوحا بعد أن تأكدنا أن ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش آخر حكام فترة الصراع على السلطة ، فالمؤرخون متفقون عموما على أن شمر يهرعش بن ياسر يهنعم كان خلال الفترة ما بين (٢٧٠ــ ٣٠٠) بعد الميلاد(١).

و بهذا تكون فترة الصراع على السلطة من قبل عام (١١٥ق.م) إلى عام (٣٠٠م) أي أكثر من (٤١٥) عاما.

رابعا: الدولة السبئية الثالثة أودولة التبابعة:

وهي المشهورة بالدولة الحميرية، وقد طغت أخبارها على تاريخ عرب الجنوب عامة، و يُطلق عليها أحيانا «العصر الحميري الثاني» وتسمى أيضا «دولة التبابعة». أما في النقوش فألقاب حكامها «ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات» وأضيف إلى هذا اللقب في مرحلة متأخرة «وأعرابهمو في الطود وتهامة».

ونودّ في البداية أن نناقش هذه التسميات علّنا نخرج منها بتسمية معقولة تشير إلى هذا العصر بوضوح لايدع مجالا للملابسة:

المؤرخون العرب يُسمونها الدولة الحميرية والحكام ملوك حمير على أساس أنهم من نسل حمير بن سبأ الذي أوصى له أبوه بالمُلك، وهم إزاء ذلك لا يعترفون إلا بالملوك الذين هم من أولاد حمير، يقول الهمداني بهذا الشأن عند استعراضه نسب بلقيس: «إن حمير لن ترضى أن تُمَلَّكَ عليهم إمرأة إلا من ولد الصوار الذين هم من بيت الحكمة المُتَوارث فيهم»(٢).

إلا أن تسميتها بالدولة الحميرية تسمية ليست دقيقة للأسباب التالية:

١ــ أدت هذه التسمية إلى إهمال ذكر كل الملوك الذين هم من غير نسل حمير بن سبأ، ولهذا فإنهم ربطوا الدولة السبئية الأولى بالدولة السبئية الثالثة متجاهلين الدولة السبئية الثانية وفترة الصراع على السلطة: فهم يجعلون ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش (٢٧٠ــ٣٠٠م) بعد ملكة سبأ المعاصرة لسليمان حوالي عام (٩٥٠ق.م) رغم أن بين حكمهما وحكم الملكة أكثر من (١٢٠٠) سنة.

٢ــ إن النصوص التي تعود إلى هذه الدولة لا تؤيد تسميتها بالمملكة الحميرية، إذ أن ألقاب الملوك لا تشير إلى حمير مطلقا، وإنما تذكر ألقاب ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات.

٣ــ إن أبرهة الحبشي قد تلقب بلقب ملوك هذه الدولة رغم أنه ليس حميريا لهذه الأسباب، فإن تسمية الدولة بــ«المملكة الحميرية» ليست تسمية دقيقة معبرة عن هذه الفترة.

---

(١) ديتلف نيلسون: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين ص ١٠٧

(٢) الإكليل جـ٢ ص ٧٠ــ انظر تعليق الأكوع (محقق الجزء) في نفس الصفحة

أما التسمية «بالعصر الحميري الثاني» فعلى أساس أن ملوك سبأ وذي ريدان من الحميريين، وقد رأينا من استعراضنا لملوك هذه الفترة انها كانت فترة صراع على السلطة بين العائلة الحميرية وعائلات أخرى كثيرة غير حميرية.

وكذلك التسمية بما ورد في النصوص فإنها غير مناسبة للأسباب التالية:

١ـ الأسماء طويلة، فقد شملت عدة أقاليم في جنوب الجزيرة: سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات، فكأننا نسمي ملكة بريطانيا: ملكة اسكتلندا وويلز وانجلترا.
٢ـ إن الألقاب التي وردت في النصوص غير ثابتة، فأحيانا تضاف حضرموت فقط، وأحيانا حضرموت ويمنات، وأحيانا أخرى وأعرابهمو في الطود وتهامة.

وقد يقال لماذا لم يُلقّبوا «بملوك اليمن» وكفى؟ السبب في ذلك أن اليمن أو يمنات (كما كانت تسمى) لم تكن إلا جزءا من مملكتهم كما سنرى في دراستنا الجغرافية لسد مأرب.

ولاشك أن أصح الأسماء التي يمكن أن تُطلق على هذه الدولة تسميتها بـ(دولة التبابعة)، وقد جاء هذا الإسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: «وأصحابُ الأيْكةِ وقومُ تُبّعٍ كلٌّ كذّب الرُّسلَ فحقّ وعيد»(١) وقد أخذ بهذه التسمية ابن خلدون(٢) وغيره من المؤرخين.

أما تسميتها في هذا المقام بـ«الدولة السبئية الثالثة» فهو استمرار لعرضنا لموقع السبئيين في تاريخ عرب الجنوب لكي لا تبدو هذه الدولة وكأنها منفصلة عن السبئيين، لأن حمير نفسه ابن لسبأ بن يشجب كما أسلفنا. وبهذا نسير مع تسمية القرآن الشاملة لهم باسم السبئيين: زمن ملكة سبأ وزمن خراب السد بفعل سيل العرم وزمن تحول الطريق التجاري عنهم.

وبعد هذا التحليل لمُختلف التسميات لدولة التبابعة أو الدولة السبئية الثالثة نبدأ في تحديد تأريخ بداية هذه الدولة ونهايتها ومدّة حكمها:

فالبداية كانت زمن شمر يهرعش بن ياسر يهنعم عام (٢٧٠ـ ٣٠٠)م كما أسلفنا.

أما النهاية فكانت بالاحتلال الحبشي الأخير لليمن بعهد آخر ملوك التبابعة ـ وهو يوسف ذو نواس ـ عام (٥٢٥م) كما جاء في النص المعروف بنص «حصن غراب»(٣).

وبهذا تكون فترة حكم الدولة السبئية الثالثة أو دولة التبابعة أكثر من (٢٥٥) عاما. (انظر أسماء ملوك هذه الدولة في الملحق رقم (١)).

---

(١) سورة ق الآية ١٤
(٢) تاريخ ابن خلدون، المجلد الثاني ص ٥٠، ٥١
(٣) جواد علي، المفصل جـ١ ص ٤٥٩

وقد كثُر الحديث عن فتوحات هذه الدولة، فذكر بعض المؤرخين أن فتوحاتهم وصلت التِبّت (في الصين) شرقا[١] غير أن كثيراً من المؤرخين المعاصرين أنكروا هذه الفتوحات واعتبروها مجرد خرافات.

وكثيراً ما تضيع الحقيقة بين المبالغات من ناحية وإنكارها من ناحية أخرى، فلدينا نص[٢] يشير إلى أن شمّر يهرعش وصل بفتوحاته إلى أرض تنوخ (بالعراق)، وإلى مملكة فارس، أي ان ملكه لم يكن مقتصرا على جنوب الجزيرة.

* * *

وترى أننا أسهبنا بتفاصيل هذا الفصل، وذلك لأهميته في كتابنا: سد مأرب الذي يرتبط ذكره بالسبئيين أبدا، لهذا كان لابد من معرفة أصحاب السد قبل البحث في السد نفسه.

وقد أتينا في هذا الفصل بنظرة جديدة لم تُحدّد لنا موقع السبئيين في تاريخ عرب الجنوب فحسب، بل نستطيع بواسطتها حل كثير من المشاكل التي سبق عرضها في بداية هذا الفصل. و يبدو لنا هذا واضحا من تلخيص الخطوط الرئيسية التي سرنا عليها والنتائج التي توصلنا إليها ومساهمتها في حل المشاكل كما ندونها في النقاط التالية:

١ــ قسمنا تاريخ عرب الجنوب إلى أربع فترات:
الدولة السبئية الأولى، والدولة السبئية الثانية، وفترة الصراع على السلطة، والدولة السبئية الثالثة. وقد اعتمدنا على القرآن الكريم في تسميتهم بالسبئيين لا الحميريين على أساس أن القرآن ينسب القبيلة إلى جدها الأكبر، فسماهم (سبأ) في مراحلهم المختلفة التي أشار لهم فيها القرآن الكريم. و بهذا التقسيم جمعنا بين الدول التي ذكرتها النقوش ولم يذكرها مؤرخو العرب كالدولة السبئية الثانية، و بين ما ذكره مؤرخو العرب ولم تشر إليه النقوش كالدولة السبئية الأولى.

٢ــ أثبتنا أن الدولة السبئية الثانية ــ دولة مكارب وملوك سبأ ــ جاءت من خارج (جنوب الجزيرة) أي ان حكام هذه الدولة لم يكونوا من سكان جنوب الجزيرة الذين بقوا فيها، بل من المهاجرين منها أو من سكان المستعمرات التجارية السبئية.

و بهذا استطعنا أن نفسر عدم ورود أسمائهم في قوائم المؤرخين العرب على أساس أن السبئيين الأصليين لا يعترفون بالحكام الذين هم ليسوا من أصلاب حمير بن سبأ.

---

(١) قصيدة نشوان ص ٩٤
(٢) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٣١ ص ٨٨

٣ــ ذكرنا أن الدول التي قامت في جنوب الجزيرة ــ ولم تذكرها المصادر العربية ــ دول معاصرة للدولة السبئية تبرز وتضعف تبعا لضعف وقوة السلطة السبئية الرئيسية. وعرفنا سر بقاء ومعاصرة هذه الدول لبعضها، على أساس أن كل دولة تعترف ضمنيا بأراضي الدول الأخرى حتى ولو حدثت الحروب بينها، وانتصرت دولة على أخرى.

و بهذا استطعنا أن نلم بأسباب وجود عدة دول معاصرة لبعضها ومتداخلة في تاريخها.

٤ــ حللنا عقدة من أعقد المشاكل في تاريخ عرب الجنوب وهي: مشكلة «ملكة سبأ» ففي القرآن الكريم انها ملكة سبأ. وعند المؤرخين العرب انها ملكة حمير. والنصوص لا تشير إليها مطلقا رغم أنها حكمت في زمن أسبق لِحُكْمِ المكرب (سمهعلي ينوف) فذكرنا أنها (ملكة سبأ) من حكام الدولة السبئية الأولى. ولأن المؤرخين العرب أهملوا فترة حكم الدولة السبئية الثانية (مكارب وملوك سبأ) وفترة الصراع على السلطة (فترة حكم ملوك سبأ وذي ريدان) جعلوا حكم أول ملوك الدولة السبئية الثالثة ــ شمريهرعش بن ياسر يهنعم ــ بعد حكم الملكة المذكورة رغم أن بينهما أكثر من (١٢٠٠) سنة.

٥ــ ومن عرضنا لملوك سبأ وذي ريدان رأينا أن تسميتهم بالعصر الحميري ليست تسمية صحيحة، لأن كثيراً من حكام هذه الفترة ليسوا من العائلة الحميرية المالكة. كما رأينا أن علهان نهفان ليس أول ملوك هذه الفترة كما تذكر كتب المؤرخين، فقد سبقه عدّة ملوك تلقّبوا بملوك سبأ وذي ريدان. وقد رتّبنا حكام هذه الفترة بجدول يسهل تصحيحه وإضافة حكام جدد إن عثر على نقوش في المستقبل.

٦ــ وأخيرا تعرّضنا للدولة السبئية الثالثة وعرفنا لماذا أصرّ مؤرخو العرب على تسميتها بالمملكة الحميرية على أساس أن ملوكها من نسل حميربن سبأ ولكي يُميزوها عن الدولة السبئية الثانية التي لم يعترفوا بها. ورأينا أن التسمية الواضحة لها: دولة التبابعة أو الدولة السبئية الثالثة.

و بهذا الفصل نكون قد بيّنا موقع السبئيين في تاريخ عرب الجنوب بحيث يصبح من السهل إدراك ما نقصده عند الحديث عنهم في الفصول والأبواب القادمة، لاسيما وأننا نحتاج إلى تتبّع كثير من الأحداث في المراحل المختلفة لِحُكْمِهم.



الفصل الثالث

أسس الاقتصاد السبئي

الاقتصاد هو الدعامة الأساسية التي يرتكز عليها البناء الحضاري، فآثار ضعف هذا الاقتصاد أو قوته تنعكس سلبا أو إيجابا على مظاهر الحضارة العقلية والمادية.

وقد بلغ عرب الجنوب عامة درجة متقدمة في حضارتهم بحيث أمكن وضعهم في مصاف الأمم الأخرى المعاصرة لهم كالمصريين والبابليين واليونان والرومان. ولئن كانت السمة الغالبة للحضارات القديمة كونها حضارات زراعية في الدرجة الأولى، فإن الصبغة العامة لحضارة عرب الجنوب عامة والسبئين خاصة كانت تجارية ـ شأنهم بذلك شأن الفنيقيين في مسلكهم التجاري ـ مما حدا ببعض المؤرخين أن يسميهم فنيقيي البحر الجنوبي(١).

إلا أن السبئيين أدركوا خطورة الاعتماد على التجارة فقط، خاصة عندما شعروا ببوادر المنافسة من قِبَل الأمم الأخرى، فعمدوا إلى تنويع مصادر دخلهم بالزراعة والصناعة. وقد ساعدهم على هذا التنويع: موقع بلادهم وخصوبة أرضهم وغناها بالثروات الطبيعية.

أولا: التجارة:

لقد دخل السبئيون التاريخ العالمي القديم من باب التجارة لدرجة أن الأمم الأخرى لم تعرف عنهم سوى أنهم تجار للبخور واللبان والطيوب.

والحقيقة التي نلمسها بوضوح عند النظر في تاريخ السبئيين وصلاتهم بالأمم الأخرى: أنهم كانوا على معرفة ودراية بالأساليب التجارية وطرقها بحيث يمكن مقارنتها بأحدث أساليب التجارة المعروفة اليوم. و يظهر هذا بوضوح من استعراضنا لكيفية استغلال السبئيين واستفادتهم من موقع بلادهم ومن الطرق البرية والبحرية التي كانوا يسلكونها ومن نوعية السلع التي كانوا يتاجرون بها وحاجة البلدان التي كانوا يقصدونها، بالإضافة إلى الاحتكار التجاري للسلع النقدية في ذلك الوقت. فموقع بلادهم في جنوب الجزيرة العربية على الطريق التجاري الموصل إلى الهند وشرق افريقيا، إضافة إلى توسطها بين الأمم الأخرى القديمة، وكذلك موقعها بين مناطق مناخية متنوعة ـ ساهمت مجتمعة في جعلهم وسطاء للتجارة العالمية آنذاك. وقد أدرك السبئيون هذه المهمة التي

---

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٠

أوكلت لهم، فاستغلوها أيما استغلال خاصة عندما رأوا الثروات الطائلة تنهال عليهم منها.

وكان السبئيون يسلكون طرقا برية و بحرية حسب ما تقتضيه الأحوال:

أما الطرق البرية: فكان لهم عليها سلطان بلا منازع خاصة بعدما أنشأوا المحطات التجارية على طول الطرق لحماية القوافل من الغارات التي يشنها البدو من حين إلى آخر[١].

ولاشك أن الطريق البري الرئيسي هو الطريق الموصل بين جنوب الجزيرة و بلاد الشام، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم «وجعلنا بينهم و بين القُرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدّرنا فيها السير، سيروا فيها لياليَ وأياما آمنين»[٢].

و يبدأ هذا الطريق من سواحل جنوب الجزيرة العربية بفرعين:

الفرع الأول: يربط بين المدن الساحلية في جنوب الجزيرة: سيحوت وشحر والمُكلا، ومن الأخيرة يتجه إلى الشمال الغربي (ناحية مأرب). و يبدو أن هذا الطريق خاص بالبضائع التي كانت تأتي من الهند.

الفرع الثاني: و يربط بين المدن الداخلية في جنوب الجزيرة العربية: نيبور (لعلها العين حاليا) في اقليم ظفار، ومنها إلى تريم ثم سيئون ثم شبام في وادي حضرموت. و يلتقي بعد ذلك بالفرع الأول عند شبرا بين حضرموت ومأرب. وعن هذا الفرع كانت تُنقل محاصيل إقليم ظفار.

و بعد التقاء الفرعين في طريق واحد يسير باتجاه تمنه فمأرب التي كانت المركز الرئيسي لانطلاق القوافل[٣].

ومن مأرب كان الطريق الرئيسي يتجه إلى ناحية الشمال لمعين وقرنا في الجوف إلى أن ينتهي في نجران.

ومن نجران يتجه فرع إلى السليل فساحل الخليج العربي حيث يلتقي بطريق آخر قادما من عمان، فيتجهان سويا إلى العراق.

أما الطريق الرئيسي فيتجه من نجران إلى مكة فيثرب (المدينة). ومن الأخيرة يتجه فرع إلى تدمر[٤].

---

(١) جواد علي، المفصل جـ٧ ص ٢٤١

(٢) سورة سبأ الآية ١٨

(٣) و يندل فيليبس، كنوز مدينة بلقيس (انظر خريطة طرق قوافل البخور ص ١٩٧

(٤) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٤١

والفرع الرئيسي يتجه إلى بترا عن طريق مدائن صالح.

ومن بترا تتشعب الطرق التجارية إلى نواح متعددة: فأحد الفروع يتجه غربا إلى مصر، وآخر يتجه إلى فنيقيا على سواحل البحر المتوسط، والثالث يتجه إلى بلاد العراق(١) (انظر الخريطة رقم ١).

وأما الطرق البحرية: فتبدأ أيضاً من سواحل جنوب الجزيرة العربية عند وصول البضائع من الهند وشرق افريقيا.

فهناك الطريق الشرقي الذي يسير موازيا لساحل عمان فساحل الخليج العربي إلى أن ينتهي إلى بابل بواسطة الملاحة النهرية(٢).

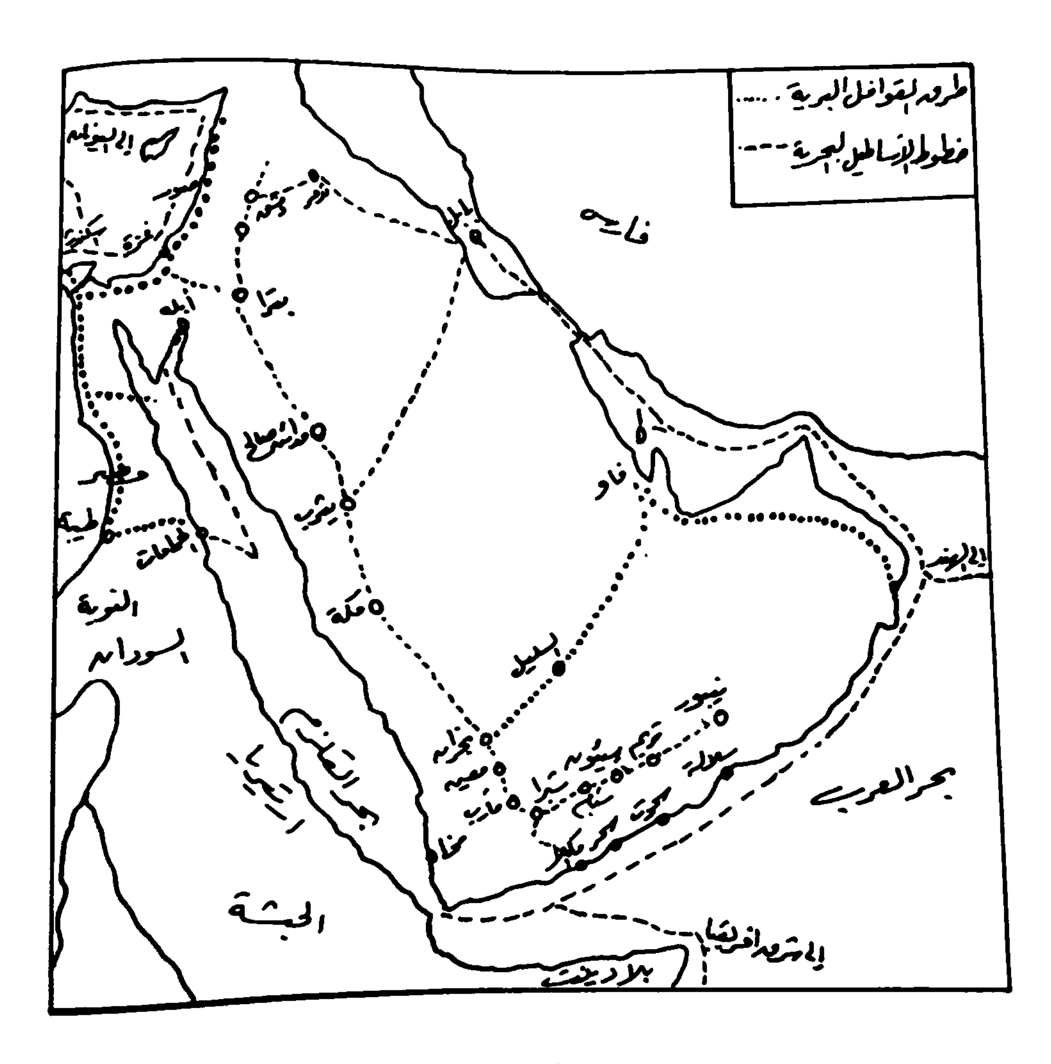
وطريق الساحل الغربي (ساحل البحر الأحمر) الذي يبدأ من عدن فميناء موزا المشهور بـ(مخا حاليا) والذي كان مرتبطاً بميناء إيلة بخليج العقبة، وكان هناك فرع آخر يتجه من مخا إلى وادي الحمامات على ساحل مصر الوسطى(٣).

أما السلع التي كانوا يتاجرون بها: فبعضها من إنتاج جنوب الجزيرة العربية كالبخور واللبان والمُر، و بعضها الآخر يجلبونه من بلدان متعددة: فمن الهند: كانوا يحملون الذهب والحجارة الكريمة والتوابل، ومن شرق افريقيا: العطور والطيوب وريش النعام والعاج. كما أن هناك بلداناً اشتهرت بسلع معينة: كاشتهار البحرين باللؤلؤ، وجزيرة سقطرى بالعود والند، وسيلان بالقرفة وزنجبار بالقرنفل(٤).

وأبرز ما يلاحظ على هذه السلع أنها خفيفة الوزن غالية الثمن وأنها المحاصيل الرئيسية التي لا تستغني عنها أسواق مصر والشام والعراق، فقدكانت تُستخدم في أغراض شتى: في المعابد والقصور والحفلات والزينة والطيب والطعام.

---

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٤
(٢) عدنان ترسيسي، المرجع السابق، في نفس الصفحة
(٣) فيليب حتى، المرجع السابق، نفس المكان
(٤) انظر: جواد علي، المفصل جـ٧ ص ١٣٧، وجورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص١٧٩



خريطة رقم (١)
(الطرق التجارية القديمة)

ولم تكن القوافل السبئية تعود خاوية اليدين، بل كانت تعود محملة بمصنوعات فنيقية وزيوت وخمور وأوان حديدية وسبائك فضّية(1) وهذا ما جعل أرباحهم من تجارتهم مضاعفة.

وقد احتكر السبئيون تجارة هذه المحاصيل طوال القرون الثلاثة عشر الأخيرة قبل الميلاد(2)، كما حافظوا على أسرار مصادر هذه السلع لئلا يُنازعهم مُنازع، حتى ان اليونان وغيرهم كانوا يظنون أن جميع هذه البضائع من منتوجات جنوب الجزيرة العربية(3). ولاشك ان هذا يدل على أن التاجر السبئي عرف مهنة التجارة جيدا سواء باختيار السلع أو المحافظة على أسرارها.

ولهذا فلا عجب أن أثرت (سبأ) من التجارة ثراء بالغا مكّنها من العيش ببذخ في قصور شيدوها من وراء التجارة وسدود أقاموها للزراعة.

ثانيا: الزراعة:

وهي الركن الثاني في الاقتصاد السبئي. وقد بدت أهميتها تقترب من الأهمية التجارية في بداية عهد الدولة السبئية الثانية عندما أعاد أو أتمّ مكارب سبأ مشروع سد مأرب. ولا يعني هذا أن الزراعة لم تكن معروفة من قبل، بل ما نعنيه أن الزراعة بدت تأخذ — في بداية عهد هذه الدولة — طابعا جديداً يعتمد على الري الدائم وإن بقيت التجارة الحرفة الرئيسية في تلك الفترة.

ومنطقة السبئيين تقع في ظل المطر الذي تحمله الرياح الموسمية القادمة من الجنوب والجنوب الغربي، ولهذا فإن الزراعة عندهم لم تكن تعتمد على الأمطار مباشرة بل على السيول المنحدرة شرقا من المرتفعات الغربية. وقد أدّت هذه الظاهرة إلى تفنّنهم في استغلال هذه السيول بإقامة السدود وشق الترع وحفر الآبار. وعلى العموم فقد حاول السبئيون استغلال كل نقطة ماء يمكن الحصول عليها بشكل أو بآخر لاستعمالها في الري.

أما بالنسبة للتربة — العنصر الثاني للزراعة — فمتجددة باستمرار، ذلك أن أرضهم تمتد شرق اليمن فتحمل السيول المنحدرة إليها الأتربة والطمي، فتزيد من خصوبة التربة.

ومن حيث أساليب الزراعة التي كانوا يستخدمونها فيبدو أن أحدثها كان استخدام الثيران في الحراثة، فقد عُثر على رسم لمزارع حافي القدمين يُمسك بيده اليسرى حبلا وباليمنى أداة حراثة شبيهة بالفأس مربوطة بثورين(4) أما بقية أساليب الحراثة فلا تتعدى كونها طرقا بدائية لا تزال تُستخدم في بعض نواحي اليمن المنعزلة حتى الآن.

---

(1) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٤٠

(2) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٤

(3) فيليب حتى، المرجع السابق ص ٦٠

(4) جواد علي، المفصل جـ٧ ص ٢٦

وقد عرف السبئيون طرقا لمكافحة الآفات الزراعية والأمراض النباتية، فقد كان ذلك يتم بواسطة أتربة معينة تحتوى على المواد المبيدة للحشرات(١).

وقد صور لنا القرآن الكريم مشهدا من مشاهد التقدم الزراعي لدى السبئيين وذلك بذكر جنتي سبأ العجيبتين: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»(٢).

و يظهر مما أوردته كتب التفسير ــ عن الجنتين ــ انّ جني المحاصيل الزراعية كان يتمُّ من قبل النساء، وفي هذا يقول الهمداني(٣).

تغدو النواصف بالاطباق تملأها من كلّ فاكهة بالكفّ تَجنيها

والمحاصيل الزراعية التي تذكرها نصوص المسند متنوعة، فمنها ما كان يستخدم في صناعة الخبز كالقمح والذرة والشعير ومنها ما كان يؤكل طازجا كالعنب أهم الفواكه في ذلك العصر، وكانت عنايتهم به كبيرة لدرجة أنهم كانوا يرفعون شجرة الكرمة على عرائش من الأعمدة الرخامية(٤).

ومن المحاصيل الزراعية المهمة (النخيل) وقد ورد ذكره في نصوص المسند كما رُسمت أشجاره ونحتت على الصخور.

و يظهر أن معظم المحاصيل الزراعية كانت تُستهلك محليا، إذ لا يأتي ذكرها ضمن المحاصيل التجارية التي كانت تنقلها القوافل كالبخور واللبان. و بهذا استطاع السبئيون أن يجمعوا بين زراعة المحاصيل النقدية والمحاصيل الغذائية مما يدل على أهمية الزراعة في الاقتصاد السبئي بما يقارب الأهمية التجارية.

وما خراب سد مأرب وتحول طرق التجارة التي أشار إليهما القرآن الكريم إلا دليل واضح على الركنين الأساسين للاقتصاد السبئي.

ثالثا: التعدين والصناعة:

التعدين:

لقد استغل السبئيون ثرواتهم الطبيعية ضمن الإمكانيات المتاحة لهم في ذلك الزمان. ونستطيع

(١) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٣٥

(٢) سورة سبأ، الآية ١٥

(٣) الإكليل جـ ٨ ص ٥٧

(٤) زيد عنان، تاريخ اليمن القديم، نقش رقم ٨٧ ص ٤١٥

أن نلمس ذلك في نصوصهم، إذ لاتخلو هذه النصوص عادة من تقديم القرابين الذهبية للإله (المقه) مما يدلّ على توفّر الذهب في بلادهم. ومن المعادن المصاحب ذكرها للذهب: الفضة، وقد ذكر ابن المجاور[1] منجمين لهما في الأراضي السبئية: أحدهما في جبل المعدن وتُستخرج منه الفضة، والآخر بجبل صرواح ومن ترابه يُصنع الذهب.

وقد استُخدم هذان المعدنان في الأساس للزينة: (الذهب) قلائد وأساور وأسنان ذهبية، (والفضة) أساور وأحجال (خلاخل)، ولا تزال تشاهد في اليمن على نطاق واسع. وقد جمع بعضهم استعمالات الذهب والفضة في أبيات شعرية غزلية:

وبارقاً من ثغر من	يهواه قلبي لَمَعا
ويا غزالاً مرّ بي	عصراً يجرُّ الخلعا
مُحجّلا مُدمَلجا	مُحرّقا مُملجعا
مُشبّعا مطَّرفا	مطوّقا مقنعا[2]

ولم يكن استعمال الفضة والذهب مقتصرا على الزينة فحسب، بل استخدموها في صناعة أو تطعيم الأواني والأوعية خاصة عندما أثروا من التجارة كما ذكر ذلك استرابو ـ قال[3].

«ولقد اصبحت السبأى والجرهاي (إحدى القبائل) بما لهما من نصيب في تجارة الطيوب أغنى القبائل عامة، فعندهما مُستحدثات الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة».

و يؤكد قول استرابو هذا، ما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى ملك فارس (عندما عاتبه على نثر العطاء على الخدم والحاشية)، قال سيف: لاحاجة لي بهذا العطاء فما جبال بلادي وأرضها إلا من ذهب وفضّة.

ومن المعادن الأخرى التي كانت معروفة لدى السبئيين: الرصاص، وقد استخدموه في أغراض شتى منها صبّه في أسس الأعمدة وربط حجارة البناء بواسطته. ومنها النحاس (القطر) وقد ذكر الهمداني[4] أحد استعمالاته: إذ صُبّ في قواعد أعمدة العرش الموجودة قرب مأرب.

ومن الثروات الطبيعية المستغلّة في أرض السبئيين: الملح، وكانوا يستخرجونه من جبل الملح الموجود قرب مدينة مأرب[5].

---

(١) صفة بلاد اليمن، القسْم الثاني ص ١٩٩
(٢) ابن المجاور، المرجع السابق، القسم الأول ص ١٣٦
(٣) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٠
(٤) الإكليل جـ ٨ ص ٥٩
(٥) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٢٢١

الصناعة:

يبدو أن السبئيين وصلوا إلى درجة من الاكتفاء الذاتي في العصور القديمة أكثر مما وصله اليمنيون في الوقت الحاضر، فقد رأينا اهتمامهم بتوفير المواد الغذائية الرئيسية، كما أنهم سعوا إلى تحقيق مستلزماتهم حتى فاضت عن حاجاتهم وصدّروها للخارج. فالبرود اليمانية المشهورة في الأحاديث النبوية الشريفة وكتب السيرة ما هي إلاّ أحد مظاهر التقدم الصناعي لدى اليمنيين منذ القدم. وقد ذكرت لنا كتب التاريخ أنواعا من المنسوجات اليمنية القديمة منها: الأنطاع المذهبة اليمنية والمعافري (نسبة إلى مخلاف المعافر) والوشي وهو أثمنها. وقد روى أن الملك أسعد الكامل أول من كسا البيت بهذه المنسوجات(١).

ومن المصنوعات التي اشتهرت بها اليمن: السيوف اليمانية ومقابضها المطعمة بالذهب والفضّة، وكذلك الخناجر والسكاكين المنتشرة في اليمن حاليا خاصة الخنجر المعكوف الذي لاتخلو منه أصلاب الرجال إلا نادرا.

وقد ذكر لنا ابن المجاور (٢) بعض أنواع السيوف المشهورة منها:

الصنعاني: كان يضرب في صنعاء، وهو قصير لأنه سيف الرحّالة.

الكرماني: وهو متوسط الطول و يصنع من الفولاذ.

الأفرنجي: وهو سيف الفرسان وأطول أنواع السيوف.

الهنـــــدي: كان يجلب معدنه من الهند وهو متوسط الطول، وله أنواع كثيرة.

وإذا ما تركنا هذه الصناعات التي اشتهرت بها اليمن منذ القدم وانتقلنا إلى صناعات أقل شهرة كصناعة الحلي (الأساور والخواتم والخلاخل والقروط) والبسط الملّونة والفرش المتنوعة، فاننا ندرك محاولة اليمنيين القدماء توفير حاجياتهم بأنفسهم.

وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية أن الأدوات المنزلية المصنوعة كانت بسيطة ولكنها دقيقة ومتقنة الشكل(٣).

وقد شاهدت رسما لكرسي (بجوار سد مأرب) لايختلف كثيرا ـ في شكله ـ عن كراسي الخيزران المشهورة حاليا، فإذا علمنا أن الفندق الموجود حاليا في مدينة مأرب لايوجد فيه شيء غير بضع فرشات (مراتب) اسفنجية، لأمكننا القول ان السبئيين القدماء استغلوا بيئتهم تجاريا وزراعيا وصناعيا أكثر من أحفادهم في الوقت الحاضر خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار فارق الزمن.

---

(١) قصيدة نشوان الحميري ص ١٣٤

(٢) صفة بلاد اليمن ـ القسم الأول ص ٢٩، ٣٠

(٣) مادّة السبئيين

الفصل الرابع
مظاهر الحضارة السبئية

لقد رأينا في الفصل السابق أن الاقتصاد السبئي كان مبنيا على أسس قوية ومتينة. وهذا الاقتصاد المزدهر أتاح للسبئيين التقدم والترقي في مدارج الحياة ومسالكها بحيث تمكنوا من إقامة حضارة كان لها شأنها وطابعها المميز من بين الحضارات القديمة. وقد تمثلت مظاهر هذه الحضارة فيما يلي :

أولا : النظام السياسي والإداري :

من أوثق المصادر نستطيع التأكد من نظام الحكم الذي كان متبعا لدى السبئيين ، فقد ورد في القرآن الكريم قصة ملكة سبأ وبها إشارة واضحة إلى أن الحكم كان ملكيا ديمقراطيا : فالهدهد يتحدث عن عظمة عرش الملكة وانها هي المالكة لقومها في سبأ : (فمكثَ غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت إمرأة تملكهم وأُوتيت من كلّ شيء ولها عرش عظيم)(١) .

ثم يصف القرآن الكريم موقف الملكة عند وصول رسالة سليمان (عليه السلام) إذ تجمع الملأ من قومها وتُخبرهم بما تضمّنته الرسالة وتستشيرهم بالأمر، وتؤكد أن الاستشارة ليست مُقتصِرةً في هذا الخطب بل في كلّ الأمور:

(قالت يأيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمرا حتى تشهدون)(٢) . أي انه كان بجانب الملكة مجلس شورى ، ومن تداول القضايا ومناقشتهاتُصْدِر الملكة القرار الأخير.

ولم يكن هذا المجلس الاستشاري صُوريّاً ، بل يصل ـ في بعض الأحيان ـ قوة بحيث يعزل الملك و يولّي آخر بدله إذا رأى أن مصلحة البلاد تقتضي ذلك ، وقد جاء في شرح قصيدة نشوان ما يؤيد ذلك(٣) .

«ولم تَطُل مدةُ (وتار) حتى نازعه عمومته بنو الصوار الأمر وقالوا : نحن أقعد وإنما هومُلْكُ أبينا ولا نتخاطى به إلى الأ ولاد دون الآباء ، فشحّ في ذلك وشّحوا وتداعوا إلى الحرب . ولما رأت وجوه حمير

(١) سورة النمل: الآيتان ٢٢، ٢٣

(٢) سورة النمل: الآية ٣٢

(٣) قصيدة نشوان ص ٥٦

خافوا الفرقة .. فرأوا خلع وتار وإخراج عمومته من الملك ، وفتلوا حبل المُلْكِ في بتع بن زيد » .

وقد اتفقت النصوص وأقوال مؤرخي العرب أن المُلْكَ كان وراثيا في معظم الأحوال فعند المؤرخين العرب أن المُلْكَ في نسل حمير بن سبأ يتوارثه الأ بناء عن الآباء ، ولا تُسْتَثْنى هذه القاعدة إلاّ في الحالات النادرة عندما يقرر المجلس الاستشاري ذلك . وقد أكدت النصوص ذلك : فالمَلِكُ يدون نصه و به لقبه ولقب أبيه وأحيانا لقب جده كما في النص التالي :

« ولكي يستمر المقه في إيفائهم بكل أمل يأملونه ومن أجل سلامتهم وسلامة أولادهم وفي سبيل الحظوة والرضى عند سيدهم علهان نهفان وابنه شعرأوتر (ملكي سبأ وذي ريدان) إبني يريم أيمن (ملك سبأ) »[1] .

وكما يشارك الابن أباه في الحكم يشارك الأخ أخاه ، ففي النصوص المدونة في عهد (اليشرح يحضب الثاني) يأتي ذكر أخيه (يازل) معه دائما ، وكذلك ورد ذكر (حيعثريضع) مشاركالأخيه (شعرأوتر) في إصدار التعليمات لأحد القادة[2] .

ومن الصلاحيات المخولة للملوك ــ تلك التي يتطلب البت فيها السرعة : كشن الحملات على الخارجين وتعيين قادة الجيش . وقد يقود الملك نفسه الحملة كما فعل (كرب ال بين) و(شعرأوتر) في غزواتهما المتكررة لحضرموت . و يظهر أن ذلك كان يحدث عندما يُشكل الخروج أو الثورة خطرا على الدولة .

و يأتي بعد الملك والمجلس الاستشاري ــ في الهرم الإداري ــ حكام المخاليف والأذواء ورؤساء القبائل وقادة الجيوش . و يبدو أن هؤلاء كانوا يُشكلون الجهاز التنفيذي للدولة . فالنصوص تشير إلى أن القادة يشنون الحملات بأمر الملك ، ورؤساء القبائل يقدمون القرابين لأن (المقه) أعانهم في تنفيذ أوامر سيدهم الملك ، وكذلك حكام المخاليف يبعثون ما يطلبه الملك منهم .

أما الأذواء فكانوا الخطر، يخشاهم الملوك ويحرصون على رضاهم ، إذ أنهم في كثير من الأحيان يشكلون ممالك صغيرة مستقلة ذاتيا ، حتى ان هؤلاء الأقيال يسمون أحيانا « بالملوك » ومن الأقيال المشهورين : المثامنة ، وقد ذكرهم نشوان في قصيدته[3] :

أين المثامنة الملوك ومُلْكهم	ذلّوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو	سحر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مقار قبل أو ذو حزفز	ولقد محا ذا عشكلان ماح

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن نقش رقم ١٠ ص ٦١

(٢) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٢٠ ص ٧٣

(٣) ص ١٥٦

وقد يبلغ الطموح ببعض الأقيال أن يصل إلى السلطة كما فعل (يريم أيمن الهمداني) و(سعد شمس وابنه مرثد يهحمد) فلهم نصوص مدّونة عندما كانوا أقيالاً وأخرى عندما أصبحوا ملوكا .

ثانيا : النظام الاجتماعي:

لقد أكدت النصوص السبئية وكتب المؤرخين قديمها وحديثها ان النظام الاجتماعي الذي كان سائدا في اليمن ولا يزال ـ هو النظام القبلي أولا وآخرا . وقد يُظن أن الدولة السبئية القوية استطاعت أن تجعل ولاء الفرد لها مطلقا ، إلا أن ذلك لم يحدث في أي مرحلة بل كان الولاء للقبيلة دائما ، ورئيسها هو الذي يقرر الانضمام للدولة أو الخروج عليها .

وقد بدت هذه الظاهرة بكل وضوح في النصوص السبئية ، فلا يكاد يخلو منها نص من ذكر قبيلة مقدم التمثال (للمقه) سواء أكان رئيس قبيلة أو قائدها أو قيلها أو فرداً عادياً فيها .

و بدت كذلك في كتب السيرة عندما أقبلت الوفود اليمنية زرافات ووحداناً لمبايعة الرسول (عليه السلام) نيابة عن قبائلها .

وتجلت في التاريخ الإسلامي ابتداء من دولة بني أمية التي رأت أن من مصلحتها استمالة تلك القبائل ، وكذلك إبان الفتوحات الإسلامية ، وأثناء الاستقرار في الأمصار المفتوحة .

ولا يزال هذا النظام سائداً في اليمن حاليا ، فلكل قبيلة رئيسها ولها أرضها التي توارثتها جيلا بعد جيل ، ولها نفوذها الذي يُقاس بقوة القبيلة وسعة أرضها وعدد أنفسها .

إلا أن النظام القبلي في جنوب الجزيرة يرتبط بالحياة الزراعية في معظم الأحوال ، ولهذا فهي قبائل مستقرة لا تغادر أرضها إلا لظروف قاهرة : كالهجرات القبلية القديمة التي كانت بسبب خراب السدود أو سنوات القحط المتتالية أو الرغبة في الاشتراك في الفتوحات الإسلامية .

وتشير النصوص السبئية إلى مناطق نفوذ بعض القبائل وإلى موالاتها أو عدائها للسلطة القائمة ، كما تشير إلى وجود أحلاف قبلية كانت تسعى من ورائها إلى الدفاع عن نفسها أو تقوية نفوذها أو الطموح للوصول إلى السلطة . وقد نجحت بعض هذه الأحلاف في تحقيق أهدافها :

فقد اتحدت القبائل السبئية والريدانية و بنو جرة أمام غزوة حبشية لمدينة ظفار وتمكنوا من دحر الأحباش(١) .

واستطاع ملك حضرموت تكوين حلف من قبائل قتبان وردمان وخولان وأوسان وقسحم وحدلم لمحاربة شعر أوتر ملك سبأ وذي ريدان(٢) .

(١) زيد عنان،تاريخ حضارة اليمن القديم،انظر النقش رقم ٦٦ ص ٣٣١

(٢) مطهر الارياني،في تاريخ اليمن،نقش رقم ١٣ ص ٨٠

ومن الأحلاف القوية ــ الحلف الريداني الحضرمي الذي تمكن من إضعاف سلطة القبائل السبئية وانتزاع السلطة منها فيما بعد(١).

وعلى أية حال، فإن ظاهرة الأحلاف القبلية ظاهرة بارزة في تاريخ عرب الجنوب وكان لها جوانبها الإيجابية والسلبية: فهي في بعض الأحيان تكون قوة تتمكن من الوصول إلى السلطة أو تقلل من أطماع القبائل والأحلاف الأخرى بها على أقل تقدير. إلا أنها تزيد من امتداد نفوذ الصراع وقوته خاصة عندما يشعر الحلف بأن قوته تُمكنه من الخروج على السلطة الحاكمة.

أما سُبل الرزق لهذه القبائل فمتنوع حسب موقع وظروف أراضيها، فمنها ما كانت تشتغل بالزراعة ــ خاصة تلك التي تمتد أراضيها في المرتفعات الغربية أو بطون الأودية أو الأحواض الواسعة بين الجبال حيث تنال اراضيها نصيبا أكبر من المياه ــ بينما كانت القبائل التي تمر القوافل التجارية من أراضيها تتولى حماية القوافل أو مشاركة التجار في الذهاب والإياب مقابل جُعْلٍ أو نصيبٍ معلومٍ من التجار.

أما القبائل التي تمتد أراضيها في مناطق أكثر جفافا فتقوم بتربية الحيوانات والتنقل بها داخل أراضي القبائل الأخرى برضاها أو بدونه، وكثيرا ما تحدث الحروب بسبب ذلك.

إلا أنّ هذه الحرف ليست ثابتة، فقد تتحول القبائل الزراعية إلى رعوية متنقلة كما حدث للأزد بعد خراب سد مأرب، فقد ارتحلوا بمواشيهم إلى مخلاف خولان و بلاد عنس وأرض حمير، وعندما لم يجدوا بغيتهم في هذه الأراضي، انحدروا نحو الطود وتهامة ــ ارض قبائل عك ــ فحدثت الحروب المشهورة بينهم(٢).

وإلى جانب المجتمع القبلي الواسع الامتداد كان هناك المجتمع المدني الذي يختلف في أنه مرتبط بالتجارة. ذلك أن المدن اليمنية القديمة كانت محطات أو نقطة انطلاق للقوافل التجارية مما جعل التجار يُشكّلون الطبقة الرئيسية في مجتمع المدينة. و يشارك التجار في التركز في المدينة، طبقة الصناع وإن كانت الأخيرة على نطاق أضيق.

أما المدن التي كانت عواصم في فترة من تاريخها فمعظم سكانها من القبيلة التي ينتمي إليها الحاكم أو القبائل الموالية له والذين يشكلون القوة الرئيسية لحمايته.

والصلة بين المجتمع القبلي والمدني في حالات السلام كانت صِلة اقتصادية، إذ أن أفراد القبائل كانوا يقصدون المدن لبيع أو شراء حاجياتهم كما هو شأن سكان الريف والبوادي في معظم أنحاء اليمن حتي يومنا هذا.

---

(١) مطهر الارياني، المرجع السابق، نقش رقم ٨ ص ٥٢

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٧٢

طبقات المجتمع :

وعلى العموم يمكن تقسيم المجتمع السبئي إلى عدة طوائف أو طبقات :

الفلاحون : وكانوا يشكلون الغالبية العظمى في الدولة السبئية . والرابطة بين هذه الطبقة كانت قبلية في الأساس ، فلكل قبيلة ارضها المعترف بها من الدولة ومن القبائل المجاورة لها . وقد نظمت الدولة صلتها مع هذه الطبقة عن طريق سن قانوني الأرض والضرائب(١) .

التجار: ومراكزهم الرئيسية في المدن ، وكان معظم النشاط الاقتصادي يتركز في أيدي هذه الطبقة .

الصناع : وكانوا يتركزون في المدن أيضا ، وقد ازداد نفوذهم بتقدم المدن وازدهار الصناعة فيها .

الجند: وهم قسمان:

النظاميون: كانت مهمتهم الرئيسية حفظ النظام في المدن وحراسة القوافل والمنشآت . وقد شاهدت رسما لأحد الجنود الرسميين بملابسه القصيرة قرب سد مأرب . وتَرِدُ في النصوص (خمسن) وهي لاشك الأصل (للخميس) إسم الجيش في العصر الإسلامي .

الجيش الشعبي: وهم المقاتلون من رجال القبائل الذين يُسْتَنْفَرون وقت الحروب المصيرية . وهم في المسند «اسدم — أسد»(٢) .

وعلى هذا نرى أن رجال القبائل كانوا الركن الأساسي في المجتمع السبئي ، فهم الفلاحون الذين يزرعون الأرض و يستغلونها ، وهم المدافعون عن قبيلتهم في حالات ، وعن الدولة في حالات أخرى ، و يُضاف إلى ذلك أنهم العُمّال المُسخَّرون عندما كان المَلِكُ يطلب من رؤساء القبائل مده بالمُسخَّرِين(٣) .

الأشراف : وهم طبقة الحكام وأقاربهم وكبار رجال الدولة . وقد ورد في أحد النصوص ذكر هذه الطبقة ومما تتكّون:

«(شعب سبأ — كهلان) سادات مدينة مأرب وسراتها وأقيالها ومزاودها ورؤساؤها — قدموا قربانا (للمقه) لما جاد عليهم من السقي الذي أروى أراضيهم ...»(٤) ، ولا شك أن هذه الطبقة كانت صاحبة النفوذ السياسي والاقتصادي في الدولة السبئية ، إذ أنها الموجّهة والمقرَّبة من الحاكم ، ولأنها تملك أغلب الأراضي الزراعية المجاورة للمدن كما يُفهم من النص السابق .

العبيد : وهم أدنى الطبقات في المجتمع السبئي . و يظهر أنهم كانوا محرومين من حقوقهم

(١) احمد شرف الدين ،تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ — انظر النقش ١٠ ص ٥٩

(٢) مطهر الارياني ، في تاريخ اليمن ص ٧٣

(٣) جواد علي ، المفصل جـ٧ ص ٤٧٠

(٤) احمد شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٨ ص ٥٦

الاجتماعية والسياسية، إذ لايرد ذكرهم في النصوص إلا نادرا. وكانوا يُسمَّون (دمت)[1] وإليهم كانت توكل الأعمال الشاقة في المدن وأراضي الأشراف.

ومعظم هذه الطبقة ليسوا من سكان جنوب الجزيرة، وإنما كانوا يُجلبون من الخارج مع القوافل العائدة[2].

الأعراب: وقدورد ذكرهم في النصوص المتأخرة. و يُفهم من هذه النصوص أن مواطنهم الرئيسية كانت في الطود وتهامة من الناحية الغربية من اليمن. وموطنهم هذا جعلهم في خط الدفاع الأول أمام الغزو الحبشي المتكرر لليمن. وقد ورد في أحد النقوش هزيمتهم أمام الأحباش، واشتراكهم مع جيش وفيم أذرح بن علهان نهفان في صد الإعتداء الحبشي[3].

مركز المرأة في المجتمع السبئي:

لم يتطرق الباحثون في تاريخ عرب الجنوب لهذا الموضوع بالتفصيل، وكل ما ذكروه أنه كانت للمرأة منزلة مرموقة وحرية تامة في الوصول إلى أعلى المناصب، واستشهدوا بملكة سبأ التي وصلت إلى السلطة[4].

إلا أن ملكة سبأ لا تعتبر مقياسا صحيحا يبين لنا وضع المرأة في المجتمع السبئي للأسباب التالية:

١ــ وصلت هذه الملكة إلى الحكم عن طريق الوراثة، ولو لم تكن من نسل حمير بن سبأ لما رضي السبئيون أن تحكمهم، وحول هذا يقول الهمداني: «إن حمير لن ترضى أن تملك عليهم إمرأة إلا من ولد الصوار الذين هم من بيت الحكمة المتوارث فيهم»[5].

٢ــ إن ملكة سبأ ليست امرأة عادية، فقد كانت في منتهى الذكاء والحكمة كما يفهم من قصتها التي وردت في القرآن الكريم:[6].

فذكاؤها: يبدو من جوابها لسليمان (عليه السلام) عندما سألها: «أهكذا عرشك؟» قالت «كأنه هو»:

---

(١) المرجع السابق، نقش رقم ١٠ ص ٥٨

(٢) دائرة المعارف البريطانية «مادة السبئيين»

(٣) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، انظر نقش رقم ١٢ ص ٧٠

(٤) محمد الأكوع، اليمن الخضراء ص ٢١٨

(٥) الإكليل جـ٢ص ٧٠ (انظر تعليق الأكوع، محقق الجزء، في نفس الصفحة)

(٦) سورة النمل، الآيات ٢٣ــ ٤٤

فلم تقل هوعرشي : لأنها تركته في اليمن واستبعدت إحضاره بهذه السرعة .
ولم تقل ليس هو: للشبه على أنه عرشها لولا أن نُكِّرَ لها .
ولم تقل يشبه عرشي : لأن ذلك معناه أنه ليس عرشها .
بل قالت « كأنه هو» فلا هي أقرت أنه عرشها ، ولا هي نفت أن يكون عرشها(١) .

أما حكمتها : فتظهر في عدم قبولها رأي رجال الشورى الذي أعلنوا فيه استعدادهم لحرب سليمان وجنوده ، وإنما أرادت أن تعرف قصد سليمان هل هو دنيوي أم أخروي ، فإن كان يريد المال ، فالهدية النفيسة تُسكته و بهذا تُجنّب بلادها و يلات حرب لا تدري منتهاها ، وإن كان نبياً يدعو للدين فلن ينجيهم منه إلا الإيمان به واتباع دينه . ولمّا أُخبرت برفض هديتها ، ذهبت وحاشيتها ليعلنوا إسلامهم ـــ امام سليمان ـــ لله ربّ العالمين .

ولهذه الأسباب مجتمعة لانستطيع أن نحكم على وضع المرأة في المجتمع السبئي ، بأنها كانت في مركز مرموق من خلال وضع ملكة سبأ ، إذ لم يحكم اليمن من النساء إلا هذه الملكة السبئية والملكة أروى الصليحي ـــ وهما متقاربتان في رجاحة العقل و بعد النظر وقوة الإدراك . وانه لمن بديع التَمَثُّل بقول الغير أن تقول الملكة أروى (عند وصول رسالة الخليفة الفاطمي لها) :

« أما كتاب مولانا وأمره فأقول فيه (إنه أُلقيَ إليّ كتاب كريم ، إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) »(٢) وهي نفس الكلمات التي قالتها ملكة سبأ عند وصول رسالة سليمان (عليه السلام) لها .

ومن هنا فإن البحث عن المركز الحقيقي للمرأة في المجتمع السبئي لايتأتى إلا من التنقيب في النقوش التي ورد بها ذكر المرأة . غير أن هذه النقوش قليلة جدا إذا ما قيست بالنقوش الأخرى ، ولهذا فإنها لا تعطينا صورة كاملة لوضع المرأة في ذلك العهد .

والوظيفة الرئيسية للمرأة التي تُركِّز عليها النصوص هي وظيفة الإنجاب فقط كما هوواضح في النقشين التاليين :

١ ـــ « وليمنح (المقه) شرح عثت أولاداً من زوجته أم حمّاد بنت حي . . »(٣) .
٢ ـــ « حمله ونعمه سعد ـــ قدّمتا هديّة للمقه لأنه أنعم عليهما بالأولاد . . »(٤) .

وورود هذين النقشين ونقوش أخرى تدور حول هذا المعنى يعطينا صورة عن نظرة السبئيين القدماء للمهمة الرئيسية للمرأة وهي الإنجاب .

---

(١) تفسير القرطبي ، جـ٤ ٥ ، انظر تفسير سورة النمل
(٢) محمد حداد ، تاريخ اليمن السياسي ص ٢٠٩
(٣) احمد شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش ٢٨ ص ٨٢
(٤) زيد عنان ، حضارة اليمن القديم ، نقش رقم ٤٦ ص ٣٠٥

وهناك نصوص أخرى تُلقى لنا ضوءا على العلاقة الزوجية منها هذا النقش :

«ر بعثت يغنم التزأدى يقدم قربانا للاله (المقه) لأنه استرجع ولمّ شمله مع زوجته (تحي إيل) التزأدية و يسأل المقه أن يهب له منها ذكوراً صالحين وليُجَنِّبهما شرور الأعداء الحاقدين وجالبي البأساء ممن يعرفان وممن لا يعرفان.»(١).

و يُلاحظ من هذا النص :

١ـ ان الرجل كان مسرورا بعودة زوجته ولمّ شمله معها، ولا ندري بالتأكيد أهوزواج منها أم أنها عادت إلى حظيرته بعد فرقة بينهما.

٢ـ كان طلبه الرئيسي من (المقه) ـ بعد ان رجعت زوجته ـ إنجاب الأولاد.

٣ـ يُفهم من النص أن المرأة كانت تنسب إلى زوجها كما هو الحال في الوقت الحاضر، فقد ورد إسمها في النص (تحي إيل التزأدية) نسبة إلى (ر بعثت التزأدي).

وهناك نص آخر يشير إلى الحالة النفسية لرجل غَشِي زوجته وهي حائض، إذ نراه يقدّم قربانا لذي السماء ليعفوعنه(٢).

هذه النقوش لا تشير إلى أية وظيفة للمرأة سوى الوظيفة الطبيعية لها، ومعنى ذلك أنه لم يكن للمرأة في المجتمع السبئي مركز إلا بمقدار تأديتها هذه المهمة الموكلة إليها، و يسير مع هذا الاتجاه إبراز الثديين(٣) وحلمتاهما في التماثيل السبئية أكثر من بقية أعضاء الجسم.

وإذا ما قارنا بين نظرة السبئيين القدماء للمرأة و بين نظرة اليمنيين في الوقت الحاضر لما وجدنا اختلافا كبيرا بين النظرتين. فأهل اليمن الحاليون يرون أن المرأة أقل منزلة من الرجل مهما كانت عظمة هذه المرأة، فعندما كنتُ بجانب عرش بلقيس (كما يسمى اليوم) قرب مأرب، تساءل أحد اليمنيين الذين كانوا هناك: كيف رضي اليمنيون القدماء أن تحكمهم إمرأة؟ فذكرت له أن ملكة سبأ تستحق الحُكم بجدارة، لأنها قادت قومها من الكفر والضلال إلى الإيمان والهداية. فأجاب على الفور: المسألة أننا نجد صعوبة في تَقَبُّل فكرة حكم المرأة للرجال في ذلك الوقت، لأن ذلك يُقَلِّل من شأنهم في اعتقادنا.

والمرأة اليمنية تشارك الرجل (حاليا) في الاقتصاد اليمني: الزراعة والرعي بالإضافة إلى أعمالها البيتية، و ينطبق هذا الوضع تماما في الريف. وهذا ما يجعلنا نظن أنها كانت تقوم بهذه الأعمال في عهد السبئيين حتى ولو اقتصرت النصوص على ذكر وظيفة الإنجاب. وهذا الاحتمال

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، انظر النقش رقم ٢٤ ص ١٣٤

(٢) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ انظر النقش رقم ٣٧ ص ٩٣

(٣) عبدالله احمد الثور، اليمن في صور، ص ١١٩ وأماكن أخرى

يبدو أقرب للواقع عندما نعلم أن الحروب بين القبائل كانت تتطلب تعبئة الرجال كلّيا فلا يبقى من يعتني بالزراعة والحيوانات في تلك الحالات غير النساء .

ثالثا : الآداب والفنون :

اللغة التي كانت سائدة في اليمن قديما هي « لغة المسند » وهي إحدى اللغات السامية[1] التي بقيت ردحا طويلا من الزمن إلى أن اندثرت تماما عند ظهور الإسلام . و يعود سبب اندثارها إلى أنها لم تستطع منافسة لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم والتي عمّت أنحاء الدولة الإسلامية ومنها اليمن نفسها .

وقد بقيت لغة المسند في طي النسيان إلى وقت قريب تمكّن فيه بعض المستشرقين والباحثين من العثور على نقوش كثيرة كُتِبَت بنصوص المسند ، فاقتضت الحاجة إلى دراسة هذه اللغة من جديد للاستفادة منها في دراسة تاريخ وآثار عرب جنوب الجزيرة . ومن هذه الدراسات عرفنا معلومات عن أبجدية المسند وتاريخها في جنوب الجزيرة ، والصلة بين مفرداتها وغيرها من اللغات كالعربية والحبشية والفنيقية .

وأبجدية المسند تتألف من تسعة وعشرين حرفا ، أي كالأ بجدية العربية بزيادة حرف واحد يُنطق بين السين والزاى (انظر أبجدية المسند ص ٦٨)

وتكتب حروف الكلمات منفصلة ودون نقط أو حركات ، و يفصل بين الكلمتين خط عمودي . وكانت الأسطر تبدأ من اليمين وتنتهي إلى الشمال كالعربية ، إلا أن الكتابة السبئية الأولى (في عهد مكارب سبأ الأوائل) كانت تبدأ من اليمين في السطر الأول ومن الشمال في السطر الثاني : وتسمى طريقة الكتابة هذه «دوران الثور» أو(الطريقة الحلزونية)[2] .

أما تاريخ أقدم نقش سبئي بهذه الكتابة فيعود إلى عهد المكرب (سمهعلي) أول حكام الدولة السبئية الثانية كما أسلفنا في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد .

وأملنا الكبير الآن أن نعثر على نقش واحد دون في عهد الدولة السبئية الأولى ، فإن كان مدونا بالمسند ، فمعنى ذلك أن أبجدية المسند أقدم من الأبجدية الفنيقية المشهورة ، على اعتبار أن الفنيقيين هاجروا من الجزيرة العربية ضمن الهجرات السامية وحملوا معهم هذه الأبجدية .

أما إن كان النص أو النصوص المدونة في الدولة السبئية الأولى ــ والتي نأمل العثور على أحدها ــ مدونا بغير المسند ، فإن ذلك يعني أن المسند وصل جنوب الجزيرة بواسطة التجار السبئيين أو القبائل الشمالية (التي رحلت إلى الجنوب وأقامت الدولة السبئية الثانية) أو عن طريق الأحباش .

---

(١) احمد شرف الدين لهجات اليمن قديما وحديثا ص ١٣

(٢) محمد يحي حداد ، تاريخ اليمن السياسي ص ١٣٤

أشكال حروف المسند مرتبة حسب حروف الهجاء العربية(١)

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

(١) انظر مطهر الارياني،في تاريخ اليمن ص ٣٤،جواد علي،المفصل جـ٨

وهناك شبه كبير بين المسند وحروف الكتابة الحبشية الحالية لدرجة أن أحد الجيبوتيين ــ الذي قابلته صدفة في اليمن ــ لم يستطع أن يمُيِّز بين الكتابة السبئية التي نقلتها من سد مأرب و بين الكتابة الحبشية التي يُتقنها إلا بعد تدقيق. ولا ندري على وجه التأكيد في الظروف الراهنة ما إذا كانت الكتابة الحبشية أصل المسند أم ان المسند هو الأصل للحبشية، وإن كنا نرجح أن القبائل السبئية التي هاجرت للحبشة قديما حملت معها المسند.

أما الصلة بين المسند واللغة العربية فواضحة من الكلمات العربية التي توجد بين ثنايا النقوش كما في النص التالي(١):

«حرم/بن/ثوبن/تنخي/ودي/نذرن/لذسموى/بهن/تن....
بحرمو/حيض/بني/على/غير/طهرن/وهن/ومس/أنثو/حيضن/ولم/يغتسل/وهن
/نضح/اكسوتو/حمر/... ويحلم/على/ثوبن/».

ومعنى النص:
(حرم بن ثوبان التنوخي) قدم نذرا لذي السماء (الله) لما...بزوجته وهي حائض، ولما بنى على زوجته وهي غير طاهر وحين غشي زوجته الحيض ولم تغتسل، وحين نضح ثوبه حمار...و يعفو عن (ثوبان).

فالكلمات: نذر، حرم، حيض، طهر، يغتسل، نضح، حمار، ويحلم ــ كلمات مفهومة ومستعملة في مختلف الأوساط مما يدل على مقدار الصلة بين المسند واللغة العربية.

وقد أشار إلى هذه الصلة من قبل، الدكتور محمود الغول(٢) فأورد أمثلة وشواهد لألفاظ في القرآن الكريم والحديث الشريف لها علاقة بالنقوش اليمنية القديمة(٣).

وعلى أية حالة، فإننا إذا سرنا مع تقسيم المؤرخين للعرب إلى: عاربة في جنوب الجزيرة، ومستعربة في شمالها تعلمت العربية من العاربة، تأكد لنا أن لغة المسند والعربية الفصحي نبعتا من معين واحد.

أما بالنسبة للأدب: شعره ونثره، فلا تشير النصوص الموجودة حاليا إلى شيء من هذا، إذ أن بعضها نقوش دينية محفورة على واجهات المعابد، و بعضها الآخر نقوش تاريخية مسطرة على المباني تخليداً لبانيها.

ورغم أن كتب المؤرخين العرب غنية جدا بأشعار تنسب إلى ملوك سبأ والتبابعة، إلا ان هذه

---

(١) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٣٧ ص ٩٣
(٢) من الباحثين المتخصصين في تاريخ عرب الجنوب، وهو وكيل جامعة اليرموك الأردنية
(٣) (مجلة) الآثار اليمنية ــ صنعاء، العدد الأول، يناير ١٩٧٦م ص ١٥ ــ ٢٧

الأشعار يُشكُ في صحة نسبتها لهم ، و يدرك ذلك من : سهولة ألفاظها وقرب معانيها بحيث لا يطمئن على أنها من الشعر الجاهلي كما في الأ بيات التالية التي تنسب إلى أسعدتبع يذ كر فيها بلقيس :

ولقد بنت لي عمتي في مأرب	عرشاً على كرسي ملك متلد
عمرت به تسعين عاما دوخت	أرض العراق من مفازة صيهد
يغدو إليها ألف ألف كلهم	عقب لها يتعاقبون من الغد
فرأت سبيل الرشاد حين تبينت	ماقد آتاها من حكيم مرشد(١)

و بالطبع فإن هذه الأشعار لا تقارن بما جاء في نصوص المسند من ألفاظ ، ولا حتى بأشعار امرىء القيس الذي هومن قبيلة كندة اليمنية ، مما يؤكد أن هذه الأشعار قيلت في العصر الإسلامي .

ولا يعني هذا ان العصر السبئي خلوّمن الأدب والشعر والأساطير، فهذا لاتخلومنه الأمم عادة، وإنما نعني أن النقوش الحالية لم تشر إلى الأدب السبئي ، ولهذا فنحن بين احتمالين :

إما أننا لم نعثر على نقوش أدبية بعد ، أو أنّ السبئيين كانوا يتداولون أدبهم مشافهة دون تدو ين كما هي حال البدو اليوم الذين يتناقلون الأشعار والقصص والحكم مشافهة ، وما قصص أبي زيد الهلالي والزير سالم إلا من هذا القبيل .

الفنون :

وللفنون السبئية أهمية لا تقل عن أهمية الكتابات في معرفة تاريخهم ، إذ أن السبئيين استطاعوا تمثيل بيئتهم بما تركوه من تماثيل ورسومات ومخلفات .

فالتماثيل الكثيرة التي توجد في متاحف صنعاء ومأرب وعلى الطبيعة في أماكن مختلفة تعطينا صورة واضحة للإنسان والحيوان والنبات في العصور السبئية . فقد نحت السبئيون تماثيل لملوكهم : كتمثال (ذمار علي يهبر) الموجود في متحف صنعاء ، كما مثّلوا الرجال والنساء في أوضاع مختلفة : جالسين أو قائمين منفردين أو مجتمعين ـ مع التركيز على الحالة النفسية من سرور وحزن وغضب(٢) .

وتظهر في التماثيل السبئية بعض الصفات الجسمية والشكلية : كالطول وتقاطيع الوجه وشكل الشعر وغطاء الرأس ونوع اللباس والأحذية وغير ذلك من الصفات التي يمكن أن تُستخلص من التفحُّص في هذه التماثيل بدقة .

كما مثّل وصوّر السبئيون حيواناتهم أثناء وقوفها وحالة أدائها عملها ، فعرفنا الحيوانات الموجودة في ذلك العصر: كالثيران والأسود والخيول والظباء والنسور والحيات . ولاشك أن أهم هذه

---

(١) قصيدة نشوان الحميري ص ٨٦

(٢) محمد الأكوع ، اليمن الخضراء ص ٢٢٧

الحيوانات عندهم هي الثيران لكثرة تماثيلها ورسومها.

و يلاحظ على رسوم وتماثيل الإنسان والحيوان عموما عدم التناسق: إذ لا تتناسب تماثيل الجزء العلوي من الجسم مع الجزء السفلي، وقد يُمثّل الوجه في بعضها على شكل مستطيل تماما، وفي بعض الأحيان تكون العينان مرتفعتين عن وضعهما الطبيعي، وقد تأتي إحداهما أكبر من الأخرى.

أما التماثيل والصور الخاصة بالنباتات: كالقمح والعنب والنخيل فقد وصل بها السبئيون منتهى الدقة بحيث لا تقارن دقتها مع تماثيل الإنسان والحيوان، ولعلّ السبب في ذلك بقاء النبات دون حراك أمام النحات أو الرسام فترة طويلة من الزمن بعكس الانسان والحيوان اللذين لايستقران على وضع معين — فترة طويلة — كالنبات.

ومن الصور التي عثرت عليها — بالصدفة — عند سد مأرب: صورة لجندي ماد يده اليمنى تجاه السد أو تجاه وادي إذنة، وصورة أخرى لكرسي له مسند للظهر وله أربعة أرجل. وفوق هاتين الصورتين صورة لوعل تظهر قرونه المتشعبة بوضوح.

والأهم من هذه الصور — في نظري — الخريطة المحفورة فوق الصُور السابقة. ومن المحتمل أن تكون خريطة لسد مأرب، فإن كانت قد رسمت في عهد المكارب (بالدولة السبئية الثانية) المدونة أسماؤهم على مصارف السد يكون السبئيون من الأمم القديمة التي عرفت رسم الخرائط على اعتبار أن هيردوت (٤٨٤ — ٤٢٦ق.م) و(ايراتوستين ٢٧٦ — ١٩٤ق.م) العالمين اليونانيين هما من أوائل من رسم الخرائط كما هو معروف.

أما المخلفات السبئية: كالأواني والأدوات المنزلية والعملات النقدية — فقد زُيِّنت برسومات مختلفة للملوك والنبات وطُعِّمت بالذهب والفضة كما جاء في وصف استرابو:

«وعندهم مستحدثات الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة منها: الأسرة ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشرب وناهيك بمنازلهم الفخمة وقد ازدانت أبوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان وترصّعت بالعاج والأحجار الكريمة»(١).

والنقود السبئية متنوعة فهي إما ذهبية أو فضية أو نحاسية، إلا أن الشيء المشترك بين هذه العملات هو — النقوش والرسومات والكتابات الموجودة عليها. وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية (٢) ان هذه النقود كانت تقليداً للنقود اللاتينية، غير أن وجود كتابات المسند وصُور الملوك والنسور عليها يجعلنا نعتقد أن التقليد — إن كان قد حدث — ففي المرحلة الأولى لبداية استخدام العملة السبئية.

---

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٠

(٢) مادة «السبئيين»

رابعا: العمارة السبئية:

يبدو لنا مما قرأناه وشاهدناه أن السبئيين قد وصلوا إلى درجة متقدمة في فنّ العمارة. ولا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نحصي آثار السبئيين ونصِفها: فمنها ما يقف شامخا كأن صانعه فرغ منه بالأمس، ومنها ما اندثر وزالت معالمه ولم يبق إلا ذكراه، ومنها ما غمرته رياح السموم بأتربة ناعمة وكثيفة.

وأكثر وأدق من وصف هذه الآثار هو الهمداني الذي خصص الجزء الثامن من كتابه: «الاكليل» لوصف محافد اليمن وقصورها. وتأتي أهمية هذا الجزء في أن الهمداني وصف فيه قصورا ومحافدَ كانت قائمة في عهده[1]، اندرست اليوم واختفت.

و يتجلى الفن المعماري السبئي في عدة نواح نجملها فيما يلي:

١ــ المدن: وأشهرها مأرب التي بقيت العاصمة السبئية فترة طويلة من الزمن، ثم صرواح التي تبعد عن مأرب أربعين كيلو مترا ناحية الغرب، وسيأتي وصف دقيق لهاتين المدينتين في الفصل الثاني من الدراسة الجغرافية لسد مأرب.

ومن العواصم الأخرى للدولة السبئية: ظفار ــ مركز الريدانيين في فترة من فترات الصراع على السلطة، وصنعاء التي كانت تسمى قديما (آزال).

أما مدن حضرموت التي كانت تتبع السبئيين في فترات كثيرة من تاريخهم فأهمها: تمنة (بيحان حاليا) وشبام وسيئون وتريم.

وأشهر موانىء السبئيين على البحر الأحمر: موزا (مخا حاليا) وقد وصفها مؤلف الطواف حول البحر الأريتري (٥٠ ــ ٦٠م) فقال: «كان يرِدُها من البضائع أنواع الأقمشة الأرجوانية: ناعمها وخشنها، وألبسة خيطت على الزي العربي ذات أردان تكون بسيطة أو عادية أو مطرزة موشاة بالذهب والزعفران وأنسجة القطن الشفافة والعبّي...»[2]

ــ المعابد: وأعظم المعابد السبئية وأقدمها معابد الإله (المقه) في مأرب وصرواح. ولا يزال لهذين المعبدين بقايا تظهر من بين الرمال والركامات. ومن معابد السبئيين «ريام» وهو المنسك الأكبر الذي كانوا يحجون إليه و ينحرون قرابينهم عنده، وهو في رأس جبل (أتوه) من بلد همدان[3].

٣ــ القصور: قال الهمداني: «أول قصور اليمن وأعجبها ذكرا وأبعدها صيتا قصر «غمدان» وهو قصر

---

(١) توفي في صنعاء عام ٣٣٤هـ (٩٤٥م)

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٦٤

(٣) زيد عنان، تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١٢٠

«آزال» وكان غمدان عشرين سقفا غرفا بعضها فوق بعض، وغرفته العليا مسقوفة برخامة واحدة شفافة يستطيع الناظر منها أن يُمَيِّزَ بين الغراب والحدأة»[1].

والبنايات المتعددة الطوابق لم نسمع بها في الحضارات القديمة، فكيف إن كانت مكوّنة من عشرين طابقا !! إن هذا يعني ـ بكل تأكيد ـ ان السبئيين هم أشهر من بنى القصور المتعددة الطوابق في العالم القديم.

ومن قصور اليمن «ناعط» الذي يلي غمدان في العظمة والشهرة، وهو مكون من مجموعة من القصور أشهرها قصر الملكة الكبير، وتوجد مجموعة القصور هذه على رأس جبل (ثلين) في أرض همدان[2].

ومن القصور السبئية المشهورة «سلحين» ـ مركز الحكم في مأرب ـ والقشيب وغمدان في مأرب (غير غمدان صنعاء)، وسيأتي وصف قصور مأرب عند دراسة آثار مدينة مأرب في الباب الرابع إن شاء الله.

٤ـ **المشاريع العامة:** وكانت الحكومة تتولى تنفيذ هذه المشاريع عن طريق السُّخرة[3]، ومن هذه المشاريع:

السدود: كسد مأرب وسد ذي يفيد وسد الخانق وسدود مخلاف يحضب.

القنوات: وهي إما منحوتة في الصخور أو مبنية بالحجارة، وتُشاهد بقاياها بوضوح قرب السدود.

الطرق: إذ لم تمنع طبيعة اليمن الجبلية السبئيين من رصف الممرات والمسالك بحجارة صمّاء صلبة أو نحت المسالك في صخور الجبال أو بناء مدرجات في الأماكن الوعرة. وقد شاهدت بعض هذه المدرجات في أماكن قريبة من سد مأرب وقد نُحتت بدقة في صخور صلدة.

ومن سُبُلِ المواصلات التي كان للسبئيين السبق في استعمالها: حفر الأنفاق وشق الجبال اختصاراً للطرق وتقليلا للجهد الإنساني والحيواني. وقد ذكر الهمداني في فصل عجائب اليمن بكتاب «صفة جزيرة العرب»[4] بعض هذه الأنفاق والشقوق فقال: «منها باب عدن وهو شصر (شق) مقطوع في جبل كان محيطاً بموضع عدن من الساحل، فلم يكن له طريق إلى البَرّ إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل، فقُطِعَ في الجبل باب مبلغ عرض الجبل حتى سلكته الدواب والجمال. وقطع يينون جبل قطعه بعض ملوك حمير حتى أخرج فيه سيلاً من بلد وراءه إلى أرض يينون».

---

(١) الإكليل جـ٨، انظر الصفحات ٥، ١٥، ٢٢ (ينظر في قول الهمداني هذا حيث ان الرخام غير شفاف

(٢) زيد عنان، تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١١٢

(٣) جواد علي، المفصل جـ٧ ص ٤٧٠

(٤) ص ٣٤٤

ولاشك أن الأنفاق السبئية أدت مهمتها في ذلك العصر كما تؤديها الأنفاق الموجودة حاليا في جبال الألب بايطاليا وفرنسا وسويسرا وإن اختلفت وسائل المواصلات المُستخدمة لعبور تلك الأنفاق.

و بعد أن عرضنا نماذج مختلفة للعمارة السبئية نود أن نستخلص منها الطابع العام للفن المعماري السبئي الذي يُلاحظ بوضوح من مشاهدة الآثار السبئية:

أولا: شكل البناء: تتميز العمارة السبئية عن غيرها بأنها تتخذ شكل «المخروط المقطوع»، أي ان البناء يضيق كلما ارتفع. وهذه السمة تغلب على معظم الأبنية السكنية في جنوب الجزيرة. ولايزال هذا النمط من البناء موجوداً حتى الآن في تلك المناطق.

أما المعابد السبئية فيغلب عليها الشكل الدائري كما هو حال معبدي (المقه) في مأرب وصرواح.

ثانيا: مواد وأساليب البناء: يمكن أن نطلق على العمارة السبئية بكل جدارة: العمارة الرخامية. ذلك أن استخدام الرخام المنحوت في الأبنية والأعمدة كان على نطاق واسع، لدرجة أن السبئيين كانوا يستخدمون الرخام في مجالات يمكن استخدام غيره بها: كاستخدامه عرائش وأعمدة لرفع أشجار الكرمة. ولاشك أن استخدام الرخام على هذا النطاق الواسع يعود ـ بالدرجة الأولى ـ إلى كثرة الصخور الرخامية في بيئتهم.

أما أساليب البناء فمتنوعة: منها ما يعرف «بذكر في انثاه» اذ يوجد في أحد أوجه الحجر المنحوت بروزات وفي الوجه المقابل من الحجر نقرات، فكان السبئيون يضعون بروزات الحجر في نقرات حجر آخر، فيلتحم الحجران تماما دون استخدام مادة ماسكة.

ومنها: وضع حجر رأسي بين أربعة حجارة أفقية فتتماسك الخمسة تماما. وأحيانا كانوا يستخدمون قضبانا رصاصية لربط الحجارة ببعضها.

وأشهر المواد الماسكة التي كانوا يستخدمونها هي مادة «القضاض» التي تشبه الاسمنت في استعمالاتها[1].

ثالثا: طول بقاء الأبنية السبئية:

ومن مميزات العمارة السبئية صمودها أمام عوامل الطبيعة، وهي بهذه الميزة تُشارك العمارة الفرعونية بصمودها وخلودها، وكان من الممكن أن نرى الأبنية السبئية كما كانت عند بنائها لولا عدوان لدودان هما الرمال والإنسان:

فالرمال التي تحملها الرياح الشرقية غطت وتغطي الأبنية القديمة برداء تزداد كثافته

---

(١) سنذكر أساليب البناء هذه بالتفصيل ـ مع الرسومات والصور التوضيحية ـ وكذلك مادة «القضاض» في فصل وصف سد مأرب بالباب الرابع

يوما بعد يوم .

أما الانسان فهو الخطر الحقيقي الذي قضى وخرّب كثيرا من الآثار والأ بنية ، فهو ينقل الحجارة القديمة و يستخدمها في أبنية جديدة أو لأعراض خاصة . وظاهرة استعمال اليمنيين لحجارة الأ بنية القديمة ظاهرة عامة في معظم انحاء اليمن . وما بناية جامع صنعاء ومبنى محافظة مأرب (المدونة على حجارتهما نصوص المسند) إلا مثالان بارزان للعيان يؤكدان ما ذهبنا إليه من أن للإنسان دورا كبيرا في خراب كثير من المنشآت السبئية .

رابعا : ضخامة الجهود المبذولة :

إن من يشاهد آثار العمارة السبئية يأخذه العجب من مقدرتهم الخارقة على قطع الحجارة الضخمة ونحتها بدقة متناهية ونقلها من مواضع قطعها إلى أماكن الأ بنية ومن ثم بنائها ــ خاصة إذا ما عُلم أنها بُنيت قبل آلاف السنين يوم كان الإنسان لايعرف الالآت القاطعة والأدوات الحادة .

وقد أدرك المؤرخون القدماء عظمة هذه الأ بنية ، فنسبها بعضهم للجن ، وآخرون قالوا إن صخور الجبال كانت تلين للسبئيين في أيام معينة من السنة ، فيشكلونها كما يريدون كأطفال يلعبون في الطين .

والأمر أبعد من هذه التفسيرات غير المعقولة ، إذ أن الفراعنة تركوا من الآثار الضخمة مالا يقل عما تركه السبئيون . وهذا ما يدعو للبحث في تفسيرات علمية لقدرة الإنسان القديم على أداء هذه الأعمال الضخمة .

أيمكن تعليل ذلك من الدراسات الجيولوجية التي تشير إلى دورة التعرية العامة : وهي تفتت الصخور الصلبة بواسطة عوامل التعرية (الرياح والمياه) وتحويلها إلى أتربة متراكمة تتعرض لضغط مستمر يؤدي إلى تصلبها شيئا فشيئا لتعود كما كانت في الأصل صخورا صلبة ــ فهل كانت في عهد السبئيين في مرحلة ما قبل التصلب ، بحيث استطاعوا تقطيعها ونحتها بسهولة ؟؟

أم نعلل ذلك تعليلا فسيولوجيا : بأن إنسان ذلك العصر كان أقوى جسما وأصلب عودا مما هو عليه الآن ؟

ننتظر فلعل الأ بحاث تكشف لنا بالتأكيد الوسائل التي تمكّن بها القدماء من القيام بتلك الأعمال الخارقة التي نقف أمامها وقد خطفت أبصارنا ، وأخذت بلباب عقولنا .

* * *

و بعد أن انتهينا من هذا الباب الخاص بالسبئيين وعرفنا أصلهم وتتبعنا ذكرهم في المصادر

المختلفة ودورهم في تاريخ عرب الجنوب، واقتصادهم الذي أتاح لهم إنشاء حضارة مزدهرة ــ ذكرنا أبرز معالمها ــ نتصور بعد هذا كله، أنه باستطاعتنا أن ننتقل إلى دراسة سدّهم من جوانبه المختلفة وفي أذهاننا معلومات أساسية وضرورية لذلك.



الباب الثاني
دراسة دينية حول سد مأرب

الفصل الأول : السدود في اللغة وفي القرآن الكريم .

الفصل الثاني : مفاهيم السبئيين الدينية .

الفصل الثالث : مراحل الديانة السبئية .

الفصل الرابع : المياه والسدود وعلاقتها بالديانة السبئية .

الفصل الأول

السدود في اللغة وفي القرآن الكريم

السد في اللغة:

السَّدُّ والسُّدُّ: الجبل والحاجز[١]. وقيل السُّدُّ (بالضم) ما كان من خلق الله، والسَّدُّ (بالفتح) ما كان من عمل ابن آدم[٢].

و يأتي معنى السد (بالفتح والضم) كذلك: إغلاق الخلل وردم الثلم[٣]. والفعل سدَّ بمعنى أغلق، وهي مستخدمة في معظم أجزاء الوطن العربي اليوم، وقد يُظَنُّ أنها عامية وليست كذلك.

والسَّدُّ والسُّدُّ كل بناء يُسَدُّ به موضع، والجمع: أسِدَّة وسدود[٤]، إلا أنها أكثر ما تُستعمل في الأ بنية التي تعترض الأ ودية والأنهار. وفي صحيح البخاري[٥] السد حائط يُبنى في وجه الماء.

ولكلمة السدّ ــ بمعنى حاجز ــ مترادفات كثيرة منها:

(الردم) بمعنى حاجز وهو أكبر من السد وأوثق، كما في قوله تعالى «قال ما مكنّي فيه ربّي خير فأعينوني بقوّة أجعل بينكم و بينهم ردْما»[٦]

(السكر) وهي حواجز خاصة بالمياه.

(المسناة) السدود بلهجة أهل اليمن.

(الأحباس) السدود تبنى في الأ ودية لحبس الماء لوقت الحاجة.

(العقوم) جمع عقم: السدود الصغيرة، وهي شائعة الاستعمال في جنوب السعودية. وفي جنوب فلسطين تُسمى (السدّات) جمع سدّة.

أما اسم السد في لغة المسند (الأ بجدية السبئية القديمة) فهو (عرمن)[٧] و يُكتب بحروف

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة «سدد»

(٢) الامام الرازي، مختار الصحاح ص ٢٩٢

(٣)و(٤) ابن منظور، لسان العرب «سدد»

(٥) المجلد الثالث ــ سورة سبأ ص ٢٨

(٦) سورة الكهف الآية ٩٥

(٧) جواد علي، المفصل جـ٧ ص٢٠١

المسند هكذا (ه) (ﻟ ﮪ)، ولم يكن مقتصراً على سدّ مأرب خاصة .

والعرم في أشعار عرب الجاهلية بمعنى سدّ ، كما في المسند . قال أمية بن الصلت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما[1]

فالسد عموماً الحاجز. والاستعمال المتداول للسد اليوم خاص بحجز المياه. وقد جاء في القرآن الكريم بمعناه العام، وليس مقتصراً على حجز المياه فقط .

السدود في القرآن الكريم :

وردت لفظةُ (السَّدّ في القرآن الكريم في سورتي الكهف و يس . كما وردت كلمةُ (العرم) بمعنى السد في سورة سبأ .

ففي سورة الكهف[2] جاء وصفُ جانبٍ من رحلة ذي القرنين في قوله تعالى: «حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدّا، قال ما مكنّي فيه ربيّ خيرفأعينوني بقوة أجعل بينكم و بينهم ردْما» .

وكلمة (السدّين) في الآية الأولى فُسِّرت[3] على «أنهما جبلان بينهما ممر» وهذا الممر هو الذي بنى فيه ذو القرنين سدّه. وقد حدّد لنا أبو الكلام آزاد[4] مكان سدّ ذي القرنين في المنطقة المحصورة بين بحر قزوين والبحر الأسود حيث تمتد جبال القوقاز بينهما مكّونة حاجزا طبيعيا بين الشمال والجنوب ما عدا الممر المذكور الذي اختاره ذو القرنين مكانالبناء سده. (انظر الخريطة رقم ٢).

وقد تحدث القرآن الكريم بشيء من التفصيل عن هذا السد، إذ بناه ذو القرنين استجابة لمطلب القوم الذين لقيهم بين السدين لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم. وقد أدى هذا السد مهمته التي بُني من أجلها، فغدا حاجزاً منيعا لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يتسوّروه لارتفاعه، ولا أن ينفذوا منه لسمكه وصلابته، فقد كانت مادة البناء الأساسية قِطَع الحديد المصهورة مضافاً إليها النحاس المذاب ليزيدها قوة ومتانة .

والإشارات التي ينبغي التنبه إليها من قصة سدّ ذي القرنين هي :

---

(١) ابن هشام، السيرة، جـ١ ص ١٥

(٢) الآيات ٩٣ــ ٩٥

(٣) تفسير ابي السعود جـ٣ ص ٥٥٢

(٤) مجلة العربي، عدد ١٨٤ (مارس ٧٤م)

١ــ جاء السدُّ في هذه الآيات بمعنى حاجز: أي بالمفهوم العام لكلمة السد. وقد جمعت اللفظة بين الحاجز الطبيعي (السَّدَّين) والحاجز الصناعي (السدّ) الذي بناه ذو القرنين. ومن سياق القصة نفهم أن السدّ في هذا المقام حاجزٌ للاعتداءات ومانِعٌ للغارات.

٢ــ ان متانة هذا السد وقوته غير عاديتين. فلم نسمع بأي نوع من المنشآت في القديم أو الحديث بني على طريقة بناء سد ذي القرنين. فاضافة نسبة من النحاس المذاب إلى الحديد (المشهور بصلابته) المصهور يضاعف مقاومته وصلابته. ولهذا جاء ذلك السد لامثيل له في المتانة والقوة.

٣ــ ان هذا السد كان نعمة من الله على عباده لاسيما مجاوريه، كما جاء في القرآن على لسان ذي القرنين: «قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاءَ وكان وعدُ ربي حقاً»(١).

و يقول ابو السعود في تفسيره(٢): «وفيه (أي سد ذي القرنين) إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلهي محض».

فما كان لذي القرنين أن يهتدي لبناء سد كهذا، وما كان للذين أعانوه في بنائه من النفخ في الحديد المصهور أو الاقتراب منه لو لم تتول العناية الالهية ذلك.

وفي سورة يس وردت لفظة (السد) في قوله تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون»(٣)

وهذا تمثيل محسوس لكفار قريش الذين أنكروا رسالة النبي عليه السلام وجحدوها، فقد حال الله ــعز وجلــ بينهم و بين الهدى والايمان بسد من الأمام وآخر من الخلف لما علمه من طبيعة قلوبهم التي لاينفُذُ إليها الإيمان. وقد شكّل هذان السدان حاجزين سدّا عليهم سُبُلَ الرؤية فغدوا محرومين عن النظر في الأدلة والآيات.

فالسد في هذه الآية جاء بمعنى حاجز للبصر والبصيرة عن الرؤية والإيمان. وهو خاص بكفار قريش في هذا المقام. ونفهم من ذلك أنه لم يكن سدّاً مادياً مبنياً من الحجارة، وإنما هو حاجزٌ ماثل أمام أعين كُفَّار قريش فقط بحيث يمنعهم من الهُدى والإيمان جزاء إصرارهم على كفرهم.

و وردت في القرآن الكريم كذلك لفظة (العَرِم) بمعنى السدّ في قوله تعالى: «فأعرضوا فأرسلنا

---

(١) سورة الكهف الآية ٩٨

(٢) جـ٣ ص ٥٥٥

(٣) سورة يس الآية ٩

عليهم سيل العَرِم و بدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمْطٍ وأثْلٍ وشيء من سدرٍ قليل»([1]).

وكلمة العَرم في المراجع اللغوية([2]) لها معانٍ عِدة منها: السُّدود تبنى في الأودية، والمطر الشديد، والسيل الذي لايُطاق، والجُرْذُ الذَّكر. ومن المرجح ان المقصود هنا المعنى الأول: أي السدود. و يؤكد هذا ما سبق أن ذكرناه بأن كلمة (العَرِم) في نصوص المسند وفي أشعار العرب هي السدّ.

فالسدود في اللغة وفي القرآن الكريم معناها الحواجز أو الموانع، والقرائن المصاحبة هي التي تُحدد لنا ماهية هذه الحواجز: فقد تأتي حواجز لصد الأعداء، كما تأتي حواجز للنظر والتبصر، وقد تأتي أيضاً حواجز لتجميع المياه أمامها وهو المعنى المشهور للسدود اليوم.

وكما أن سد ذي القرنين كان نعمة للقوم الذين لقيهم عند مكان بنائه، كان العرم (المشهور بسد مأرب) نعمة جليلة من نعم الله على سبأ كما سنرى.

السُّدود من نعم الله:

نعم الله على خلقه لاتحصى، كما قال عز وجل «وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها إنه لغفورٌ رحيم»([3]).

و يرى ابو السعود([4]) ان هذه النعم ــمع استحالة حصرهاــ تنحصر أُصولُها في دُنيوي وآخروي:

فالنعم الدنيوية منها ما هو روحاني كنفخ الروح في الإنسان وإمداده بالعقل، ومنها ما هو جسماني كتخليق البدن والحواس، ومنها ما هو كسبي كالحصول على الجاه والمال. أما النِّعَم الأخروية فالمغفرة والرضى عنه ومنزلته في الآخرة.

وإن كانت هذه النعم تَفَضُّلاً من الله عز وجل على خلقه، فإنه طلب منهم عبادته وشكره على نعمائه، قال تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»([5]).

وكان للبَشَرِ ولا زال ثلاثة مواقف مختلفة من هذه النعم فصَّلها القرآن الكريم في كثير من آياته، وهذه المواقف هي:

موقف الكافرين:

وقد جاءت هذه النعم لهم كوسيلة توصلهم إلى معرفة الخالق وعبادته، فمنهم من جهل النعمة

(١) سورة سبأ الآية ١٦

(٢) الفيروز ابادي، القاموس المحيط جـ٤ «مادة عرم»، الزبيدي، تاج العروس جـ٨: عرم

(٣) سورة النحل الآية ١٨

(٤) تفسير ابي السعود جـ١ ص ٣٠

(٥) الذاريات آية ٥٦

والمنعم، ومنهم من عرف النعمة وجهل المنعم، وفي الحالتين استحقُّوا العذاب والهلاك. ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة بهم وإقامة الحجة عليهم بعث رسلاً يُنذرونهم و يذَكّرونهم بنعم الله و يدعونهم إلى عبادته وحده. ومن هؤلاء الأقوام الذين وردت أخبارهم في القرآن:

قوم عاد: كما جاء في قوله تعالى على لسان هود: «فاتَّقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون، أمدّكم بأنعامٍ و بنين، وجناتٍ وعيون»(١).

وقوم ثمود: كما جاء في القرآن قول صالح لقومه: «أتُترَكون في ما هاهنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخلٍ طلعها هضيم، وتنحِتون من الجبال بيوتاً فارهين، فاتقوا الله وأطيعون»(٢).

وفرعون وقومه: كما في القرآن الكريم على لسان موسى: «وقال موسى ربّنا إنك أتيت فرعون وملاءه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربّنا اطمس على أموالِهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يُرَوا العذاب الأليم»(٣).

وكان عقاب هؤلاء ــ نتيجة إصرارهم على الكفر وجحودِهم النعم وتكذيبهم الرسل ــ الهلاك الجماعي لهم ولأموالهم ولم ينجُ منهم إلا من آمن مع الرسل.

موقف الجاحدين:

وهؤلاء عرفوا النعمة والمنعم ولكنهم جحدوا النعمة ونسوا المنعم أو نسبوا النعمة لغير الله أو نسبوها لأنفسهم، وقد جمعت هؤلاء الآية «يعرفون نعمةَ اللهِ ثم يُنْكِرونها وأكثرُهم الكافرون»(٤).

ومن الذين نسوا نعم الله بنوا اسرائيل كما جاء في قوله تعالى: «يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمتُ عليكم وأفوا بعهدي أُوفِ بعهدِكم وإيّايَ فارهبون»(٥).

ومنهم أيضا: قارون ــ الذي نَسَب النعمة إلى نفسه قال: «قال إنما أُوتيته على علم عندي أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون مَنْ هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون»(٦).

ومنهم كذلك أهل القرية التي ضُربت مثلا كما حدّثنا القرآن: «وضرب الله مثلا قريةً كانت آمنة يأتيها رزقُها رغدا من كل مكانٍ فكفرت بأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»(٧).

(١) سورة الشعراء الآيات ١٣١ ــ ١٣٤
(٢) الشعراء الآيات ١٤٦ ــ ١٥٠
(٣) سورة يونس الآية ٨٨
(٤) النحل الآية ٨٣
(٥) سورة البقرة الآية ٤٠
(٦) سورة القصص الآية ٧٨
(٧) سورة النحل الآية ١١٢

ومن الجاحدين لنعم الله سبأ: «لقد كان لسبأ في مَسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكل خَمْطٍ وأثْلٍ وشيء من سدر قليل» (١).

وعقاب الجاحدين بنعم الله تنوع حسب ما اقتضته الحكمة الآلهية كما سنُفَصّله في الفصل القادم إن شاء الله.

موقف المؤمنين من نعم الله:

وهؤلاء عرفوا النعمة وعرفوا المنعم بها، فشكروا الله على تلك النعم وحمدوه، فأدامها الله عليهم. وفي القرآن الكريم شواهد من تلك النعم على داود وسليمان (عليهما السلام).

فقد أُوتي داود (عليه السلام) صوتا جميلا ردّدته معه الجبال والطير، كما أن الله سبحانه وتعالى سهّل له تشكيل وتصنيع الحديد بعد أن ألانه له. أما سليمان (عليه السلام) فقد أتاه الله أفضالا كثيرة: كتسخير الريح والجن لقضاء مصلحة يدركها سليمان ويحققها بأمر الله.

وقد عرف داود وسليمان هذه النعم وقدّراها وفي هذا يقول الله عز وجل: «اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور» (٢)

وشُكْرُ الله عِلى نعمته من أركان الإيمان، ولهذا جاءت آياتُ النعم في القرآن متلوّة بآيات تحث المؤمنين على الشُكر: «ياأيها الذين آمنوا كُلُوا من طيباتِ ما رَزَقنا كُم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبُدون» (٣).

والسُّدُودُ ــ سواء أكانت حاجزاً لِصَدّ الأعداء أو حاجزاً لِمَنْع الماء ــ من النعم التي أنعمها الله على عباده فهداهم إلى عملها وقدّرهم على بنائها. وكما تنوعت المواقف البشرية من نعم الله عموماً، تنوع الموقف بالنسبة لنعمة السُّدود.

فمنهم من عرف النعمة في السُّدود كذي القرنين الذي قال: «هذا رحمةٌ من ربي فإذا جاء وعْدُ ربي جعله دكاء وَكان وعد ربي حقا» (٤).

أما سبأ فقد جحدوا نعمة الله التي قامت على السَدّ وهي: الجنتان اللتان كانتا لهم آية. فهل كان السبئيون من زمرة الأقوام الذين كانوا على معرفةٍ بالخالق، فاستحقُّوا العقاب لأنهم أنكروا نِعَمَ الله عليهم؟ و بعبارةٍ أخرى: ماذا كانت عقيدة السبئيين عندما عاقبهم الله بسيل العرم الذي خرّب سدّ مأرب؟ ذلك هوموضوع فصلنا التالي:

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٥، ١٦

(٢) سبأ الآية ١٣

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٢

(٤) سورة الكهف الآية ٩٨

خريطة رقم (٢)
رحلات ذي القرنين ومكان السد [١]



(١) مجلة العربي العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤

الفصل الثاني
مفاهيم السبئيين الدينية

العقابُ المُستَحقُّ من لدن حكيمٍ خبيرٍ لمنكري نعمائه هو سلبُهم تلك النعم. وإن كان موضوع دراستنا عن سبأ وعقابهم فإن القرآن الكريم يتضمّن قصص أفراد وجماعات جحدوا نعمة الله فسُلِبت تلك النعم منهم.

ففي سورة الكهف(1) وردت قصة الرجل صاحب الجنتين الذي كان يفخر على صاحبه بكثرة أمواله وأولاده وزروعه بقول «أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفرا». وكان قد قاد صاحبه ليريه إحدى جنتيه وملء نفسه البطر وقال «ما أظن أن تبيد هذه ابدا».

لقد غرق ذلك الرجل في النعمة فنسي الله المنعم عليه ونسي أن يشكره، فكان عقابه من الله عزّ وجلّ سلب النعمة منه بإهلاك جنتيه اللتين كانتا موضع فخره، فندم ولات حين مندم، قال تعالى «وأُحيط بثمره فأصبح يُقلِّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها و يقول ياليتني لم أُشرِك بربيّ أحدا»(2).

وفي سورة القلم(3) قصةٌ أخرى كهذه: إنها قصة أصحاب الجنة الذين بطروا النعمة وسعوا لِمَنْع الخير عن المساكين، فقد بيّتوا أمرهم على أن يقطفوا ثمارها في الصباح الباكر دون إبقاء شيء للمساكين الذين اعتادوا على أخذ نصيبهم منها. فكان جزاء مُكرهم و بطرهم ومنعِهم الخير أن أذهب الله عزّ وجلّ تلك الجنة وثمارها: «إنّا بَلَوْناهم كما بلونا أَصحاب الجنة إذ أَقسموا لَيصْرِمُنَّها مصبحين، ولا يستثنون، فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون، فأصبحت كالصَّريم»(4).

وعندما رأوا مآل جنتهم أخذوا يتلاومون، واعترفوا بخطئهم، فسألوا الله المغفرة وتعويضهم عن جنتهم كما جاء في القرآن الكريم: «فأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون، قالوا ياويلنا إنّا كنا طاغين، عسى ربُّنا أن يبدِلَنا خيرا منها إنا إلى ربّنا راغبون»(5).

---

(1) الآيات ٣٢ — ٤٢

(2) الكهف الآية ٤٢

(3) ١٧ — ٣٢

(4) القلم الآيات ١٧ — ٢٠

(5) القلم الآيات ٣٠ — ٣٢

قصة سبأ في القرآن الكريم:

وتشبه قصة سبأ القصتين السابقتين في نوع النعّمة وهي الجنان، وفي المواقف من تلك النعم ثم النتيجة التي ترتَّبت على تلك المواقف.

ولمّا كانت قصة سبأ تهمنا في موضوع دراستنا «سد مأرب» من حيث ان سبأ هم أصحاب السد وجنتيهم كانتا قائمتين على ذلك السد، فإننا سندرس قصتهم التي وردت في القرآن الكريم بالتفصيل:

قال تعالى «لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهم آية جنتان عن يمينٍ وشمالٍ كلوا من رِزْق ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ و بدّلناهم بجنتيهم جنتين ذَواتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سدْرٍ قليل، ذلك جزيناهم بما كَفروا وهل نجازي إلا الكَفور»(١).

مساكن سبأ:

رأينا في الباب الأول أن المقصود بسبأ: مجموعة القبائل التي ترجع في نسبها إلى سبأ بن يشجب. وهؤلاء ــعمومــ كانوا يقطنون في جنوب الجزيرة العربية. إلا أن المقصود في الآية الكريمة مجموعة السبئيين الذين كانوا في مأرب وما حولها وهم المستفيدون من سد مأرب آنذاك.

جنتا سبأ آيةٌ لهم:

لقد أنعم الله على أهل مأرب بجنتين تمتدّان على يمين وادي إذنة وشماله سُمِّيتا فيما بعد بالجنة اليمني والجنة اليسرى. وكانت الجنتان تقيان من مياه سدّ أُقيم عند نهاية جبل بَلَق عُرف بـــ«سد مأرب». وجعل الله من تِلْكما الجنتين لسبأ علامة دالّة على قُدرته ورزقاً دائماً يُذكِّرهم بنعمته.

والسؤال: لم اعتبرت جنتا سبأ آية في حين أن أراضي مصر والعراق كان بها من الجنان والبساتين أكثر ممّا في مأرب؟

لاشك أن وضع جنتي سبأ يختلف عن غيرها من حيث:

١ــ بساتين سبأ كانت متصلة مع بعضها حتى انها تبدو كبستان واحد(٢).
٢ــ ثم إن بساتين سبأ كانت في أرض صحراو ية لا مطر عليها ولا نهر بها، وإنما كانت تقوم على سد تتجمع أمامه المياه التي تأتي من مسافات بعيدة.
٣ــ بالإضافة إلى أن كميات الإنتاج لمحاصيل تلكما الجنتين كانت ضخمة بسبب توفر المياه

---

(١) سورة سبأ الآيات ١٥ــ١٧
(٢) الزمخشري، الكشاف جـ٣ تفسير سورة سبأ

و بكورة الأ رض ، فقد ذكر المفسرون(١) أن المرأة كانت تدخل البستان وعلى رأسها المكتل فيمتلئُ من أنواع الفواكه من غير أن تَمَسَّها بيدها . وليس في هذا مبالغة إذا ما عرفنا أن الله ــسبحانه وتعالى ــ جعل الجنتين آية لسبأ .

الاستمتاع برزق الله والشكرُ له :

« كلوا من رزق ربكم واشكروا له » وقد اختلف المفسرون فيمن قال لسبأ ذلك ، ففي تفسير القرطبي(٢) انه لم يكن ثمّة أمر وإنما تمكنوا من تلك النعم . أما في التفسير الكبير(٣) المسمى « بالبحر المحيط » وفي « فتح القدير »(٤) فإنهم خوطبوا على لسان أنبيائهم المبعوثين لهم . وفي تفسير الدرر المنثور(٥) ان الذي قال لهم ذلك ناسٌ من النصارى .

ولم يرد في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف ذكرٌ لرُسِلِ سبأ . إلا أن الهمداني(٦) ذكر بعض رسل اليمن فقال :

« منهم صالح بن الهميسع بن ذي ماذن(٧) وعمرو بن الحجر بن عمرو ميزيقيا وريّان بن زيد ابن عمرو بن معاوية » .

وفي دار الكتب المصرية مخطوط(٨) مجهول المؤلف بعنوان « نَشرُ المحاسن اليمانية في خصائص ونسب القحطانية » فيه ذكر بعض أنبياء اليمن منهم : حنظلة بن صفوان بن الحارث بن قحطان ، وصالح ذي رعين ، وشعيب حضور الذي بعثه الله إلى قومه من حضور فكذَّبوه وقتلوه وقبره في رأس جبل حضور من جبال اليمن .

وليس لنا أن نشكَّ في أمر رسل سبأ لعدم ورود نصٍ بهم ، فما كلُّ الأنبياء وردت قصصهم في القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص »(٩) الآية .

وورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن الله بعث رسلاً في اليمن وذلك في الآية : « وأصحابُ الأ يكةِ وقومُ تبعٍ كلٌّ كذب الرسل فحقّ وعيد »(١٠) ، والمعروف أن التبابعة كانوا في اليمن .

وعلى أي حال ، فقد طُلب من سبأ أن يستمتعوا بنعم الله التي أفاضها عليهم ، وان يشكروا الله صاحب الفضل عليهم : فقد وهبهم أرضاً طيبة خصبة ووعدهم بالعفو والمَغفِرة إن هم تابوا وأنابوا

(١) تفسير القرطبي جـ رقم ٥٩ « سورة سبأ » ، الشوكاني ، فتح القدير جـ٤ ص ٣٢٠
(٢) المرجع السابق ، الجزء والسورة
(٣) اثير الدين الغرناطي جـ٧ ص ٢٦٨
(٤) الشوكاني جـ٤ ص ٣٢٠
(٥) جلال الدين السيوطي جـ٥ ص ٢٣٢
(٦) الإكليل جـ٢ ص ٢٩٠
(٧) قبر صالح معروف في شمال غرب صنعاء
(٨) رقم ٢٠٨٣
(٩) سورة المؤمن (غافر) الآية ٧٨
(١٠) سورة ق الآية ١٤

وشكروا. وحول طيبة أرضهم وغفران ذنوبهم يقول القرطبي: «جمع الله لسبأ مغفرةَ ذنوبهم وطيبَ بلدهم ولم يَجْمَعْ ذلك لجميع خَلْقِه»(١).

عقاب سبأ:

أعرض السبئيون عن شكر الله فيما أنعم عليهم، فكان جزاؤهم سلبهم سبب تلك النعمة، فقد أرسل الله سيلاً جارفاً سدَّ مأرب الذي كان يسقي أراضيهم، فأمست جنتاهم صحراء قاحلة تتناثر بها أشجارٌ برّيةٌ مرّةُ المذاق لا خير فيها ولا فائدة منها.

وتبدو أراضي مأرب اليوم كما وصفها الله تعالى في مُحْكَمِ تنزيله منذ أربعة عشر قرنا، فأراضي الجنتين غطيت برمال ناعمة حَمَلتها إليها رياحُ السموم، وتُطل من بين هذه الأتربة شجيراتُ الأراك بلونها الأخضر وسيقانها القصيرة وفروعها الكثيرة بالإضافة إلى شجر الأثل ذي الأوراق الصغيرة والأغصان البارزة. أما السدر فنسبته قليلة إذا ما قيس بأشجار الأراك والأثل مصداقا لقوله تعالى «وشيءٍ من سدرٍ قليل».

لقد كان ذهاب جنتي سبأ كذهاب جنتي الرجل الذي ضر به الله ـ عزّ وجلّ ـ مثلا، وكذلك كان مآل جنة الجماعة الذين ابتلاهم الله بها ـ كلها كانت جناناً وافرة الثمار غدت بين ليلة وضحاها كأن لم تكن.

وفي قصص أصحاب هذه الجنان، والعقاب الذي استحقوه ـ عظةٌ وعبرةٌ لمنكري نعم الله في كل زمان ومكان.

عقاب الكفّار بالله غير عقاب كفار نعم الله:

يهمنا في دراستنا الدينية والتاريخية لسد مأرب أن نعرف عقيدة السبئيين في فترة خراب سد مأرب وذهاب جنتيهم: هل كانوا كفاراً بالله و بنعمته أم كانوا على عِلْمٍ بالخالق كفارا بنعمائه فقط؟

ذلك أن الكُفْر بالله غير الكُفْرِ بنعم الله، فالأول كفرٌ أكبر يخْرِجُ من المِلّة، والثاني كفر أصغر لايُخرِجُ من المِلّة(٢) وفي القرآن الكريم عقابٌ لهؤلاء وهؤلاء: فعاد وثمود وقومُ نوح وفرعونُ وقومُه وأصحابُ الأيكةِ وقومُ لوط ـ كانوا كُفّاراً بالله و بنعمته فجاء عقابهم بهلاكهم عن بكرة أبيهم إلا من آمن.

أما الكفار بنعم الله فقد جاء عقابهم بسلب النعمة الالهية التي كفروا بها.

وهذا التّبَايُن في العقاب تُفَسّرُ لنا سَبَبَهُ آياتُ القرآن الكريم:

---

(١) تفسير القرطبي جـ رقم ٥٩ «تفسير سورة سبأ»

(٢) مجموعة التوحيد، محمد بن عبدالوهاب ص ٣٤٨، ٣٤٩، مكتبة الرياض الحديثة.

فالكفار بالله كانوا يجهلون أن لهم خالقا، فبعث الله رسله مبشرين ومنذرين وداعين لعبادته. إلا ان أولئك الكفار أصرُّوا على كفرهم وأنكروا خالقهم فحاق بهم العذاب الشديد:

ففرعون مثلا كان لايعلم الخالق –عزّ وجل– فهو يخاطِب قومه كما جاء في القرآن: «وقال فرعون ياأيها الملأ ما عَلِمْتُ لكم من إله غيري، فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلّي اطّلع إلى إله موسى وإني لأظنُّه من الكاذبين»(١).

وقوم عاد كانوا يجهلون خالقهم فخاطبهم هود (عليه السلام) «وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون»(٢).

وكذلك قوم إبراهيم كانوا لايعرفون أن لهم خالقا غير أصنامهم كما جاء في القرآن على لسان ابراهيم (عليه السلام) «قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربُّكم ربُّ السموات والأرض الذي فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين»(٣).

وهكذا كان حال بقية الأقوام الذين وردت قصصهم في القرآن الكريم، عذّبهم الله عذاباً شديدا بعد ان بعث لهم رسلاً يعرفونهم بالخالق و يدعونهم لعيادته فأصرُّوا على الكفر.

أما الكفار بنعم الله فقد كانوا على علمٍ بالله الخالق، وإنما استحقُّوا العقاب لأنهم لم يعبدوه حقَّ عبادته، ولم يشكروه على نعمائه، فعبادته تعالى لا تَتِمُّ إلا بالشكر له كما قال سبحانه: (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون»(٤).

وقد أوضحت الآيات التي ذكرت قصص كفّار النعمة أنهم كانوا على معرفة بالله ففي قوله تعالى: «ومنهم من عاهدَ الله لئن أتانا من فضْلِه لَنصَّدَّقَنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخِلوا به وتولّوا وهم معرضون»(٥) إشارةٌ إلى قصة ثعلبة بن حاطب أحد منكري نعم الله(٦) فقد أتى ثعلبةُ الرسولَ (عليه السلام) وقال: يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا. فقال عليه السلام: ياثعلبة قليلٌ تؤدي حقَّه خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقه. فراجعه وقال: والذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالا لأعطيَن كلَّ ذي حقٍ حقه. فدعا له الرسول، فكثُرت أموالُه وماشيته حتى ضاقت بها شعابُ المدينة.

إلا أن ثعلبة إزاء النعم هذه، أعرض عن طاعة الله ومنع الصدقة من أمواله وقال: ما هذه (أي الصدقة) إلا أخت الجزية، فنزلت الآية بحقّ ثعلبة.

(١) سورة القصص الآية ٣٨

(٢) سورة هود الآية ٥٠

(٣) سورة الأنبياء الآيات ٥٤–٥٦

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٢

(٥) سورة التوبة الآيتان ٧٥، ٧٦

(٦) تفسير ابي السعود جـ٢ ص ٥٨٠

وواضح من هذه القصة أن ثعلبة كان يعرف الله الخالق: فهويعاهد الله، و يطلب من الرسول ان يدعو الله له بالرزق، و يعرف ان الله بعث الرسول. لكنّه أنكر نعمة الله و بالتالي أعرض عن طاعته.

وكذلك أصحاب الجنة الذين ابتلاهم الله بها، كانوا يعلمون أن الله هو الخالق، إلا أنهم أنكروا نعمته عليهم و بخلوا بها، والدليل على معرفتهم بالخالق قوله تعالى: (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسبِّحون، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قالوا ياو يلنا إنا كنا طاغين، عسى ربُّنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربِّنا راغبون»([1]).

وقصة سبأ تشابه قصص هؤلاء من حيث النعم التي أنعمها الله عليهم ونكرانهم لتلك النعم والعقاب الذي ترتب على كفرهم بالنعمة وهو سلبها. فهل كان قوم سبأ أيضا على علم بالخالق كغيرهم من كفّار النعم؟

من الآيات القرآنية التي ذكرت قصة سبأ والآيات التي سبقتها يُمكننا التأكيد على أن قوم سبأ كانوا على علم بالخالق عزوجل كما سنبين فيما يلي:

أولا: في سورة سبأ قصتان مُتقابلتان هما قصة آل داود الشاكرين لله على نعمائه، وقصة سبأ الجاحدين لنعم الله. والقصتان تدوران حول الموقف من نعم الله. فآل داود عرفوا الله المنعم وعبدوه وشكروه على نعمته كما خبّرنا بذلك القرآن: «يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسيات، اعملوا آل داود شكرا وقليلٌ من عبادي الشكور»([2]) وفي مكان آخر قوله تعالى: «فتبسم ضاحكا من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين»([3]).

أما سبأ فقد عرفوا الله المنعم ولكنهم لم يعبدوه ولم يشكروه بل جحدوا وأنكروا نعمه، فمعرفتهم بالله تُفهم من مقابلة قصتهم مع قصة آل داود. فآل داود من أنبياء الله الذين اختارهم من بين خلقِه ليُبلّغوا رسالته. وهم أسمى من أن يُقارن أو يُقابل بين موقفهم من نعم الله و بين موقفِ كافرين بالله، لأن الكافر بالله لا يعرف الله أصلا فضلا عن نعمته. فالأقرب للمقصود في القصتين أن سبأ كانوا يعرفون الخالق، فيكون التباينُ بين القصتين في الموقف الذي قوبلت به نعمُ الله: آل داود شكروا، وقوم سبأ جحدوا.

ثانيا: ومما يشير إلى معرفة سبأ بالخالق، قوله تعالى: «كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور»، فهذا الخطاب الموجه لسبأ بالأكل من رزق ربهم والشكر لله يدلّ على

---

(١) سورة القلم الآيات ٢٨ ـــ ٣٢

(٢) سورة سبأ الآية ١٣

(٣) سورة النمل الآية ١٩

عِلْمِهم بالخالق، فلو لم يكونوا على معرفةٍ بالله لما طُلب منهم الشكر لله على نعمائه قبل أن يعرفوا الله المنعم، إذ كيف يُطلب منهم الشكرُ لِمَن لا يعرفونه!! ففي هذه الحالة تكون دعوتهم للإيمان بالله أولى.

وقد خوطب المسلمون في عهد الرسول عليه السلام بهذا المعنى: دعوتهم للأكل من رزق الله والشكر له كما جاء في القرآن: «والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فإذا وجبَت جنوبها فكلوا منها وأطعِموا القانع والمعترَّ كذلك سخرناها لكم لعلّكم تشكرون»(١).

فهذه دعوةٌ للمسلمين للأكل من رزق الله والشكر له، وهي كدعوة أهل سبأ للأكل من رزق الله والشكر له. ولا شك أن المسلمين كانوا على معرفة بالله عند نزول الآية، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن سبأ كانوا على معرفة بالله كذلك.

ثالثا: والآية التي أكدت لنا معرفة قوم سبأ لله عز وجل هي: «فقالوا ربَّنا باعِد بين أسفارِنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبار شكور»(٢).

فقولهم: «ربنا» إشارة واضحة إلى معرفتهم بالله. يقول الشوكاني في تفسيره(٣) «سألوا الله تعالى أن يجعل بينهم و بين الشام ـ مكان القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن ـ القفار والبراري المتباعدة، فكانت دعوتُهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا «ادع لنا ربّك يُخرجُ لنا مما تُنبتُ الأ رضُ من بقلها..» الآية(٤) مكان المنّ والسلوى»، و يرى الزمخشري(٥) أن قولهم (ربنا) دعاء وتمن بأن يجعل الله بينهم و بين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها.

والدعاء لله عزّ وجلّ لايكون إلا ممن عرفه وعرف قدرته، وهذا ما يؤكد أن سبأ كانوا على علم بالخالق في تلك الفترة وهي فترة خراب سد مأرب بفعل سيل العرم.

إذن الآيات التي ذكرت قصة سبأ فيها أكثر من دليل على أنهم كانوا على معرفة بالخالق في فترة ازدهار جنتيهم وحين خرابهما بسيل العرم الذي حطّم سد مأرب. ومعرفتهم بالخالق لم تَمْنَع عنهم العقاب المستحق بسبب كفرانهم لنعم الله وتقصيرهم في الشكر له.

وترانا أولينا عنايتنا بمعرفة عقيدة السبئيين في هذه الفترة لما لها من أهمية في دراستنا الدينية

---

(١) سورة الحج الآية ٣٦.

(٢) سورة سبأ الآية ١٩

(٣) فتح القدير جـ٤ ص ٣٢٢

(٤) سورة البقرة الآية ٦١

(٥) الكشاف جـ٣ تفسير سورة «سبأ»

والتاريخية لسد مأرب وخاصة فيما يتعلق بتحديد تأريخ حدوث سيل العرم كما سنرى في دراستنا التاريخية.

وإن كان القرآن الكريم أشار إلى عقيدة التوحيد عند السبئيين في هذه الفترة، فإنه أشار في مكان آخر إلى أنهم كانوا يعبدون الشمس، ثم أسلموا مع سليمان لله ربِّ العالمين. كما أشارت النصوص السبئية التي عُثر عليها إلى معبود آخر للسبئيين هو المقه (القمر) وهذا يعني أن السبئيين عبدوا آلهةً متعددة طوال تاريخهم وسنبحث في مراحل الديانة السبئية في الفصل التالي إن شاء الله.



الفصل الثالث

مراحل الديانة السبئية

المرحلة الأولى: فترة التوحيد الأولى:

نبدأ بسبأ بن يشجب مؤسس الدولة السبئية ومَنْ ترجع إليه القبائلُ اليمنيةُ في أصول أنسابها، ما ديانتُه؟

كثير من مؤرخي العرب يقولون ان سبأ بن يشجب أولُ مَنْ عَبَدَ الشمس ولهذا سُمِّي بـ «عبد شمس» غير أن هناك من الأسباب ما يثير الشك في صحة هذا القول، بل تقود إلى الترجيح بأن سبأ بن يشجب كان موحداً بالله وليس عابداً للشمس. ومن هذه الأسباب:

١ ـ ان سبأ من أحفاد هود القريبين[1]، فهوسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود (عليه السلام)، ونعلم من القرآن الكريم ان الله أهلك قومَ عاد ولم يُبق منهم إلا هوداً والذين آمنوا معه.

والسؤال: هل يضِلُّ أحد أحفاد هود بهذه السرعة و يعبد الشمس بعد ذلك العقاب الشديد لقوم عاد؟

لقد كان عقابُ قوم عاد وثمود وقوم لوط رهيباً لدرجة أن كفّار قريش وقعوا سُجّدا[2](عندما) قرأعليهم الرسول (عليه السلام) «سورة النجم» وفي نهايتها ذِكْرُ هلاك هذه الأقوام.

فإذا كان هذا حال قريش الذين تَفْصِلُهم عن تلك الأقوام قرون طويلة، فكيف بسبأ الذي هو أقرب بكثيرمن زمن هلاك عاد، إضافة إلى كونه ابن نبي!!

إن هذا التساؤل ليجعلنا نتردَّدُ في قبول الأقوال التي اعتبرت سبأ أول من بدأ عبادة الشمس.

٢ ـ ثم يأتي ياقوت الحموي لينقلنا من التَّردُّد إلى الشك في عبادة سبأ للشمس: يقول ياقوت[3] وكان يُقال له (لسبأ) من حُسْنِه عِبّ شمس، مثل عب الشمس وقال أبوعمرو بن العلاء: عب شمس أصله حب الشمس. وقال ابن الأعرابي: هو عبءُ شمس بالهمزة، والعبء: العدل أي هو عدْلها ونظيرها. (انتهى).

---

(١) قصيدة نشوان الحميري ص ١٥

(٢) حياة محمد، محمد حسين هيكل ص ١٦١

(٣) معجم البلدان جـ٣ ص ٢٧

وواضح مما قاله ياقوت ان اسم سبأ : عبء شمس وليس عبد شمس . وإذا علمنا أن ياقوت نقل هذا عن عمرو بن العلاء وابن الأعرابي (وهما من أشهر اللغويين كما هو معروف) يصبح لقب سبأ بعبد شمس أمراً مشكوكاً في صحته ، و بالتالي فإن القول : سمي بعبد شمس لأنه أول من عبد الشمس يصبح موضع نظر من جديد .

٣ــ والنصوص السبئية التي بين أيدينا تسمي الشمس (ذات نكرح) و(ذات حميم) ، ولم يرد في نصوص المسند لفظة (الشمس) وهذا يوصلنا إلى القول بأن لقب «عبد شمس» أطلقه الرواة على سبأ في وقت متأخر ، ثم فُسِّر بعد ذلك على أنه سمي بهذا الإسم لأنه عبد الشمس .

٤ــ وفي قصيدة نشوان الحميري تناقضٌ حول ديانة سبأ : ففي بداية الشرح عن سبأ بن يشجب : «كان ملكا عظيما ، واسمه عامر ، وكان يعبد الشمس فسمي عبد شمس»(١) .

وفي مكان آخر من شرح القصيدة ترد عبارات يفهم منها أنه كان مؤمنا ، منها : «وكان كلما قتل أمة سبى ذراريهم ، فسمُي سبأ ولم يُعرف قبله السبي ، وإنما أحلّ الله له ذلك لأنهم نكثوا وغدروا و بدّلوا الشريعة»(٢) .

و يُفهم من هذه العبارة أن سبأ كان يقاتل (في سبيل الله) الاعداء الذين بدّلوا الشريعة .

وإذا ما قرأنا رثاء حمير بن سبأ لأ بيه فلا شك أن ذلك الرثاء ــ إن صح نسبته لحمير ــ يؤكد أنّ سبأ كان مؤمنا خالصا على سنة جده هود :

يقول حمير في رثاء أبيه سبأ :(٣)

عَجِبْتُ ليومك ماذا فعل	وسلطان عزِّك كيف انتقل
....	....
فلم يبق من ذاك غير التقى	وذاك لَعَمْري أبقى العمل
وأحكمتَ من هود المحكمات	وآمنت من قبله بالرُّسُل

هذه جملة الأسباب التي جعلتنا نَشُكّ في أن سبأ كان يعبد الشمس ، وهي التي دفعتنا إلى أن نُرجّح بأن الرجل كان مؤمنا وان كان هذا الترجيح لا يوصلنا إلى اليقين ، فلم يُعثر على نص بعد ، يؤكد ديانة سبأ بن يشجب .

وعلى أي حال ، فلأن نَصِفَ الرجل بالإيمان وهو كافر أسلمُ لنا ــ عندالله ــ من أن نَصِفَه بالكفر وهو مؤمن ، لإنه في الحالة الأ ولى ظنٌ بالخير ، وفي الثانية تَجَنٍ ، والظَنُّ بالخير أولى ، قال الغزالي :

قد كان ما كان مما لستُ أذكره	فَظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

(١) قصيدة نشوان ص ١٠

(٢) المصدر السابق ص ١١

(٣) نفسه ص ١٤

المرحلة الثانية: فترة عبادة الشمس:

ونحن على يقينٍ من عبادة السبئيين للشمس في فترة ما من تاريخهم كما نص على ذلك القرآن الكريم في قصة سليمان وملكة سبأ في سورة النمل(١): «وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لايهتدون».

وإن كنا نعلم نهاية عبادة الشمس (في هذه المرحلة) بإسلام ملكة سبأ، فإننا لانعلم بالتأكيد متى بدأت.

فلو أخذنا بأقوال المؤرخين الذين يرون أن سبأ أولُ من عبد الشمس، فإن الأمر يهون، إذ نقول إن ملوك سبأ الذين تولوا بعد سبأ بن يشجب توارثوا هذه الديانة عنه.

لكننا إذا اعتبرنا سبأ بن يشجب موحدا، فإن ذلك الاعتبار يدفعنا إلى البحث عن كيفية دخول عبادة الشمس إلى بلاد سبأ.

ولابد أن تكون هذه الديانة قد دخلت سبأ عن طريق الغزوات والحروب أوعن طريق التجارة.

فغزوات سبأ بن يشجب المتكررة للعراق ومصر ــ كما تذكر كتب التاريخ ــ أدّت إلى اتصال جيش سبأ بسكان تلك الأقاليم الذين كانوا يعبدون الشمس. فربما تأثروا بتلك الديانة بعد وفاة سبأ بن يشجب واستزلّهم الشيطان فعبدوا الشمس.

وإذا قيل: لِمَ تأثر الجيش السبئي بديانة المغلوبين على أمرهم، في حين أن ابن خلدون يقول: المغلوبُ مولعٌ ابداً بتقليد الغالب؟!

نقول: ان عبارة ابن خلدون هذه، إن كانت تنطبق على العادات والتقاليد واللغة فإنها لا تنطبق على العقيدة، وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة:

فالمناذرة الذين تَبِعوا الفرس أخذوا عنهم عاداتهم وتكلّموا بلغتهم ولكنّهم خالفوهم في الدين واعتنقوا النصرانية لا المجوسية ــ ديانة الفرس.

والغساسنة الذين اعتنقوا النصرانية ــ ديانة الرومان ــ خالفوهم في المذهب واتبعوا الكنيسة المنوفيزية(٢).

وفي التاريخ المعاصر أمثلة على ذلك أيضا:

ففرنسا اقتطعت الجزائر من عالمها العربي وفرنست (إن صح لنا التعبير) الجزائريين في لغتهم

---

(١) الآية ٢٤

(٢) يعرف اصحابها (متبعوها) بأصحاب الطبيعة الواحدة، سميت فيما بعد «كنيسة اليمامة»

وعاداتهم، ولكنها لم تحول جزائرياً واحدا عن دينه، بل أكثر من ذلك فإن الدين كان العامل الأول الذي دعا الجزائريين إلى الالتفاف حول عبدالقادر الجزائري في كفاحه ضد فرنسا.

وإذا قيل كيف نُفسّر انتشار الإسلام في بلاد الفرس والروم وشمال افريقيا والأندلس في فترة الفتوحات الإسلامية؟

نقول: إن التعليمات لقادة المسلمين كانت مستمدة من الآية «لا إكراه في الدين»(١) فكان المسلمون يخيّرون سكان البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الجزية أو السيف. فمن اعتنق الإسلام في تلك الأمصار كان عن فَهْم واقتناع بأنه الدِّينُ الحق، و بأنه ليس للعرب فحسب، بل للبشرية جمعاء.

وقياسا على ما ذكرناه فإن كون السبئيين هم الغالبين لايمنع من تأثرهم بديانة المغلوبين.

أما التجارة فهي وسيلة أخرى يمكن ان تكون عبادة الشمس قد دخلت عن طريقها إلى اليمن: فشهرةُ سبأ اقترنت بالتجارة منذ القدم. والتجارة تتطلب الاتصال بالأمم الأخرى والتأثُّر أو التأثير بها. وقد كان السبئيون على اتصال بالفينقيين والأشوريين والبابليين والمصريين ــ الذين كانوا يعبدون الشمس. فلربما تأثّرَ السبئيون بديانة تلك الأقوام وظنوا أنهم لايجمعون على عبادة الشمس إلا أن يكونوا على حق، فقادهم ظنُّهم هذا إلى تقليدِ معاصريهم واتخاذ الشمس إلها.

وسواء أكان دخول عبادة الشمس إلى جنوب الجزيرة العربية عن طريق الحروب والغزوات أو عن طريق التجارة فإنه من الممكن القول: «إن عبادة الشمس لم تكن أصيلة عند السبئيين وإنما هي مستوردة من جيرانهم في الشمال:

أما كونها مستوردة فهو ما ذكرناه آنفا من نقلهم تلك العبادة من جيرانهم بالاتصال العسكري او بالاتصال التجاري.

وقولنا: انها ليست أصيلة أسبابه ما يلي:

١ــ أسلمت ملكة سبأ وقومها مع سليمان (عليه السلام) دون مقاومة سواء ممن رافق الملكة في زيارتها أو ممن بقي في بلاد اليمن، وهذا الانتقال من عقيدة إلى أخرى لم نعهده يتم بهذه السهولة، فعاد وثمود وأصحاب لوط وغيرهم عارضوا الدعوة إلى الإيمان بالله معارضة شديدة كلفتهم حياتهم. وماتت ديانة اخناتون الجديدة في مصر بموته وقاوم كفار قريش دعوة الرسول (عليه السلام) سِرّاً وجِهَارا.

فإذا قيل إن قوة جيش سليمان والامكانيات المتاحة له هي التي منعت السبئيين من معارضة إسلام الملكة واسلام من رافقها، نقول إن المؤابيين والعمونيين ــ جيران مملكة سبأ ــ

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

لم يُبدّلوا عقيدتهم رغم أنهم أكثرُ معرفة بعظمة مُلْكِ سليمان من السبئيين.

٢ـ ضل قوم سبأ بعد موت الملكة وارتدّوا عن الإسلام، ولكنهم لم يعودوا لعبادة الشمس بل عبدوا إلها جديدا هو المقه (القمر). فلو كانت عبادة الشمس أصيلة لديهم لعادوا لعبادتها، ولما بحثوا عن إله جديد يعبدونه.

المرحلة الثالثة: فترة الإسلام أو فترة التوحيد الثانية:

وهي مرحلة إسلام ملكة سبأ وقومها مع سليمان لله ربّ العالمين:

وإسلام ملكة سبأ قولها: «قالت ربِّ إني ظَلَمْتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله ربِّ العالمين»[١].

أما إسلام قومها فجاء على لسان سليمان: «قال يا أيها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين»[٢].

و يبدو ان فترة إسلام السبئيين هذه كانت فترةً قصيرة. فمملكة سبأ كانت معاصرةً لسليمان (عليه السلام) الذي حكم بين عامي (٩٦١ـ ٩٢٢ ق.م)[٣]، بينما نجدُ اسم (المقه) في نصوص مكارب سبأ الذين بدأ عهدُهم عام (٨٠٠ أو ٨٢٠ ق.م) وعلى هذا تكون فترة إيمان سبأ هذه لا تزيد على مئةٍ وخمسين عاما. وهذا ما يدعونا للتساؤل عن سبب قِصَرِ فترة الإيمان في هذه المرحلة (بعد أن ذاق السبئيون حلاوة الإيمان)، خاصة إذا ما قارناها بعبادة المقه التي استمرت أكثر من ألف عام؟!

لا يحضُرنا سببٌ لذلك إلا إذا اعتبرنا أن سبأ لم تَتَفَهَّمْ الإيمان على حقيقته، ذلك أن زيارة ملكة سبأ وحاشيتها لسليمان كانت قصيرة لم تُمكّنهم من معرفة العبادات والتعاليم التي تُعَمّرُ القلوب إيمانا وتزيد عقيدة التوحيد رسوخا في نفوس السبئيين وأفئدتهم. وإن صحَّ هذا السبب يكون حالُهم ـ في النكوصِ عن عقيدة التوحيدـ كحال بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى (عليه السلام) وعبدوا العجلَ لمّا غاب عنهم أربعين ليلة.

المرحلة الرابعة: فترة عبادة المقه والثالوث الكوكبي:

المقه (القمر)

لا تخلو النصوص السبئية المُكْتَشفة من ذكر (المقه) إلا في الحالات النادرة، و بالمقابل فإن المصادر الإسلامية ـ التي تعَرّضت لذكر معبودات العرب قبل الإسلامـ لم تُشِرْ إلى المقه إطلاقا

---

(١) سورة النمل الآية ٤٤

(٢) سورة النمل الآية ٣٨

(٣) و يندل فيليبس: كنوز مدينة بلقيس، تعريب عمر الديْروي ص ١٢٢

رغم أنه بقى أكثر من الف عام أكبر إله عرفته العربية الجنوبية في فترات إلحادهم وضلالهم.

وقد أجمع الباحثون في تاريخ جنوب الجزيرة على ان (المقه) هو القمر. ولكن لايُعرف حتى الآن ــ بالتأكيد ــ ما أصل التسمية بالمقه؟ ومن أين دخلت عبادته؟ ولماذا اتخذوه إلها؟

إلا ان الامعان في النصوص التي ذكرت المقه وتحليلها، إضافة إلى دراسة بيئة عرب الجنوب وصلاتهم مع غيرهم من الأمم، يمكن ان توصل الباحث إلى معلومات مفيدة عن سبب عبادة المقه في جنوب الجزيرة.

فيبدو أن هناك علاقة ما بين (المقه) وملكة سبأ. والذي دعانا إلى افتراض هذه العلاقة ما يلي:

١ــ المشهور ان اسم ملكة سبأ هو بلقيس، إلا أن لها إسما آخر أو لقبا تُعرف به هو (بلقمة)[١] وهناك تقارب بين لفظتي (المقه) و(بلقمه) كما يلاحظ، و يبدو هذا التقارب أكثر فأكثر إذا علمنا أن اللغة العربية فيها إبدال الباء ميما أو العكس كما في مكة و بكة. فربما تكون لفظة (المقه) تصحيف أو تبديل أو تخفيف للفظة (بلقمه).

٢ــ الاعتقاد السائد لدى سكان اليمن حتى اليوم هو جمال ملكة سبأ، فهي تشبه القمر بجمالها كما حدثني أحد سكان مأرب. فهل لهذا التشابه (في الجمال) أثر في لفت نظر السبئيين لعبادة القمر لاسيما وأن عبادته لم تبدأ إلا بعد وفاة الملكة المذكورة؟

٣ــ ومن الأسباب التي تدعونا إلى افتراض هذه العلاقة أيضا أن الملوك كانوا يُعبدون بعد موتهم في بعض الأوقات[٢] فلعلّ تقارب الأسماء أو تشابه الجمال بين القمر وملكة سبأ هو الذي دفع السبئيين إلى اتخاذ القمر إلها بعد وفاة ملكتهم.

وعلى أي حال، فإن هذا الافتراض لايمكن تأكيده في الوقت الراهن، فلا يوجد نص واحد يذكر ملكة سبأ أو يشير إلى الفترة الممتدة بين حكمها وحكم أول مكرب. وأملُنا لايزال معلقاً على اكتشاف نصوص جديدة تُبدِّد ظُلمةَ هذه الحقبة التي بدأت فيها بالتأكيد عبادة المقه.

ومن زاوية أخرى يمكن تفسير وتعليل عبادة السبئيين للمقه من البيئة نفسها، فالاقتصاد السبئي قام على التجارة أصلا، وهذه تتطلب التنقُّل والترحال باستمرار. ولما كان صفاء سُماء الجزيرة العربية يزيد من لسعة حرارة الشمس، أصبح من الأفضل للقوافل التجارية السفر بالليل. ولاشك أن القمر مؤنسُ الحادي، ومرشدُ التائه، ودليلُ المسافر في الليالي المقمرة، فلربما يكون هذا من الأسباب التي لفتت أنظار السبئيين خاصة وسكان جنوب الجزيرة عامة لأهمية المقه في حياتهم.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ٤٨٩

(٢) محمد مبروك نافع، العرب عصر ما قبل الاسلام ص ٩٩

و يظهر من النصوص السبئية أنهم كانوا يأملون من المقه الشيء الكثير، فهم يتوسّلون إليه عند الجدب، و يستشفونه لمرضاهم، كما كانوا يدعونه لنصرهم على أعدائهم. ومما يدلّ على تَغَلْغُلِ عبادة هذا الإله في نفوسهم أن أحدهم قدَّم قُربانا (للمقه) لإنه وَطيء زوجته وهي حائض كما ورد في النقش رقم (٣٧) من مجموعة النقوش التي نقلها أحمد شرف الدين(١).

وأمام هذا التقديس والعبادة للمقه كان لابدّ من إنشاء المعابد والهياكل له. وأشهر تلك المعابد التي لا تزال لها أطلال: معبدُ المقه في جنوب شرق مأرب والمسمى اليوم (مَحْرَمَ بلقيس)، والمعبدُ الكبير بصرواح الذي يُعتقد أنه أول معبد بني للمقه باعتبار أن صرواح العاصمة الأولى لمكارب سبأ، وقد بنى كلا المعبدين المكرب (يدع آل ذرح)(٢).

الثالوث الكوكبي:

والملاحظ على النصوص السبئية الأولى أنها تنفرد بذكر المقه دون غيره من الآلهة. أما النصوص التي تعود إلى أوائل فترة النزاع على السلطة (ملوك سبأ وذي ريدان) ففيها ذكر لآلهةٍ أخرى تصاحب المقه. و يستمر تَعَدُّدُ الآلهة في النصوص السبئية حتى ظهور عقيدة التوحيد ــ للمرة الثالثة ــ في عهد الدولة السبئية الثالثة كما سنُفَصِّلُ ذلك في المرحلة الخامسة.

ومن الآلهة التي شاركت المقه في الذكر: (ذاتُ حِمْ، ذات حَميم، وذات حِمَم) وكلها تعني الشمس(٣).

وكانت الشمس في الدرجة الثانية ــ بعد المقه ــ عند السبئيين، بينما كانت في المركز الأول عند المصريين والبابليين والكنعانيين، ويمكن أن نُرجع ذلك لعوامل جغرافية ومناخية:

فحضارات الأقوام السابقة كانت قائمة على الزراعة، وهذه تحتاج إلى مياه وحرارة، وما دامت المياه متوفرة في الأنهار المستديمة والأمطار الغزيرة، فلا ينقص نمو المزروعات إلا الحرارة التي تُستمدُّ من الشمس، ومن أجل هذا احتلت الشمس المركز الأول من بين معبودات أصحاب الحضارات الزراعية. و يؤيد هذا أن عبادة الشمس بدأت عند السبئيين بعد وقتٍ أثروا فيه من التجارة ثراءً مكّنهم من بناء السدود واحتراف الزراعة على نطاق واسع.

والآن بدا واضحا سِرُّ تأخر عبادة الشمس عن المقه عند السبئيين: ففي البداية كانت الدولة تجارية محضة فسادت عبادة المقه: كدليل ومرشد للقوافل، ولمّا عرفوا الزراعة فيما بعد دخلت عبادة الشمس بجانب المقه. ولأن التجارة هي الحرفة الرئيسية، حتى بعد معرفتهم للزراعة، بقي القمرُ يحتلّ المركز الرئيسي بين آلهتهم.

(١) تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٩٢

(٢) التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ٢٨٩

(٣) جواد علي، المفصل جـ٦ ص ٥٢

وإذا قيل إن السبئين اتخذوا الشمس إلهاً قبلها، نقول إن عبادتهم للشمس في الفترة السابقة جاءت تقليداً لجيراتهم في الشمال ولم تكن نابعةً من بيئتهم كما هو في الفترة التي نحن بصددها والتي استمرت بها عبادة الشمس فترة طويلة بجانب المقه والآلهة الأخرى.

ومن الآلهة التي تَرِدُ في النصوص السبئية بكثرة «عثتر» وهوفينوس عند اليونان، وعشتار عند البابليين وعشترت لدى الفنيقيين ــ ونعني به الكوكب المعروف بــ (الزُّهرة).

وقد ورد «عثتر» في نصوص سبئية أكثر من التي وردت بها الشمس، ولعل سبب ذلك ان الشمس تأتي بصيغة الأنثى في النصوص، بينما يأتي عثتر بصيغة الذكر، أو ربما يكون السبب: ان أشعة الشمس الحارة جعلت المقه وعثتر أحبَّ إلى نفوس السبئيين من الشمس.

ودراسة النصوص التي بين أيدينا تُبَيِّنُ أن عثتر كان إله التوسلات ــ إن صح التعبير ــ إذ تنتهي به النقوش في كثير من الأحيان. وفي معظم حالات التوسل هذه يسبق عثتر المقه عند الدعاء بحفظ الملوك والأموال.

ويرى مطهر الإرياني(١) ان ارتباط التوسلات السبئية بعثتر، لكونه له صفة العمومية لدى اليمنيين القدماء من ناحية وعلاقته بالسقي والمطر حسب اعتقادهم من ناحية أخرى.

وعلى ضوء ما ذكرناه عن المقه وذات حميم وعثتر: نرى أن السبئيين عبدوا العائلة الفلكية (أوما يسمى بالثالوث الكوكبي) ردحا طويلا من الزمن كغيرهم من الشعوب السامية(٢) والفرس(٣) إلا أن أهم ما يميز حضارة عرب الجنوب: احتلال القمر (المقه) المركز الأول في هذه العائلة.

المرحلة الخامسة: فترة التوحيد الثالثة:

وتبدأ هذه الفترة بعد عام (٣٧٥م) على وجه التأكيد، إذ يوجد لدينا نص يعود إلى عهد ثاران يهنعم وابنه ملك كرب (من ملوك الدولة السبئية الثالثة) يحمدان فيه المقه لأنه أجاب دعوتهم وحبس عنهم الأمطار حتى أتموا إصلاح السد(٤). والابن ملك كرب يهامن هو أول من تجاهل ذكر المقه وتقرَّب إلى إله جديد هو الإله (ذ سموى) أي الإله ربّ السماء(٥).

ولاشك أن ظهور هذه العقيدة الجديدة كان بتأثير النصرانية واليهودية اللتين دخلتا الجزيرة العربية في أوقات مختلفة و بطرق متعددة.

---

(١) في تاريخ اليمن، ص ١٠، ١١

(٢) جواد علي، المفصل جـ٦ ص ١٦٦

(٣) أ.ج. ايفانز: هيرودوت (ترجمة امين سلامة) ص ٥٩

(٤) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٧٨

(٥) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٥٦٧

أولا: اليهودية:

يرى فؤاد حمزه[1] ان لليهود ثلاثة أدوار مثلوها في الجزيرة العربية:

الأول: هجرة قبائل سمعون من فلسطين إلى شمال الحجاز قبل عهد الملك داود.

الثاني: كان على عهد الفتوحات الأشورية والبابلية لفلسطين (٧٢٢ق.م)، وما ترتب على ذلك من هجرة أعداد من اليهود إلى الحجاز.

الثالث: في عهد احتلال الرومان لفلسطين عام (٧٠م) فرحلت قبائل يهودية إلى لحجاز وسكنت بجوار اليهود الأولين الذين هاجروا في الدور الثاني.

وما انفرد به فؤاد حمزه من القول: بهجرة قبائل يهودية قبل عهد الملك داود يوحي لنا أن الاتصال بين اليهود وعرب الجزيرة أسبق من عهد سليمان، وملكة سبأ. وقد ظهر ما يؤيد هذا الاتصال من بعثة (و يندل فيليبس) للتنقيب في جنوب الجزيرة، إذ عثروا على نقوش بها كلمات عِبرية مثل: نبط (وتعنى والد) وجيرو يوعام (أول ملوك اسرائيل) و ياغور (اسم مكان في يهوذا)، وقد أرجعوا تاريخ هذه النقوش إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد[2].

وعلى أية حالة، فالملاحظ أن أثر اليهود (في الأدوار الثلاثة) في عقائد عرب الجنوب خاصة وعرب الجزيرة عامة كان محدودا. و يبدو أن أسباب ذلك ما يلي:

١ــ في الدور الأول قبل داود (عليه السلام) كان الصراع مستمرا بين اليهود من جهة والكنعانيين والفلسطينيين من جهة ثانية. وهذا الصراع أعاق نشر اليهودية في تلك الفترة.

٢ــ كان الهدف الرئيسي لأنبياء وملوك بني اسرائيل في هذه المرحلة تثبيت الديانة اليهودية في اليهود أنفسهم، فلم يضعوا في حسابهم نشرها في غير اليهود.

٣ــ في الدورين الثاني والثالث تعرّض اليهود لنكبات متتالية من الأشوريين والكلدانيين والرومان، ففر منهم من فر وسُبِي منهم إلى بابل من سُبي ولا يمكن ان نتصور من هؤلاء الفارين أو من السبايا أن يعملوا على نشر اليهودية في جزيرة العرب أو العراق، بسبب أن هؤلاء ــ وهم في حالتهم تلك ــ يهمهم انقاذ رقابهم أكثر مما تهمهم اليهودية ونشرها.

٤ــ لقد بخل اليهود على الناس بدينهم، فتقوقعوا على أنفسهم، ولم يحاولوا نشر اليهودية في جيرانهم الوثنيين بالجزيرة العربية رغم توطنهم بينهم. وأكثر من هذا فقد وقف اليهود مع كفار قريش ضد الدعوة الاسلامية التوحيدية مما يدل على أن اليهود يهمها مصالحها أكثر من نشر اليهودية أو الدعوة لعقيدة التوحيد.

والأهم من الأدوار الثلاثة التي ذكرها حمزه، دوران آخران نعتبرهما بحق دورين ذهبيين لأثر اليهودية في العربية الجنوبية هما:

---

(١) قلب الجزيرة العربية ص ٢٥٨

(٢) و يندل فيليبس، كنوز مدينة بلقيس ص ١٢٠

الدور الذي كان في عهد سليمان (عليه السلام)، والدور الذي تهود فيه بعض ملوك الدولة السبئية الثالثة:

ففي عهد سليمان كانت الدولة اليهودية بمرحلة استقرار وتوسع بسبب ما أُوتي سليمان من مُلْكٍ لم يؤت أحد مثله، مما أدى إلى إرسال الوفود له من قبل معاصريه لينالوا ودّه. وكان ممن قدم لزيارته ملكة سبأ التي اعتنقت هي وقومها اليهودية. و بدا أثر اليهودية مباشرا و واضحا في هذا الدور بعقيدة أهل جنوب الجزيرة وإن كان مقتصرا على مملكة سبأ.

أما في الدور الثاني، فلم يكن الفضل لليهود في نشر اليهودية، بل يرجع ذلك إلى اعتناق بعض ملوك حمير لليهودية ونشرها بين رعيتهم: «والناس على دين ملوكهم» كما يقولون.

ولاشك أن اعتناق «يوسف ذي نواس» (آخر ملوك الدولة السبئية الثالثة) للديانة اليهودية، له أثر كبير في اشتداد ساعدها في جنوب الجزيرة بحيث تمكنت من منافسة النصرانية والتَغَلُّب عليها إلى حين.

ونخلص مما ذكرناه عن اليهودية في جنوب الجزيرة: أن أثرها الواضح كان في فترتين: في عهد سليمان، وفي عهد أواخر ملوك الدولة السبئية الثالثة. أما بقية الأدوار فقد كان أثرها محدوداً إلى حد كبير.

وإذا عدنا إلى عهد (ملك كرب يهامن) الذي ظهرت فيه عقيدة التوحيد في المرة الثالثة (التي نحن بصددها) فإننا نستبعد أن يكون ظهورها ــ في ذلك العهد ــ بتأثير اليهودية، لأن أول[1] من اعتنق اليهودية من ملوك الدولة السبئية الثالثة (وهو عمرو بن تبع حسان بن أسعد) حكم بعد ملك كرب يهامن بزمن طويل.

ثانيا: النصرانية:

تختلف المصادر العربية والأجنبية في كيفية دخول النصرانية إلى بلاد العرب: فالمصادر العربية[2] تذكر أن الذي نشر النصرانية رجل صالح اسمه (فيميون) وصل إلى نجران ونشر النصرانية بين أهلها.

أما المصادر النصرانية فتختلف بدورها فيمن أدخل النصرانية في جنوب الجزيرة: فيليب حتى[3] يذكر ان أول سفارة نصرانية إلى الجنوب تلك التي أوفدها الامبراطور الروماني (قسطنطيوس) سنة ٣٥٦م برئاسة ثيوفيلس الذي أنشأ بيعة في عدن و بيعتين في أرض حمير.

---

(١) قصيدة نشوان ص ١٤٥

(٢) السيرة، لابن هشام، جـ١ ص ٣٢

(٣) تاريخ العرب جـ١ ص ٨٠

لكن المصادر السريانية[1] تُرجع ذلك إلى رجل من نجران اسمه حنان ذهب إلى القسطنطينية ثم عرج منها إلى الحيرة حيث تنصّر فيها وعاد منها إلى نجران يبشر بالنصرانية .

أما الأحباش فيرجعون فضلَ نشر النصرانية في اليمن إليهم ، فيقولون ان قديسا اسمه (أزفير) أقام كنيسة في نجران و بشر بالنصرانية فيها[2] .

و يهمنا من دخول النصرانية في اليمن ــ الفترة التي ظهرت فيها عقيدة التوحيد لدى (ملك كرب يهامن الذي حكم هو وأبوه بين عامي ٣٥٠ــ ٤٠٠م)[3] فخــلال هذه الفترة تم الاحتلال الحبشي الأول لجنوب الجزيرة بين عامي ٣٤٠م ــ ٣٧٨م)[4] وبها وصلت بعثة الامبراطور قسطنطين إلى اليمن وذلك في عام ٣٥٦م والنصوص تشير إلى أن ظهور عبادة (ذي سموى) بدأت بعد هذين الحدثين ، ولهذا اختلف المؤرخون في السبب المباشر لبداية عقيدة التوحيد عند (ملك كرب يهامن) أكان بتأثير البعثة أم بسبب الاحتلال الحبشي في هذه الفترة .

إلا أننا نرجح أن يكون ذلك بسبب احتلال الأحباش الذي سبق بعثة قسطنطين بستة عشر عاما ، إذ لانتصور أن الامبراطور الروماني يفكر في إرسال بعثة تبشيرية قبل أن يؤمن حمايتها من قبل الاحباش . وهذا الترجيح لايمنع من أن يكون للبعثة والاحتلال الحبشي أثرها المشترك في نشر النصرانية في بلاد العرب الجنوبية .

وقد اختلف المؤرخون في العام الذي طَرّد فيه ملك كرب يهامن الأحباش ، و بالتالي ظهور عقيدة التوحيد ، فبينما يعتقد فيليب حتى ان طرد الأحباش كان في عام ٣٧٨ كما أسلفنا ، يرى جورجي زيدان أنه في عام ٣٧٤م[5] والأصح أن طرد الأحباش تم من قبل ملك كرب يهامن من عام ٣٧٥م كما دل على ذلك نقش عُثر عليه في مدينة مأرب[6] .

فعقيدة التوحيد ظهرت ــ للمرة الثالثة في جنوب الجزيرة بعد الاحتلال الحبشي الأول . وواضح أن أثر النصرانية أكبر من أثر اليهو ية في توجيه سكان جنوب الجزيرة نحو ديانة التوحيد . و يبدو أن السبب في ذلك يعود إلى نشاط المبشرين النصارى ورغبتهم في نشر دينهم في بلاد العرب ، و بالإضافة إلى حماية وتشجيع الامبراطورية الرومانية والأحباش لهم .

وعلى العموم لم تنجح هاتان الديانتان السماو يتان في بلاد العرب ذلك النجاح المتوقع لهما ، إذ بقيت الوثنية سائدة في معظم أنحاء الجزيرة .

---

(١) جواد علي ، المفصل جـ٦ ص ٦١٤

(٢) المرجع السابق ، الجزء والصفحة

(٣) المرجع السابق ، الجزء الثاني ص ٥٦٥

(٤) فيليب حتى ، تاريخ العرب جـ١ ص ٧٩

(٥) العرب قبل الاسلام ص ١٤٧

(٦) محمد يحيى حداد ، تاريخ اليمن السياسي ص ١٠١

ولعل السبب في عدم نجاحهما المطلق، يمكن إرجاعه إلى عامل سيكولوجي فأنفة العربي وكبرياؤه منعته أن يدخل في دين اليهود الذين يعتقدون أن من سواهم أدنى منهم، وأنهم شعب الله المختار، ولم يعتنقوا النصرانية لما صاحبها من احتلال حبشي لبلادهم.

والأثر الذي لايُنكر من دخول اليهودية والنصرانية في بلاد العرب أنهما ساعدتا على استعجال التفسخ(١) في الوثنية العربية من ناحية وتسرُّب أفكار التوحيد من ناحية أخرى.

وأفكار التوحيد هذه التي بدأت بعهد ملك كرب يهامن واستمرت زمن شرحبيل بن يعفر —كما بينت النصوص— هي التي جعلت أهل اليمن يسارعون إلى تقبل العقيدة الاسلامية السمحاء بصدر رحب عام ٦٢٨م



(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية (ترجمة نبيه فارس) ص ٢٧

الفصل الرابع

المياه والسدود وعلاقتها بالديانات السبئية في مراحلها المختلفة

تعرضنا في الفصل السابق للمراحل المختلفة للديانة السبئية، ورأينا أن السبئيين تنقلوا في معتقداتهم من التوحيد إلى عبادة الشمس والقمر وآلهة أخرى ثم تسربت إليهم عقيدة التوحيد قبيل الإسلام بتأثير اليهودية والنصرانية في بعض الأحيان.

وفي هذا الفصل عرض تفصيلي لموضوع جديد نبحث فيه عن نظرة السبئيين للمياه في مراحل دياناتهم المتعددة لنصل بعد ذلك إلى قضية مهمة يجدربنا أن نناقشها وهي: هل للديانات السبئية أثر في إنشاء السدود؟

المياه في الأديان:

تُولي العقائد الدينية المختلفة الماء عناية كبيرة. ولاشك أن هذه العناية نجمت عن حاجة الإنسان له، وملاحظة الإنسان الأول للعلاقة الدائمة بين المياه ونمو النبات. ولهذا جاءت التوسلات ـ لطلب المياه من الآلهة ـ من المطالب الرئيسية. ولم يمنع التوسل هذا، كون الآلهة أحجارا أو أشجارا أو كواكب ـ ما دامت تُلبّي حاجة أساسية وضرورية لهم على ما يعتقدون!! وفي قصة إدخال عمرو بن لحي عبادة الأصنام (للحجاز) ما يدلّ على أن المطلب الرئيسي من الآلهة هو الماء: فقد سأل عمرو أهل أصنام في بلاد الشام عنها فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[1].

وورد كذلك في النصوص السبئية كثير من التوسلات «للمقه» يسألونه أو يشكرونه لما أفاض عليهم من الماء الذي أروى حقولهم وبساتينهم.

ولايزال تقديس المياه والأنهار جاريا في الوقت الحاضر. ففي شمال الهند يجري نهر (الكانج) المقدس عند جماعات الهندوس حيث ينغمسون فيه لتكفير ذنوبهم وفق اعتقادهم.

وإن كان هذا شأن الوثنية وعبادة الكواكب فإن الديانات السماوية أبرزت أهمية الماء وجعلته من نعم الله على خلقه.

---

(١) كتاب الأصنام، ابن الكلبي ص ٨

وفي القرآن الكريم أن الماء هو الحياة «وجعلنا من الماء كل شيء حي»[1] وفي الكتاب المقدس (في الاصحاح الأول من سفر التكوين) وردت كلمة المياه اثنتي عشرة مرة دالة على أهمية المياه للكائنات الحية.

ويختلف مقدار عناية العقائد الدينية بالمياه بحسب طبيعة البلدان ومقدار حاجتها للمياه:

فالاغريق أدركوا العلاقة بين الأمطار ونمو النباتات، ولكن نظرا لاستدامة الأمطار في فصول معينة من السنة، لم يشعروا بالفاقة للمياه فانصرفوا إلى آلهة الحكمة والجمال يولونهم جلّ عنايتهم.

أما في مصر وبلاد الرافدين فالطبيعة تختلف، إذ أن اعتماد السكان فيهما على الأنهار المستديمة الجريان. ولهذا كان لابدّ أن ترتبط حياتهم بتلك الأنهار فنالت عندهم الحظوة والاحترام والتقديس وتقديم القرابين، لكي تفيض عليهم بالماء.

لكن الجزيرة العربية عامة ليس فيها أمطار منتظمة الهطول، وليس بها أنهار دائمة الجريان كالنيل والفرات. ولهذا كانت الصبغة العامة للجزيرة العربية الجفاف، فكان للمياه قيمة كبيرة لدى سكانها.

وان اختصت جنوب الجزيرة بكميات أمطار أكثر من بقية أنحائها (بفعل الرياح الموسمية) فإن هذه الأمطار الوقتية تذهب سدى إن لم يكن هناك عناية بتجميعها وخزنها لوقت الحاجة. وهذا ما دعا سكان جنوب الجزيرة إلى استخدام الوسائل الصناعية لحفظ المياه: إقامة السدود وحفر الآبار وتجميع المياه في برك أو أحواض واسعة لاستخدامها (وقت الشح) في الشُرب وسقي الحيوانات وريّ الأراضي.

وتطورت وسائل حفظ المياه عند سكان جنوب الجزيرة وتنوعت بحيث لم يمض طويل وقت حتى برعوا في هذا المضمار. وقد أدى هذا إلى تغيّر في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية ومعتقداتهم الدينية:

فالتنظيم الاجتماعي: بدأ في استقرار مجتمع الجنوب وارتباطه بالأرض مما أسفر عن ظهور طبقة جديدة مناظرة لطبقة التجار هي طبقة الفلاحين. وترتب على ظهور هذه الطبقة الجديدة الارتباط العائلي بجانب الارتباط القبلي، كما أدى إلى ظهور نظام ملكية الأرض وما يصاحبها من خلافات ومنازعات على الري والأراضي.

أما التغير الاقتصادي: فقد ظهرت حرفة الزراعة بعد توفر المياه اللازمة لها منافسة لحرفة التجارة في دخلها للأفراد والحكومات، بالإضافة إلى توفير المواد الغذائية بدل المستوردة ذات التكاليف الباهظة.

---

(١) سورة الانبياء الآية ٣٠

وتوفر المال من التجارة، والغذاء من الزراعة، هو الذي دفع بسكان العربية الجنوبية إلى التقدم في مجال العلم والعمران، وإلى العيش ببذخ وترف يُحسدون عليه.

والتغير الديني: كان واضحا في ظهور آلهة جديدة بجانب المقه وأهم هذه المعبودات التي فرضت نفسها على سكان الجنوب هي الشمس. فالمياه والحرارة أهم مستلزمات نمو المزروعات، وما دامت المياه قد توفرت بوسائل الحفظ المختلفة، تبقى الحاجة للحرارة التي تُستمد من الشمس، فعبدوها وقدسوها بجانب المقه.

و بعد أن لاحظنا التغيرات المختلفة التي حدثت في حياة سكان جنوب الجزيرة بعد تقدمهم في وسائل حفظ المياه، لابدّ من تصور علاقة بين معبودات السبئيين والمياه.

صلة معبودات السبئيين بالمياه:

من خلال النظرة الاجمالية للنصوص السبئية المكتشفة نجدها تتناول ثلاثة جوانب:

الأول: دعاء للمقه لحفظ المكارب أو الملوك، بالإضافة إلى حفظ مقدم التمثال أو القربان.

الثاني: يتعلق بوصف معركة أو شن حرب أو تسجيل انتصار.

الثالث: التوسل للآلهة بزيادة الأمطار أو زيادة الخير والنماء في المزروعات.

ولابد لأي نص سبئي أن يتناول جانبا من هذه الجوانب إن لم يتناولها جميعا. و يهمنا في هذا المقام: الجانب الثالث الخاص بطلب المياه من الآلهة ولقد جاء هذا المطلب في نصوص كثيرة توحي بأنهم يرجعون غزارة الأمطار أو قلتها وأثرها الضار في بعض الأحيان أو أثرها الطيب ــ إلى آلهتهم.

وفي النص التالي(1) قدموا القرابين للمقه لأنه جاد عليهم بالأمطار:

«شعب سبأ ــ كهلان، سادات مدينة مأرب وأقيالها، قدموا قربانا لسيدهم المقه حمدا لما جاد به عليه من السقي الذي أفعم أرضهم في برق الخريف».

وإن كان هذا شكرا للمقه على المياه التي أفاضها عليهم، فإن هناك نصوصا يتوسلون فيها للمقه بأن يديم هطول الأمطار عليهم، كما في النص الذي أورده مطهر الا رياني(2):

«و يسأل (مقدم القربان) الإله المقه أن يديم عليهم الأمطار الغزيرة والسيول المُتدفقة، وأن يمنحهم الغلال الوافرة من كل ممتلكاتهم في مختلف البقاع والمناطق».

---

(1) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ3 نقش رقم 8 ص 56

(2) في تاريخ اليمن، نصوص لم تنشر، نقش رقم 22 ص 127

إما إذا انقطعت الأمطار فإنهم يهرعون إلى آلهتهم يسترضونها بتقديم القرابين، ثم يتوسلون لها لكي تُسقط عليهم الأمطار، وقد بيّن لنا نص نقله زيد عنان[1] حالة كهذه:

«شعب سبأ وكهلان تقربوا بتقديم تماثيلهم (قرابينهم) للإله المقه بسبب انقطاع المطر عنهم في سنة من السنين، فذهبوا إلى المقه يدعونه عدّة أيام، ثم استجاب لهم وهطلت الأمطار!! وأن سبب استجابته لهم ــ كما يقولون ــ لأنهم توكّلوا عليه» !!

هذه النصوص وغيرها، تشير إلى مقدار الصلة القوية بين آلهة السبئيين وسقوط الأمطار في عقيدتهم.

ومن جانب آخر، فقد كان الاعتقاد السائد لدى السبئيين أن الخير والنماء لمزروعاتهم يتّم بمباركة آلهتهم. فقد جاء في نصوص سبئية ما يُبين العلاقة بين المقه ومراحل الزراعة: الحراثة والزرع والحصاد كما في النصين التاليين:

١ــ «نعمة وتحقيق آمال وصحة في الأبدان والأموال وخير كثير في محصولات (الدثا) و(الخريف) النافعة في كل أراضيهم مشرقها ومغربها، ويتفضل المقه في إسعاد عبيده»[2].

٢ــ «وليواصل المقه المّن على عبديه (مقدمي القربان) بالحظوة والرضا عند سيديهما الملكين (اليشرح يحضب وأخيه يازل) وليمنحهما الذكور الصالحين، وكذلك غلات الصيف والخريف والشتاء والربيع الصالحة الوافرة، وليجد عليهما بالفصول الخيرة والأمطار والثمار الوافرة الصالحة المرضية عبّر كل أراضيهم التي يحرثونها بالمشارق وفي الجبال ...... »[3].

ومن هذه النصوص وسابقتها يتبين لنا أن السبئيين لم يردّوا سقوط الأمطار لآلهتهم فحسب، بل ربطوا أيضا بين وفرة محاصيلهم ونموها وبين بركة ونعمة آلهتهم. لهذا أصبح التوسل والدعاء للمقه وبقية الآلهة نبراسا لأهل سبأ إذا ما شحّت السماء بالماء وإذا ما قلّت الأرض بالعطاء.

العلاقة بين السدود وآلهة السبئيين:

رأينا فيا سبق كيف قدّست الأمم القديمة عامة والسبئيون خاصة المياه. ثم بيّنا ــ من النصوص ــ الاعتقاد الواسع لدى السبئيين بأن آلهتهم هي التي تمدّهم بالماء والخيرات.

وإن كانت مهمة السدود تجميع وصد المياه، فلابد أن تكون هناك علاقة بين السدود والآلهة.

(١) تاريخ حضارة اليمن القديم، نقش رقم ٥٦ ص ٤١٢

(٢) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣، نقش رقم ١٣ ص ٦١

(٣) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، نقش رقم ١٩ ص ١١٧

وقد بدت لنا هذه العلاقة من عدّة نصوص سبئية منها ما يشير إلى أن الآلهة تمدّ السدود بالمياه، ومنها ما يُرجع حفظ السدود وحراستها للآلهة كما في النصوص التالية :

النص الأول :(١)

«... لقد حمدوا المقه لأنه أجرى في هذا السد (ذي يفيد)(٢) سيولا غزيرة أرضتهم تماما وحمدوه كذلك لكي يستمر في الاستجابة بتحقيق كل أمل يأملونه، وليستمر في مدّ هذا السد بالسيول» .

فمهمة الإله المقه في هذا النص امداد السدود بالمياه .

النص الثاني :(٣)

«شعب سبأ قدّموا لسيدهم المقه تمثالا لما جاد عليهم في برق الدثا و برق الخريف، ليستمر المقه في حراسة وحماية اذنة والعرم و بساتينها وأهلها عبيد المقه» .

وهذه مهمة أخرى للمقه لها علاقة بالسدود وهي حراستها وحمايتها . وتكون الحماية والحراسة هذه، من المياه التي تخرب السدود عادة . ولهذا سألوا المقه وتوسلوا اليه بأن يمدّهم بامطار خير لا امطار تخرب السدود . كما في النص التالي :

النص الثالث :(٤)

«... يحمدون المقه على المياه الغزيرة التي ملأت الحوض الخاص بالسد دون أن تُحدث في بنائه أي ضرر أو تصدع» . وعلى العموم، فإن هذه النصوص توحي لنا أن السدود (في اعتقاد السبئيين في مرحلة عبادة الكواكب) مُلْكٌ للآلهة، تمدّها وتملأ أحواضها وتحفظها من كل ضرر أو تصدّع أو خراب .

كيف اهتدى السبئيون لإنشاء السدود :

ولنترك السبئيين واعتقادهم بأن المقه والآلهة الأخرى هي المالكة والحامية للسدود لنبحث في كيفية اهتدائهم لبناء السدود .

لاشك أن الانسان في صراع مع بيئته منذ نشأته على الأرض، وبمقدار جهده وخبرته وتفكيره يحوّل هذه البيئة لصالحه .

فقد خلق الله الانسان وأكرمه بأن سخّر له جميع المخلوقات ليستفيد منها و يستغلها لصالحه ما

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن، نقش رقم ٧ ص ٤٩

(٢) سد (ذي يفيد) يعرف الآن باسم سد (شاحك) قرب قرية تنعم . المصدر السابق

(٣) احمد شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٧ ص ٥٥

(٤) المصدر السابق، نقش رقم ١٨ ص ٧٠

استطاع إلى ذلك سبيلا . وحتى يتمكن من هذا . وهبه الله عقلاً مميزاً له عن سائر المخلوقات يفكّر به و يقدّر، ويجرّب به و يقارن ، حتى يصل إلى ما فيه مصلحته .

وكثيرا ما يضلّ العقل البشري ويحتار ، فعندها تتولى العناية الآلهية هدايته وارشاده :

فعندما احتار قابيل بن آدم في جثة أخيه ، بعث الله غرابين اقتتلا ودفن أحدهما الآخر ، فاهتدى ابن آدم ووارى جثة أخيه . وفي هذا سنة لبني آدم من بعده . وعندما أراد الله إغراق قوم نوح ، أوحى إلى نوح أن يصنع الفلك ــ بارشاد ووحي إلهي ــ منجاة له ولمن آمن معه . كما علّم وهدى داود صنع لبوس قومه ، وما كان لداود أن يهتدي إلى ذلك لولا أن هداه الله .

وفي قصة يوسف (عليه السلام) نوع آخر من التعليم كما جاء في القرآن الكريم على لسان يعقوب : « وكذلك يجتبيك ربُّك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم »(١)

وفي القرآن الكريم « وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم »(٢) .

وليس تعليمه وهديه ــ عزّ وجلّ ــ للأنبياء أو البشر عموما فحسب ، بل إلى سائر مخلوقاته كما في قوله تعالى : « وأوحى ربُّك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون »(٣) .

وهذه الأمثلة قليل من كثير مما ورد في القرآن الكريم ، توحي بأن العلم بالأشياء وفي الأشياء إنما يتّم بهداية الله ووحيه .

وإن كنا لانشك في أن اهتداء السبئيين وغيرهم لانشاء السدود هو إلهام من الله ، فقد جاءت قصة جنتي سبأ القائمتين على السد مشيرةً إلى أن بناء سد مأرب كان بهدي وارشاد إلهي للسبئيين . ذلك أن الجنتين من نعم الله على سبأ ، وبمقدوره ــ عزّ وجلّ ــ أن يقول كونا فتكونان . إلا أنه على أساس ربط السبب بالمسبب هداهم لبناء السد لترتوي من مياهه الجنتان . وعندما أراد الله هلاك الجنتين أرسل سيل العرم ليُخرب السد فذهبت الجنتان بذهاب سببهما وهو السد .

فبناء سد مأرب من قبل السبئيين ، وزراعتهم للجنتين : اليمنى واليسرى ووفرة انتاجهما على غير العادة ــ كان هديا وارشاداً وتفضُّلا من الله ــ عزّ وجلّ ــ عليهم ، لتكون لهم ولغيرهم برهاناً على قدرته وحكمته ، علّهم يهتدون إلى عبادته خير عبادة وشكره على تفضُّله ونعمه :

---

(١) سورة يوسف الآية ٦

(٢) سورة البقرة الآيتان ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة النحل الآية ٦٨

و يقول ابن رستة: (1)

«فلما حل بهم هذا الحدث (سيل العرم وتخريبه للسد والجنتين) آمنوا بالله وسألوه العفو وأنابوا، فقبل الله تعالى منهم وقواهم وجمع كلمتهم... إلا أنهم كفروا بعد ذلك و بدّلوا فعاقبهم الله بالتَّمَزّق والتَفَرُّق».

هكذا سنة الله في خلقه. يهدي الإنسان إلى ما فيه صلاحه، و يعلّمه مالم يعلم، فإذا استفاد من هذا الهدي وهذا العلم وشكر الله على ذلك يديمُ منّه وتفضله عليه، وإن لم يكن كذلك كان علمه و بالاً عليه.

* * *

والخلاصة من دراستنا الدينية لسد مأرب أن السدود عامة من نعم الله على بني الانسان. وكما أن الانسان وقف مواقف مختلفة من نعم الله عامة، فان مواقفه اختلفت أيضا بالنسبة للسدود، بين شاكر لله تفضله لهذه النعمة و بين جاحد لها وكفور بها.

وقد دخل أهل سبأ في زمرة الجاحدين سواء عندما كانوا في مرحلة التوحيد اذ أعرضوا ولم يشكروا، أو في مرحلة عبادة الكواكب إذ نسبوا نعمة السد وخيراته إلى آلهتهم التي لم تُغنِ عنهم من الله شيئا وذلك عندما جاء أمر ربك فأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر.



(1) الاعلاق النفيسة ــ المجلد السابع ص ١١٥

الباب الثالث
دراسة تاريخية لسد مأرب

تمهيد : السدود في بلاد العرب .
الفصل الأول : عمارة سد مأرب .
الفصل الثاني : تصدع سد مأرب وترميمه .
الفصل الثالث : خراب سد مأرب في القرآن الكريم .
الفصل الرابع : أسباب خراب سد مأرب .
الفصل الخامس : نتائج خراب سد مأرب .

تمهيد
السدود في بلاد العرب

تمهيد : السدود في بلاد العرب :

اتسمت كل حضارة من الحضارات القديمة بصبغة خاصة بها تميزها عن غيرها ، فالحضارة المصرية القديمة ترتبط في الأذهان بالأهرامات الأبدية الشامخة ، والحضارة البابلية تُذكّر بالفلك والسحر والأجرام السماوية ، والحضارة اليونانية تهيم بالعقول في عالم الميتافيزيقا والفلسفة ، وأما حضارة عرب الجنوب فشهرتها في كثرة سدودها .

و يبدو أن البيئة توجه ساكنيها إلى التفوق والنبوغ في ناحية معينة ، و بيئة عرب الجنوب فرضت عليهم التخصص في إنشاء السدود بحيث يمكن أن نعتبرهم من أساتذة العالم في هذا المضمار، فلم تشر كتب التاريخ إلى سدود أقيمت في الحضارات القديمة قبل تلك التي أنشئت في الجزيرة العربية .

ولكن ، لماذا سبق العرب القدماء غيرهم من الأمم في إنشاء السدود ؟

لاشك أن سبب ذلك هو اختلاف بيئة العرب عن غيرهم من الأمم القديمة المعاصرة لهم ، فأهل مصر والعراق واليونان كانوا يطلبون المياه من الأنهار أو الأمطار فيجدونها باستمرار، أما عرب الجزيرة فكلّ شيء عندهم بمقدار، فلا أنهار مستديمة الجريان ولا أمطار دائمة التهطال ، فكان للماء قيمة كبيرة في إنقاذ إنسان أو حيوان أو استقرار قبيلة أو رحيلها من الأوطان .

و ينطبق هذا الوضع في معظم أنحاء الجزيرة العربية ما عدا جزءها الجنوبي الغربي الذي يُعتبر أوفر حظا بسبب الأمطار التي تنهمر عليه في مواسم قصيرة ومعروفة من السنة . لهذا عمد سكان هذا الجزء ــ منذ القدم ــ لاستغلال هذه الظاهرة الطبيعية لسببين :

١ ــ اتقاء خطر السيول العاتية المفاجئة التي تكتسح ما يعترضها .

٢ ــ الاستفادة من هذه السيول وقت الحاجة بدل أن يذهب الماء سدى .

ولدفع تلك الأخطار، ولحاجتهم الماسّة للماء في فصل الجفاف ــ قادهم تفكيرهم إلى إنشاء السدود التي تميّزت بها حضارة عرب الجنوب .

وكانت هذه السدود بدائية في البداية ، إذ لم تتعدّ كونها حواجز ترابية أو من تراب وحجارة يتولى إنشاءها فرد أو أفراد ، ولمّا أدرك سكان الجنوب قيمة هذه السدود وفائدتها ، عمّ انتشارها في العربية

الجنوبية، و بدل أن كان يتولى عمارتها الأفراد أصبحت الحكومات أو القبائل تتولى هذه المهمة.

ولقد اتبع حكام جنوب الجزيرة العربية السخرة في بناء السدود كما دلّ على ذلك نص (أبرهة) الذي عُثر عليه في مأرب، فقد طلب أبرهة من أهل المدن ورؤساء القبائل تقديم أتباعهم للعمل في السد مقابل ما يُقدّمُ لهم من طعام(١) وهذا يُذكّرنا ببناء الأهرام في مصر مما يدل على أن طريقة السُّخرة في البناء كانت متبعة لدى ملوك وحكام الحضارات القديمة.

وتكاثرت السدود في جنوب الجزيرة العربية بكثرة الأودية التي يمكن استغلال جوانبها، ولا تزال بقايا هذه السدود ماثلة للعيان وفي مواضع يمكن الاستفادة منها اليوم.

وقد ذكر لنا الهمداني(٢) عدداً من هذه السدود هي: «سد مأرب (وهو أشهرها) وسد الخانق بصعدة (بناه نوال بن عتيك على عهد سيف بن ذي يزن)، وسد ريعان، وسد سيان، وأسداد بلاد عنس منها سد خيرة، وفي بلاد همدان سد بيت كلاب في ظاهر همدان وآخر في ظاهر درعان، ومن المخاليف المشهورة بالسدود مخلاف (يحصب) و به على ما يقال ثمانون سدا كما قال ذلك أسعد تبع في شعر له:

وفي البقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا(٣)

ومن سدود هذا المخلاف: قضان وريواب وهوسد قتاب، وسد شحران، وسد طمحان، وسد عاد، وسد لحج وهوسد عراش، وسد سحر، وسد ذي شهل، وسد ذي رعين، وسد مفاضة (عند قرية ذي ربيع)، وسد نظار، وسد هران، وسد الشعباني، وسد المليكي، وسد النواس، وسد المنهاد».

هذه بعض السدود الكبيرة التي ذكرها الهمداني، بالاضافة إلى سدود أخرى لم يشر إليها كانت متناثرة في بقية انحاء اليمن.

ولاشك أن سد مأرب أعظم هذه السدود شهرةً وأكثرها ذكراً في أخبار العرب وأشعارهم. و يبدو أن أسباب هذه الشهرة تعود إلى العوامل التالية:

١ــ إشارة القرآن الكريم لخراب هذا السد والآثار التي ترتبت على هذا الخراب.
٢ــ ضخامة بنائه ودقة هندسته وطول بقائه.
٣ــ اتساع الأراضي التي كانت ترتوي من مياه السد، وكثرة القبائل المستفيدة من ذلك.
٤ــ كثرة الروايات والقصص التي حيكت حول بناء السد وخرابه.
٥ــ الهجرات التاريخية التي ارتبطت في الأذهان بخرابه، وتأثُّر بلدانٍ متاخمة للجزيرة العربية بتلك الهجرات.

---

(١) جواد على: المفصل جـ٧ ص ٤٧٠
(٢) الإكليل جـ٨ ص ١٣٥، ١٣٦
(٣) اذا لم يكن الرقم (٨٠) هو المقصود فعلا فإنه ولا شك يدل على الكثرة

هذه الشهرة التاريخية لهذا السد، تدفعنا إلى البحث عن تاريخ السد من البداية حتى النهاية. ولاشك أن صعوبات جمّة ستعترض سبيلنا اثناء البحث في تأريخ بناء السد وخرابه ونتائج ذلك، فالآراء مختلفة، والقصص كثيرة والروايات متداخلة والتناقض بيّن ــ ومن هذا الخضم المتضارب نريد ان نستجلي الحقيقة، وهي مهمة ليست يسيرة كما سنرى في الفصول التالية:



الفصل الأول
عمارة سد مأرب

المؤرخون العرب و بناة السد :

اختلف المؤرخون العرب في أول بانٍ لسد مأرب. فمنهم من ذكر أنه من بناء قبائل شداد وعاد[1]، وآخرون[2] قالوا إنه من بناء سبأ بن يشجب، و بعض المؤرخين نسبوا بناء السد[3] إلى حمير بن سبأ، واستدلّوا على ذلك بقصيدة للأعشى يقول فيها :

ففي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ومأرب قفى عليها العَرم
رُخامٌ بناه له حمير إذا جاء ماؤهم لم يرم

أما القرطبي[4] فينسب بناء السد إلى بلقيس صاحبة سليمان.

هذه أشهر الأقوال عن باني السد لدى المؤرخين العرب. واختلافها دليل على أن تلك الأقوال مبنية على حكايات وروايات يتناقلها الرواة دونما تمحيص أوتدقيق، ودون أدلة تدعمُها.

و ينفرد ابن خلدون عن غيره من المؤرخين بالتحليل والتعليل، فبعد أن يورد أقوال المؤرخين عن باني السد يقول :

« والأصوب أنه من بناء سبأ بن يشجب، وأنه ساق إليه سبعين واديا ومات قبل إتمامه، وإنما رجحناه لأن المباني العظيمة والهياكل الشامخة لا يستقلّ بها الواحد »[5].

لكن النصوص المدونة على مصارف سد مأرب لا تشيرإلى أحد من هؤلاء الذين نُسب إليهم بناء السد، بل تذكر أسماء حكام ساهموا في بناء السد تختلف لفظاً ومعنى عن الأسماء التي ذكرها مؤرخو العرب مما يجعل دراسة هذه النصوص أمراً ضروريا.

بناة السد في النقوش والكتابات :

تشير النقوش والكتابات الموجودة حاليا على مصارف السد إلى اشتراك عدد من مكارب سبأ في

(١) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ــ القسم الثاني ص ١٩٥
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٨٣
(٣) الهمداني: الإكليل جـ٨ ص ٥٤
(٤) تفسير القرطبي جـ رقم ٥٩، سورة سبأ
(٥) تاريخ ابن خلدون، جـ٢ ص ٥٠

بنائها. وبعض هذه الكتابات مسطرٌ بـ(الطريقة الحلزونية)[١] كالنص المنقوش على الصدف الأيمن المرتكزة قاعدته على جبل بلق الأيمن، وفيه إشارة إلى اشتراك «يثع أمربين بن سمه علي ينوف» في أجزاء من السد:

وقد تُرجمت هذه العبارة بصيغ مختلفة:

نزيه العظم أوردها بهذا المعنى:[٢]

«يثع أمربين بن سموعه ينوف حاكم سبأ ثقب الحجر الرخامي في الجهة الشمالية»

وجورجي زيدان[٣] فسرها بالعبارة التالية:

«ان يثعمر بن سمه علي ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق و بنى مصرف رحب لتسهيل الري».

و يقول جواد علي[٤] حول مفهوم هذه العبارة:

«ان يثعمر بين بنى سد حبابص و يقع في المنطقة الشمالية».

وإذا عدنا إلى النص واستبدلنا حروف المسند بحروف عربية تكون الترجمة الحرفية للعبارة السابقة:

يثعامربين بن سمهمع.. نف مكرب سبأ مخض بلق مأخذن حببض منحى بسرن»

هذه تفسيرات متعددة لهذه العبارة، و يلاحظ الاختلاف في معنى بعض الكلمات مثل (مخض) و(مأخذن) وإنما أوردنا هذه التفسيرات لنفس العبارة (التي نقلناها بدقة) كمثال على أن ترجمة المسند تأتي اجتهادية من قبل المؤرخين. وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه بضرورة العناية بكتابات المسند ودراستها إذا ما أريد لتاريخ عرب الجنوب أن يستبين.

وعلى أية حال، فقد أوضح هذا النص اشتراك يثعمر بين في بناء أجزاء من سد مأرب، إذ أن اسمه مكتوب في النص السابق المدّون على الصدف الأيمن الملاصق للجبل.

---

(١) يسمى هذا النوع من الكتابة أحيانا (طريقة دوران الثور)

(٢) رحلة في البلاد العربية السعيدة جـ٢ ص ٩٠

(٣) العرب قبل الاسلام ص ١٧٦

(٤) المفصل جـ٧ ص ٩٠

وهناك نصوص أخرى على الجانب الأيمن من السد تشير إلى اشتراك مكارب آخرين في بناء أجزاء من السد.

فعلى الصدف الثاني توجد العبارة التالية :

ومعناها عند احمد شرف الدين(١)

« سمهعلي ينوف مكرب سبأ بنى سد يسرن من البلق في خدمة الري » .

بينما ترجمها جورجي زيدان(٢)

« ان سمه علي ينوف بن ذمر على مكرب سبأ اخترق بلق و بنى رحب لتسهيل الري » .

فإذا لم يكن هناك نص آخر لم نطلع عليه ، تكون ترجمة أحمد شرف الدين أكثر دقة من ترجمة زيدان ، لأن النص لا توجد به كلمة (رحب) كما يشاهد في الترجمة الحرفية للنقش المذكور. والمهم أن هذا النص أشار إلى مساهمة سمه علي في بناء أجزاء من السد .

وترى أننا أولينا اهتماما خاصا بهذين النصين لأنهما أوضح النصوص المتفرقة والمُدونة على بقايا السد ، ذلك أن بقية النصوص ناقصة وغير واضحة : فعلى الصدف الأيمن (ونحن لانزال نتتبع النصوص المدونة على الجانب الأيمن للسد) نجد اسم ذمار على ذرح بن يدع ال مكرب سبأ ، كما نجد على الجدار الممتد وراء الصدف الثاني هذه الكلمات الناقصة :تم/ يروح/ هوبثع/ .

وإذا انتقلنا إلى الجانب الأ يسر من سد مأرب نرى بوضوح اسم (كرب ال بن يثعمر) ــ مكرب سبأ ــ على أحد المصارف كما هو واضح (في الصورة الفوتوغرافية ١) .

أما على الصدف الثاني المواجه للسد الأ يسر فتوجد عبارة ناقصة هي :

. . . . . .

والنصوص السابقة لا تزال باقية على انقاض سد مأرب ، ومن إعادة النظر في هذه النقوش والمقارنة بينها ــ يتبين لنا أنها كُتبت في أوقات مختلفة ، ومما يؤكد ذلك الملاحظات التالية :

١ ــ وجود أسماء مكارب عدة على أجزاء مختلفة من السد.

٢ ــ رسم حرف (الميم) اختلف في النص الذي يعود إلى عهد (يثعمر) عن بقية النصوص الأخرى . فهو في عهد يثعمر هكذا ( )، بينما يأتي في النصوص الأخرى على هذا الشكل ( )، ومعلوم لدى الذين يعرفون المسند أنهما رسمان لحرف الميم ، إلا أن

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٧٤

(٢) العرب قبل الاسلام ص ١٧٦

ورد أحدهما برسم واحد في كل النص (وعدم ورود الشكل الآخر في النص نفسه) ليدل على أنه في فترة معينة ساد شكل من أشكال حروف المسند على غيره. وهذه ملاحظة قد يُستفاد منها في التصنيف الزمني للنصوص التي عُثر عليها والتي يمكن أن يعثر عليها مستقبلا.

وما دامت النصوص المدونة على مصارف السد تحمل أسماء عدة مكارب، وما عرفناه من أنها كُتبت في أوقات مختلفة نصل إلى حقيقة مؤكدة:

وهي أن بناء سد مأرب كان على مراحل، وأن المراحل النهائية كانت من مساهمة عدة مكارب، و يعني ذلك أن السد لم يستأثر ببنائه أحد لكي يُنسب إليه، وهذا يذكرنا بقول ابن خلدون: إن المباني العظيمة لا يستقل ببنائها الواحد.

تأريخ بناء سد مأرب:

لتحديد تأريخ بناء سد مأرب ينبغي البحث في دور مكارب سبأ في مشروع بناء السد، فهناك رأيان مختلفان حول هذا الدور:

الرأي الأول:

يرى أصحابه أن سد مأرب من تفكير وتنفيذ المكارب من بدايته إلى نهايته. وقد استند هؤلاء على النصوص المدونة على مصارف السد ولم يلتفتوا لأقوال المؤرخين السابقين عن بناة السد قبل المكارب، واعتبروها مجرد أقاويل لا أساس لها من الصحة(١).

الرأي الثاني:

يعتقد أصحابه أن سد مأرب بُني قبل مكارب سبأ، وأن ما قام به هؤلاء المكارب لايتعدى إضافات وتحسينات لسدٍ كان معروفا من قبل(٢).

و بناء على الرأي الأول يكون تأريخ بناء السد بين عامي (٨٠٠ــ ٦١٠ق.م) وهي فترة حُكم مكارب سبأ، إذ أن أقدم مكارب سبأ هو (سمه علي) الذي اتخذ من صرواح عاصمة له عام (٨٠٠ق.م)(٣) وآخرهم (كرب ايل وتر) عام ٦١٠ق.م)(٤).

غير أن النقوش المدونة على أنقاض سد مأرب تذكر أسماء أربعة مكارب أسهموا فعلاً في مشروع السد هم:

(يثعمر بن سمه علي) و(كرب إيل بن يثعمر) و(ذمار علي ذرح) و(وسمه علي نيف بن ذمر علي). ولا يُعرف بالتأكيد متى حكم هؤلاء الأربعة، إلا أن يثعمر وابنه كرب إيل بين كانا

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٧١

(٢) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٦٢

(٣) ديتلف نيلسون، التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال فؤاد حسين ص ٨٠

(٤) و يندل فيلبس، كنوز مدينة بلقيس ص ٢٧١

معاصرين[1] لسرجون الثاني الأشوري (٧٢٢ــ ٧٠٥ق.م) وابنه سنجاريت(٧٠٥ــ ٧٠١ق.م)[2].

وبهذا تكون البداية في عمل السد من قبل يثعمر خلال الفترة الممتدة بين عامي (٧٢٢ــ ٧٠١ق.م) على اعتبار أن يثعمر هذا هو أقدم المكارب المُدونة أسماؤهم على مصارف السد[3].

هذا التحديد الزمني التقريبي لبداية العمل في سد مأرب على افتراض أن السد كان من تفكير وتنفيذ مكارب سبأ كما يقول أصحاب الرأي الأول.

أما أصحاب الرأي الثاني ــ الذين يرون أن السد بُني قبل مكارب سبأ ــ فَيُقَدِّرُون تأريخ بناء السد في بداية الألف الأولى قبل الميلاد[4] أو بين عامي (٩٠٠ ــ ٨٥٠ق.م) وهذا الرأي يوافق إجمالا أقوال مؤرخي العرب عن بناء السد قبل المكارب.

سدُّ مأرب بُني قبل مكارب سبأ:

بالرغم من أنّ النقوش المدونة على أنقاض سد مأرب تشير بوضوح إلى اشتراك مكارب سبأ في بناء السد، إلا أن إعادة النظر في هذه النصوص المدونة وتحليلها ثم دراسة الوضع السياسي لمكارب سبأ، بالإضافة إلى الدلائل والقرائن المصاحبة ــ تؤكد لنا أن سد مأرب بُني قبل المكارب، وأن ما قام به هؤلاء كان تتمة أو إصلاحاً لمشروع قديم، وسنوضح ذلك في النقاط التالية:

أولا النصوص:

١ــ لم يرد ذكر السد (العرم ــ عرمن) في الكتابات المدونة على المصارف، فلو كان السد من بناء المكارب لسجلوه في كتاباتهم، فهو أهم وأولى بالذكر من المصارف.

٢ــ يلاحظ في النصوص التي أوردناها سابقا أنها خاصة ببناء مصرف أو سد رحب أو حبابض، فعلى رأي الذين فسّروا النصوص بأنها: مصارف رحب وحبابض، يمكن القول ان السد كان قد تم بناؤه، إذ لا يُعقل أن تُبنى المصارف قبل السد!!

وعلى رأي الذين فسروها بأنها سدود لا مصارف: فإنهم يشيرون إلى أنّ هذه السدود في الجهة اليمنى واليسرى، وهذا يُحَتِّم بأنه لابد أن يكون سد في الوسط يحجز مياه الوادي، إذ ما فائدة السدود

---

(١) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩

(٢) جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١١٢، ١١٣

(٣) ظن كثير من الباحثين أن يثعمر هو ابن سمه علي نيف بن ذمر علي، وقد غاب عن هؤلاء ان كتابة يثعمر مدونة بالطريقة الحلزونية، لهذا فهو أقدم من سمه علي، ومما يجدر الاشارة إليه ان هناك عدة مكارب يحملون اسم (سمه علي) انظر الملحق رقم (١)

(٤) عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ٦٢

في يمين الوادي وشماله إذا كانت المياه تتدفق عبر الوادي دون حاجز!؟

ثانيا: الوضع السياسي لمكارب سبأ:

لم يكن الوضع السياسي مستقرا لمكارب سبأ لكي يقوموا ببناء سد ضخم كهذا يحتاج إلى أموال طائلة وجهود كبيرة هم في أمس الحاجة إليها. فقد كانوا في صراع مستمر مع دول معين وقتبان وحضرموت المجاورة لهم، ولم يستقر لهم الأمر إلا في عهد كرب ال وتر آخر مكارب سبأ وأول ملوكهم(1).

أما كيف سلّمنا بقدرتهم على بناء مصارف السد فقط في ظروفهم تلك التي اعتبرناها غير مشجعة لهم لبناء السد، فإنه من البداهة القول: المصارف لا تحتاج إلى جهود كبيرة كتلك التي يحتاجها بناء المصارف والسد معا.

ثالثا: القرائن المصاحبة:

١ـ يُفهم من القرآن الكريم في الآيات الخاصة بالجنتين والسد: أنها نعمٌ من الله على أهل سبأ، وقد طلب منهم الشكر مقابل هذه النعم، كما وُعِدُوا بالمغفرة إن هم تابوا وأنابوا. هذه النعم والمغفرة المصاحبة لها لا تتأتى لقوم كافرين كما في قوله تعالى(2) «إن الله لا يغفر أن يُشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ولما كنا على يقين بأن مكارب سبأ كانوا يعبدون المقه (القمر) كما هو مسجل في نصوصهم، أصبح من المؤكد أن السد بُني في فترة توحيد(3) عند السبئيين، وهي اما أن تكون الفترة الأولى في عهد سبأ بن يشجب وابنه حمير، أو في الفترة الثانية بعد إسلام ملكة سبأ ـ وكلتا الفترتين قبل مكارب سبأ.

٢ـ يجمع مؤرخو العرب على قِدَم بناء سد مأرب، فسبأ بن يشجب وابنه حمير وملكة سبأ كلهم أسبقُ زمناً من المكارب بكل تأكيد. ورغم أن الذين نسبوا بناء السد إلى واحد من هؤلاء أو غيرهم لم يأتوا بأدلةٍ تؤيد ذلك، فإننا لو أخذنا بأي قول من أقوالهم يكون بناء السد قبل منتصف القرن التاسع قبل الميلاد أي قبل حُكم أول مكرب بـ(١٥٠) عاما.

٣ـ ان زيارة مدينة مأرب التاريخية والآثار السبئية الموجودة على مقربة منها لتؤكد أن سد مأرب بُني قبل المكارب: فمدينة مأرب تقع على الضفة اليسرى لوادي إذنة بينما توجد أعمدة العرش والمحرم الذي يُنسب إلى بلقيس على الضفة اليمنى للوادي: فلو لم يكن السد مبنياً في عهد الملكة لأدى ذلك إلى انقطاع الملكة وأهل المدينة عن أداء شعائرهم الدينية عدة شهور (وهي فترة جريان الماء في الوادي الذي يفصل بين المدينة من جهة والمعابد من جهة أخرى).

---

(1) محمد يحي حداد، تاريخ اليمن السياسي ص ٨١

(2) سورة النساء الآية ٤٨

(3) انظر الباب الثاني، الفصل الثالث: مراحل الديانة السبئية

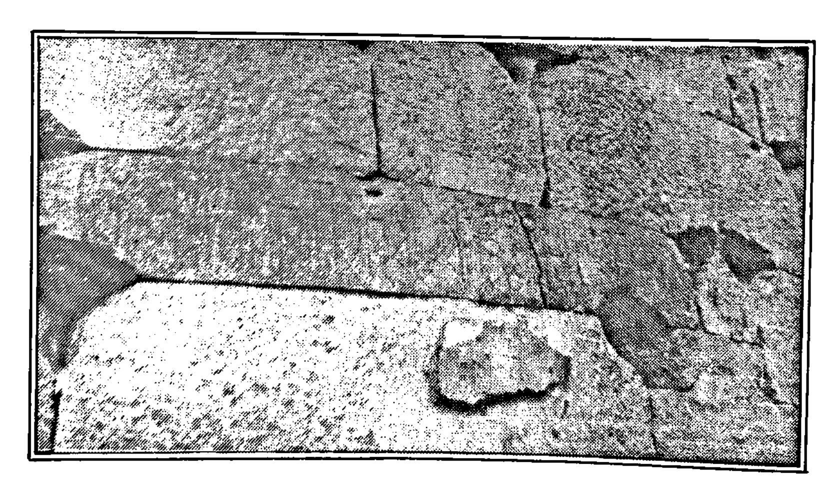
و ينطبق هذا الوضع على مكارب سبأ : فمعبد المقه في يمين الوادي وقد بناه يدع آل ذرح (ثاني مكارب سبأ والذي حكم قبل يثعمر أول المشتركين في بناء السد) ، فلو لم يكن السد مبنيا زمن يدع آل ذرح لصَعُبَ على المكارب وتابعيهم في صرواح ومأرب أداء طقوسهم الدينية ، ومعنى ذلك أن السد كان مبنيا قبل (يثعمر) أي انه لم يكن أول مساهم في بناء السد.

والخلاصة التي نصل إليها من الأقوال المختلفة والنصوص المدونة والآراء المتباينة حول بناة السد وتأريخ البناء الأول لسد مأرب ما يلي :

أولا : بداية بناء سد مأرب كانت في عهد سبأ بن يشجب أو ابنه حمير بن سبأ أو ملكة سبأ ، ولا ندري على وجه اليقين بعهد أيهم . إلا أنه من المؤكد أن السد كان مبنياً في عهد الدولة السبئية الأولى التي سبق أن ذكرنا أن ملكة سبأ آخر حكامها .

ثانيا : اشترك عدد من مكارب سبأ في بناء مصارف جديدة للسد بطرق هندسية مُتقنة . وكان أول المشتركين يثعمر بن سمه علي الذي قُدِّرت فترة حكمه ما بين (٧٢٢ـ ٧٠٥ق.م) .

والنتيجة التي ندونها في نهاية هذا الفصل أننا توصلنا إلى التوفيق بين أقوال مؤرخي العرب والنصوص المدونة على أنقاض سد مأرب ـ عن بناة هذا السد على اعتبار أن السد كان مبنيا قبل مكارب سبأ ، ثم جاء هؤلاء وأكملوا أو أضافوا أو أجروا تحسينات على السد حتى أصبح كالدرع الصماء .



صورة رقم (١) كتابات بالمسند تشير
إلى اشتراك كرب ال بن يثعمر في بناء سد مأرب



الفصل الثاني

تصدع سد مأرب وترميمه

رأينا في الفصل السابق أن بعض مكارب سبأ بنوا مصارف وأضافوا زيادات للسد. و يبدو أن هذا السد استمر فترة طويلة يؤدي مهمته بعد فترة حُكْم المكارب. وليس لدينا حتى الآن نصوص تشير إلى خراب أو تصدع حدث للسد إبان حكم مكارب سبأ وملوكها، وإنما هناك نصان يشيران إلى استمرار صلاحية السد:

النص الأول:

يشير إلى أن شعب سبأ أقيالا ومزاود ورؤساء قدّموا قربانا لمعبودهم المقه لما جاد عليهم بالمطر الذي أسقى البساتين والأراضي، وأنهم توسلوا لمعبوهم المقه حماية اذنة والعرم(١).

النص الثاني:

فيه إشارة إلى سقوط أمطار غزيرة أروت حقول مأرب وحدائقها، كما أن هذه الأمطار ملأت حوض السد دون أن تُحدِثَ في بنائه أي ضرر أو تصدّع. وفي نهاية هذا النص ذكرٌ للآلهة: المقه وعثتر وهوبس وذات بعدان وشمس الملك تنوف(٢).

والنص الأول لا يتضمن أسماء مكارب أو ملوك، إلا أن ورود (المقه) في النص ــ دون سائر الآلهة ــ يجعلُنا نظن أن النص كان في الفترة الأولى من حُكمِ دولة سبأ.

أما النص الثاني فهو في عهد شعر أوتر بن علهان نهفان، وهو من ملوك فترة الصراع على السلطة (فترة ملوك سبأ وذي ريدان) التي بدأت قبل عام (١٥ق.م) كما أسلفنا

ونخلص من هذين النصين أن السدّ كان صالحاً في عهد ملوك سبأ وأوائل عهد ملوك سبأ وذي ريدان.

الإصلاح الأول:

تنقطع أخبار السد بعد شعر أوتر حوالي قرن من الزمن. وفي هذه الحقبة الغامضة من تاريخ السد

(١) احمد شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٧ ص ٥٥

(٢) المرجع السابق نقش رقم ١٨ ص ٦٩

حدث خراب السد الأول. ولانعلم متى حدث هذا الخراب ولا أسبابه، وإنما لدينا وثيقة[1] تشير إلى أن ذمار علي يهبار وابنه ثاران قاما بترميم السد و بناء المواضع التي تخربت منه. وذمارعلي حكم حوالي السنة المائة بعد الميلاد[2].

الإصلاح الثاني:

و يستمر السد في أداء مهمته بعد إصلاحات ذمارعلي وابنه ثاران، و يبدو أن خرابا ثانيا للسد حدث بعدهما لانعرف أسبابه ــ ذلك ما يحدثنا به النقش رقم (٢٥) الذي أورده احمد شرف الدين[3] وفيه أن ثاران يهنعم وابنه ملك كرب يهامن بنيا سد حبابض ورحب وقاما بترميم المصارف المائية بينهما، كما بنيا العرم بمقدار سبعين شوحطا (باعا). و يرى جواد علي أن الأب وابنه حكما بين عامي (٣٥٠ــ ٤٠٠م)[4] وقد أتت ألقابهما في النصوص (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات) أي انهما من ملوك الدولة السبئية الثالثة.

الإصلاح الثالث والرابع:

والوثيقة الثالثة التي تُشير إلى خراب آخر للسد وإعادة بنائه هي تلك التي دُوِّنَتْ في عهد شرحبيل ابن يعفر (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهمو في الطود وتهامة). وقد نقل هذا النص وترجمه المؤرخ اليمني احمد شرف الدين. ولأهمية هذا النص وما يترتب عليه من تعليقات نسجله هنا كما ترجمه[5] المؤرخ المذكور: «شرحبيل ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهمو في الطود وتهامة بن أبي كرب أسعد قام بترميم العرم (سد مأرب) ابتداء من قرب (رحب) حتى (وصح) المقابلة لـ(عبران)، رممه مسارة (تطهيرا) وتشييدا من أسفله الذي يبتدئ من وادي طمحان، كما رمم ردم مذاب من أسفله وردم (جيلان تزن) التي خور مياهها وأحكم سد ثغرات السيل التي كان يسيح منها الماء في (تزن) التابعة للنمرين، وفيما يلي العرم أحكم بناءها من أساسها حتى القمة، كما أصلح وادي (يسرن) عمارة وتطهيرا من أسفله إلى قمته، وقدّام مدرجه، وقام بمثل ذلك في وادي (ذي مبران) من أساسه إلى القمة تطهيرا وعمارة لمساحة (٢٧) باعا مع اصلاح قناة السد التي يصرف منها الماء. كان هذا العمل بأيدى قبائل (كهلان) و(دثان).. تاريخ شهر (ذو ثبتان سنة ٥٣٥ (٤٢٠م).

وقام بردم كل الفلول والفتحات وترميم حوض السد وتطهيره وإصلاح الأرض التي تعتمد على السد كل من قبيلتي (حمير) و(حضرموت) الذين وردوا إلى مأرب لهذا الغرض، ولم يعودوا الا وقد

---

(١) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٥٢١

(٢) المرجع السابق، الجزء والصفحة

(٣) تاريخ اليمن الثقافي ص ٧٨

(٤) المفصل جـ٢ ص ٥٦٥

(٥) تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٩٥

اصبح السد من الصحة كالدرع الصماء. كان ذلك في اليوم الثاني بعد الخريف من نفس العام. و بلغ عدد المشتركين في هذا العمل من حمير وحضرموت الذين وردوا من أجله عشرين الف شخص، وبعد أن طهروا العرم شرعوا في بنائه بقوالب الصخر حتى بلغ ارتفاع السد (٦٠) باعا. و بعد الانتهاء من العمل عاد العلمانيوم والنمريون.. رؤسائهم، وتم له (أي الملك شرحبيل) إعادة بناء السد بحول وقوة إله السماء والأرض و بجهود الشعوب والقبائل الذين لبّوا نداء الملك للمشاركة في هذا المرفق. وقد استغرق هذا المجهود من المؤن والأرزاق: (٢٩٥٣٤٠) من أنواع الحبوب المطحونة وغير المطحونة من البر والشعير والذرة والتمر، و(١٣٦٣)... (١١٠٠) ذبيحة اخرى و(٤٠٠٠٣٠) غربا من السمن ودبس العنب والتمر.

تاريخه ٥٦٥ (٤٥٠م) ــانتهى النصــ

ومن تحليل هذا النص يتبين لنا نقاط في غاية الأهمية:

١ــ الخراب الثالث للسد حدث قبل شرحبيل، لكننا لانعرف أسبابه ولا سنة حدوثه. إلا أن النص يشير إلى اصلاحات للمصارف والقنوات في سنة (٥٣٥ حميرية) أي سنة (٤٢٠م)، وان هذا الترميم تم بأيدي قبائل كهلان.

٢ــ الخراب الرابع للسد حدث زمن شرحبيل أيضا. وقد كان الخراب في هذه المرة بجسم السد نفسه، وقد علمنا ذلك من نص العبارة (و بعد ان طهروا العرم شرعوا في بنائه بقوالب الصخر حتى بلغ ارتفاع السد ٦٠ باعا) وقد قام بهذا العمل قبائل حمير وحضرموت، وقد انتهوا من العمل عام ٥٦٥ حميرية[1] أي عام (٤٥٠م).

يعني أن الخراب الثالث لمصارف السد وترميماته والخراب الرابع لجسم السد وإصلاحه «بين الخرابين ٣٠ عاما» تمّت في عهد شرحبيل بن يعفر.

الإصلاح الخامس:

وآخر النصوص التي أشارت إلى آخر ترميم وإصلاح لسد مأرب هونص أبرهة الحبشي، وقد عُثر على هذا النص في أنقاض مأرب على عمود مكتوب عليه من واجهاته الأربع. وقد سألت عن هذا العمود أثناء زيارتي للسد، فقيل لي انه حُطّم.

وقد نقل هذا النص (جلاسر) النمساوي، وعنه أخذ جورجي زيدان وجواد علي، كما نقله زيد عنان مع إضافة بعض الكلمات على نص جلاسر.

ولأهمية هذا النص في إطار كتابنا ننقل ترجمته كاملة[2]، ثم نتناولها بالدراسة والتحليل:

---

(١) ينقص التاريخ الميلادي عن الحميري بـ(١١٥) سنة انظر جواد علي ــ المفصل جـ٢ ص ٢٦٦، جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٧٨

(٢) ترجمة احمد شرف الدين في تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ١١٠

«بخيل (بقوة) وردأ ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس، سطر هذا المسند (النقش) ابراهة عزلي ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهمو في الطود وتهامة. وأنه لما فسد وأخلف (وأعلن التمرد والفساد) في جزمان (بحضرموت) يزيد بن كبشه خليفته الذي استخلفه على (كندة) وسانده على التمرد أقيال سبأ (الصحاريين) وهم: مرة وثمامة وحنشه ومرائد وحفان ذو خليل، واليزينون ــ أقيال معدي كرب بن (السميفع) وم: هفان واخوته بنو اسلم ورؤساء ذي جرة ذو ذنبور ــ الذين زينوا له أن يكون ملكا بالمشرق وشجعوه على مهاجمة قلعة (كدار) ومحاربة حضرموت مع اتباعه حيث استولى على سلطات هجان المري الذي فر إلى عبران صارخا.

وما ان بلغه (أي ابرهة) النبأ حتى جمع جيشه من الأحباش والحميريين بتاريخ شهر القياض سنة ٦٥٧ (٥٤٢م)، وانفذ من (صرواح) فور وصوله إلى مشارف سبأ قائده على نبط نحو عبران. ولما وصل نبط إلى قلعة (كدار) ومعه خليفته (أي عامله) ذوجدان الذي اعذر المتمردين واجتمع بسادات كدار ثم عاهدهم بمحضر سادات (كدار) وعند ذلك جنح إلى الطاعة قبائل: (التراخم) و(العود) و(وخبش) و(مضرفة ذافان) بتاريخ شهر المذرا من نفس العام السابع. و بعد هذا العهد قدّم إليه سادة عرب (دا) و(جبأ) مع يزيد بن كبشه (الثائر المذكور في أول النقش) الذين بسطوا أيديهم للعهد، وقدموا رهائنهم إلى قلعة (كدار)، و بعد ذلك قدم الأقيال وكبراء تلك القبائل قاصدين الملك ابرهة.

وحينذاك كان قد بلغه الخطر الذي يهدد السكان كنتيجة لتصدع العرم بمأرب (أي سد مأرب) الذي بدأ التصدع يدب في جداره ومصارفه وما يتبع ذلك من المرافق والمزارع.

ولهذا عزم على ترميم السد وحدّد لقبائل اليمن موعدا لمباشرة العمل بشهر الصراب. وفي هذا الوقت المحدد ورد الملك مع العرب إلى مدينة مأرب حيث قدّسوا بيعتها (صلّوا فيها).

و بعد أن وزع العمل على القبائل بدأ بحفر أساس للعرم في أعماق الأرض (حتى) بلغ الصخر، فملأه بقطع الأحجار. إلا أن الشعوب وأهل المدن منهم أبدوا تظلمهم، ورأى من العدل أن يأذن لهم: أحباشهم وحميرهم. و بعد ذلك قدّم إليه أقيال وكبار (كدار) وسراتهم.. معاهدين الملك وابنه في مدينة مأرب.

كما ورد إليه عرب كنع ومعهم الأقيال والاعيان، وأكسوم ذو معاهر بن الملك، ومرجزاف ذورانح، وعادل ذوفيشان، وذوشولمان، وذو شعبان، وذو رعين، وذو همدان، وذو الكلاع، وذو ثاة وذو مهدن، وعلكم ذو يزن، وكبار حضرموت، وذو فرنة، وكوش كما وصل إليه وفد النجاشي، وملك الروم، وملك فارس، ومبعوثون من المنذر والحارث بن جبلة وابي كرب بن جبلة. كل هؤلاء وفدوا إليه طالبين رضاه بحمد الرحمن، ثم وردت القبائل في الموعد المحدد لهم مقدمين صلاتهم وذلك في نهاية (داذان). وممن جاء إليه بالأموال والمدد من القبائل: يعفر سبأ وسراة كنع ونظراؤهم وقد بنوا العرم من الأساس حتى القمة:

(٤٥) باعا طولا و(٣٠) باعا عرضا و(١٤) باعا ارتفاعا، ثم اتبعوا ذلك بتطهير العرم، وتلا ذلك تقديس البيعة.. و بلغت الأ رزاق التي انفقت خلال العمل: (٥٨٠٦٠) كيسا من الدقيق، (٢٦،٠٠٠) قدرا من التمر بتقدير يدع إل، كما طبخ (٣٠٠٠) ذبيحة من الابل والبقر والغنم، مع (٧٢٠٠)، من الضأن، وأهرق (٣٠٠) غربا من السمن، (١١١٠) غربا من عصير التمر (الدبس).

وكانت مدة العمل (١١) شهرا و(٢٨)يوما.

تاريخ كتابة النقش— شهر معان سنة (٦٥٨ح) أي (٥٤٣م) انتهى.

هذه ترجمة كاملة لنص ابراهة. و يهمنا من هذا النص الجزء الخاص بسد مأرب، وفيه نقاط مهمة عن تصدّع سد مأرب وخرابه وإعادة بنائه نبرزها فيما يلي:

١— التصدع الخامس لسد مأرب حدث زمن أبرهة لاقبله كما يفهم من العبارة: «و بينما كان يفكر في أمر بقية الثائرين جاءه النبأ بتصدع سد مأرب». وهذا هو التصدع الوحيد الذي أشير إلى تاريخه في سنة ٦٥٧ من تقو يم حمير أي سنة (٥٤٢م)، فالتصدعات الأ ربعة السابقة لهذا التصدع لم تشر النصوص إلى سببها أوتاريخها.

٢— استغرق العمل في إعادة بناء السد (١١) شهرا و(٢٨) يوما كما في النص. وكان بعض هذه الأشهرمن نهاية سنة ٦٥٧ (٥٤٢م)، والأشهر الأخرى في عام ٦٥٨ (٥٤٣م)، أي إن أبرهة قام بإصلاح واحد للسد تم على مرحلتين، ولم يقم بإصلاح السد مرتين.
يقم بإصلاح السد مرتين.

٣— خراب السد زمن أبرهة كان خرابا جزئيا ولم يتناول السد بأكمله، وقد فهمنا ذلك من المقاييس التي وردت في النص: فطول السد الذي بناه ابرهة (٤٥) أمما (والأمم في النصوص السبئية هو الذراع في اعتقاد المؤرخين، وانفرد احمد شرف الدين بأن اعتبر الأمم باعا كما في ترجمة النص. وسواء فُسّر الأمم بالذراع أو الباع يتأكد لنا أن ابرهة لم يبن إلا جزءا صغيرا من السد خاصة إذا عرفنا أن طول السد حوالي (٦٠٠) متر.

***

هذه جملة النصوص التي أشارت إلى تصدعات سد مأرب طوال تاريخه، وليس بِمُستَبعد أن يُعثر على نصوص في المستقبل تشير إلى تصدعات أخرى غير هذه.

ومن المؤسف أن هذه النقوش لا تشير إلى سبب التصدع، ولو أنها أشارت إلى ذلك لأمكننا معرفة وقت حدوث سيل العرم الذي أشار إليه القرآن الكريم. وما لنا إزاء ذلك إلا أن نعمد للتحليل والاستنتاج علّنا نستطيع تحديد زمن سيل العرم.

الفصل الثالث

خراب سد مأرب في القرآن الكريم

اختلاف في تأريخ حدوث سيل العرم :

ما اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون على حدث في تاريخ العربية الجنوبية كاختلافهم في تحديد زمن سيل العرم وتخريبه للسد : فحمزة الأصفهاني[١] يقول إنه حدث قبل الإسلام بأربعمائة سنة (أي في سنة ٢١٠م). ويرى ياقوت[٢] أن سيل العرم حدث في ملك حبشان (يقصد الأحباش)، والأحباش احتلوا اليمن مرتين : الأولى بين عامي (٣٤٠ــ ٣٧٨م)، والثانية بين عامي (٥٢٥ــ ٥٧٥م)[٣]، إلا أنه من المؤكد أن ياقوت يقصد الفترة الثانية المشهورة عند المؤرخين العرب، إذ أن الفترة الأولى لم تُعرف إلا من النقوش التي عُثِر عليها أخيرا.

ويرجع ابن خلدون[٤] خراب السد إلى عهد حسان بن تبان أسعد (من ملوك التبابعة). ومن رأى غوستاف لوبون[٥] أن خراب السد كان في القرن الأول الميلادي، وهذا رأى محمد احمد باشميل[٦] أيضا. ويقول سيدو[٧] إنه حدث عام عام ١٢٠م، ويؤكد فيليب حتى[٨] أن الكارثة الكبرى أشار إليها القرآن الكريم يترتب وقوعها بعد سنة ٥٤٢م وقبل سنة ٥٧٠م أي بعد إصلاح أبرهة للسد.

وبعد، فهذه أشهر أقوال المؤرخين العرب والمستشرقين عن تأريخ حدوث سيل العرم. ومن هذه الأقوال نُدرك صعوبة التحقق من زمن هذا الحدث الجلل، لاسيما وأنه لا توجد أدلة تؤيد واحدا منها. ونضيف إلى ذلك قول جواد علي ــ وهو من أكبر الباحثين في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ : «ولم يُحدّد الإخباريون زمان حدوث سيل العرم وتهدّم السد»[٩].

لقد تفحصت أقوال المؤرخين (في زمن حدوث سيل العرم) قولا بعد آخر، فلم أقتنع بواحد من

(١) تاريخ سني الملوك ص ١٠٨

(٢) معجم البلدان جـ٤ ص ٣٨٣

(٣) فيليب حتى تاريخ العرب جـ١ ص ٧٩، ٨٣

(٤) تاريخ ابن خلدون ــ المجلد الثاني ٢٥٣

(٥) حضارة العرب ص ٩٥

(٦) العرب في الشام قبل الاسلام ص ١٧٦

(٧) تاريخ العرب العام ص ٤٦

(٨) تاريخ العرب جـ١ ص ٨٥

(٩) المفصل جـ١ ص ٣٨٧

تلك الأقوال، مما حداني إلى إعادة البحث من جديد في القرآن وفي كتب التفسير وكتب التاريخ والنقوش السبئية عامة ونصوص سد مأرب خاصة ــ حتى وصلت إلى نتيجة تحدد لنا زمن خراب سد مأرب بفعل سيل العرم:

حدث هذا السيل في عهد شرحبيل بن يعفر (من ملوك التبابعة) و بالتحديد بعد عام ٤٢٠م وقبل عام ٤٥٠م.

وقد اعتمدت في الوصول إلى هذه النتيجة على مصدرين أساسيين هما القرآن الكريم والنصوص المُدونة. والخطوات التي سرت عليها للوصول إلى تحديد زمن سيل العرم مفصلة في الصفحات التالية:

أولا: القرآن الكريم:

من القرآن الكريم عرفنا أن سيل العرم حدث ولا ريب فيه، كما كانت نتائجه وخيمة على السد وعلى الجنان التي كانت ترتوي من مياهه. و يُفهم من القرآن الكريم أن خراب السد كان كلّيا، إذ أن الأرض الخضراء أُبدِلَت بأرض صحراوية ذات نباتات شوكية لافائدة منها. وكان ذلك السيل وتخريبه للسد وللجنتين معا عقابا من الله ــ عز وجل ــ لأهل سبأ جزاء كفرانهم لنعمه.

وكنا قد توصلنا في دراستنا الدينية إلى أن أهل سبأ كانوا على معرفة بالله جاحدين لنعمائه: و يعني ذلك أن سيل العرم حدث في فترة عرف فيها السبئيون عقيدة التوحيد، ورأينا كذلك أن هناك فترات ثلاثا كان السبئيون على معرفة بالخالق فيها:

الأولى في عهد سبأ وابنه حمير، والثانية بعد إسلام ملكة سبأ، والثالثة في وقت متأخر من حكم الأسرة الحميرية (الدولية السبئية الثالثة) بعد دخول اليهودية والنصرانية لليمن.

ولن يكون حدوث سيل العرم في الفترة الأولى والثانية، لأننا متأكدون أنّ السد كان صالحا طوال فترة حُكم مكارب سبأ وملوكها الذين حكموا بعد فترتي التوحيد الأولى والثانية.

إذن بقي علينا البحث في الفترة الثالثة التي عرف فيها السبئيون عقيدة التوحيد فمتى بدأت هذه الفترة؟

النصوص(١) التي تعود إلى عهد شمر يهرعش (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنه) تنتهي بالتوسُّل للمقه، وقد حكم شمر هذا حوالي عام (٣٠٠م)(٢) وجاء بعد شمر يهرعش عدّة ملوك منهم: ذمار علي يهبر وابنه ثاران يهنعم. وفي عهد ثاران يهنعم وابنه (ملك كرب يهمن) تم إصلاح

---

(١) مطهر الارياني، تاريخ اليمن نقش رقم ٢٠ ص ١٥٨

(٢) ديتلف نيلسون، التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ١٠٧

السد بعد خرابه الثاني كما أسلفنا ، وقد جاء في النص(١) أنهم حمدوا الإله المقه لأنه أجاب دعوتهم وحبس الأمطار حتى أتمّوا إصلاح السد، وقد حكم هذا الملك وابنه بين عامي (٣٥٠ـ ٤٠٠م) كما مرّ معنا في الإصلاح الثاني للسد، كما أنّ الاحتلال الحبشي الأول لليمن تم في عهد هذين الملكين، و بقي هذا الاحتلال (الحبشي) فترة من الزمن إلى أن تمكّن الابن: ملك كرب يهمن من طرد الأحباش عام ٣٧٥م كما أشار إلى ذلك النقش الذي عُثر عليه في مأرب(٢).

إلا أن ملك كرب يهامن تجاهل ــ بعد ذلك ــ ذِكْرَ المقه وتقرّب إلى إله جديد هو الإله (ذى سموى) أي الإله رب السماء(٣) ولاشك أن ظهور هذه العقيدة الجديدة في هذه الفترة بالذات، كان بتأثير النصرانية التي واكبت الاحتلال الحبشي الأول، وإن كان جواد علي(٤) يعتقد أن أثر النصرانية جاء عن طريق البعثة التي أرسلها القيصر قسطنطين الثاني (٣٥٠ـ ٣٦١م) إلى العربية الجنوبية لنشر النصرانية بين أهلها.

وسواء أكان ظهور هذه العقيدة بتأثير الاحتلال الحبشي أو عن طريق بعثة قسطنطين، فإن الذي يهمنا أن نصل إليه هو: نهايةُ عبادة المقه، و بداية عقيدة التوحيد كانت في عهد ملك كرب يهامن حوالي عام ٣٧٥م. ومعنى ذلك أن خراب السد بفعل سيل العرم حدث بعد عام ٣٧٥م.

ولابد لهذه العقيدة الدينية الجديدة من فترة زمنية لتتعمق في النفوس وتتبلور في الأذهان. وهكذا كانت في عهد شرحبيل بن يعفر واضحة جلّية كما في نصه: «بنصر و بعون الإله ربّ السموات والأرض» ومن هذه العبارة نفهم أن عقيدة التوحيد كانت سائدة زمن هذا الملك. ولمّا كنّا على يقين من حدوث خرابٍ للسد ــ لايُعرف سببه ــ زمن شرحبيل، فمن المرجح أن يكون هذا الخراب بفعل سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

ثانيا: النصوص:

نؤكد حدوث سيل العرم زمن شرحبيل من النصوص التالية ومن نصه الذي مر معنا في الفصل السابق. وهذا التأكيد يقوم على الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:

الذين تأثروا بخراب السد أكثر من غيرهم هم قبائل كهلان القاطنين بجوار السد: ولنتمعن في هذين النصين: (٥)

(١) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٧٨

(٢) محمد حداد، تاريخ اليمن السياسي ص ١٠١

(٣) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٥٦٧

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٥) تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٧ ونقش رقم ٨ ص ٥٥، ٥٦

١ــ «شعب سبأ أقيالا ومزاود ورؤساء وكل سادات مأرب قدّموا تقر با لمعبودهم ثهوان سيد قبيلة أوام تمثالا من الذهب لما جاد عليهم في برق الدثا والخريف، وليستمر المقه في حراسة وحماية اذنة والعرم و بساتينها وأهلها عبيد المقه».

٢ــ «شعب (سبأ ــ كهلان) سادات مدينة مأرب وسراتها وأقيالها ومزاودها قدّموا ــ تقر باــ لسيدهم المقه تمثالا من الذهب، لما جاد به على عبيده: قبائل سبأ من السقي الذي أفعم أرضهم..».

واضح من النصين أن المستفيدين من سد مأرب هم قبائل كهلان، وهذا لايتعارض مع أقوال المؤرخين بأن خراب السد بفعل سيل العرم سبّب هجرة الأ زد، لأن الأ زد فرع من كهلان كما يُجمع النسابون.

الخطوة الثانية:

رأينا أن شرحبيل قام بإصلاحين للسد: الأ ول يوافق عام ٤٢٠م والثاني في عام ٤٥٠م أما لماذا جمع شرحبيل بين الإصلاحين ــ رغم أن بينهما (٣٠) عاما ــ في نص واحد فنحن بين احتمالين:

١ــ إما أن يكون القسم الأ ول كُتِبَ عام ٤٢٠م وأُكمِلَ القسم الثاني فيما بعد.

٢ــ أو أن شرحبيل جمع بين الإصلاح الأ ول والثاني في نص واحد كتبه عام ٤٥٠م.

و يهمنا في الإصلاح الأ ول الذي تم عام ٤٢٠م نقطتان أساسيتان:

الأ ولى: أن خراب السد لم يكن كلّيا، فقد ذكر النص ترميم أجزاء من السد قرب (رحب) وترميم ردم (مذاب) و(جيلان تزن) وإصلاح وادي يسرن وقناة السد[١].

الثانية: يذكر النص ان العمل كان بأيدي قبائل كهلان. ولا عجب لذلك فهم أصحاب السد وأهل الأ رض.

إذن رُمّ السدُّ عام ٤٢٠م بأيدي قبائل كهلان التي كانت لا تزال في موطنها بجوار السد، وهذا يعني أن سيل العرم لم يكن قد حدث قبل عام ٤٢٠م.

الخطوة الثالثة:

أما الخراب بفعل سيل العرم فقد حدث بعد ترميم السد السابق ــ ترميم عام ٤٢٠م ومعتمدنا على ذلك ما يلي:

١ــ الخراب الذي حدث بعد ترميم عام ٤٢٠م كان خرابا كلّيا كما جاء في القسم الثاني من نص شرحبيل «و بعد أن طهروا العرم شرعوا في بنائه بقوالب الصخر». وهذا يوافق ما يفهم من قوله تعالى: «فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل).

---

(١) انظر نص شرحبيل ص ١١٩

٢ــ سيادة عقيدة التوحيد زمن شرحبيل عند السبئيين، وهذا يوافق ما وصلنا إليه من أن سيل العرم حدث في فترةٍ كان أهل سبأ على معرفة بالخالق فيها.

٣ــ لم تشترك قبائل كهلان في إصلاح السد بعد هذا الخراب، وإنما اشتركت قبائل حمير وحضرموت كما ورد في نص شرحبيل المذكور.

وعدم اشتراك قبائل كهلان يوافق ما جاء في القرآن الكريم «ومزّقناهم كلّ ممزق» و يوافق أيضا ما ذكره المفسرون والمؤرخون بهجرة قبائل الأزد الكهلانية.

هذا وإن كنا قد حددنا الفترة التي حدث بها سيل العرم ــ بعد عام ٤٢٠ م وقبل عام ٤٥٠ م ــ إلا أننا لانستطيع أن نحدد السنة التي حدث بها هذا السيل. وإننا نأمل أن يُعثر على نقش أو نقوش في المستقبل القريب تحدد لنا عام سيل العرم أو على الأقل تساعدنا في تحديد ذلك العام بالضبط.

* * *

ولما كان زمن خراب السد بفعل سيل العرم مشكلة شغلت المؤرخين، فإن تحديدنا السابق لخراب السد (بذلك السيل) سوف يُقابل بدراسة وتحليل وربما اعتراضات من الباحث أو المتتبع لتاريخ عرب الجنوب. ونتوقع أن تتناول الاعتراضات الجانبين التاليين:

١ــ الفترة التي حددناها لتهدم السد بسيل العرم ضِمْن حُكم الدولة الحميرية (كما يسميها المؤرخون) في حين أن المصيبة حلّت بالسبئيين كما نص القرآن الكريم.

٢ــ الجانب الثاني يدور حول أقوال المؤرخين في وقت خراب السد بفعل سيل العرم، وعدم أخذها بعين الاعتبار.

وللرد على ذلك نقول:

الجانب الأول:

١ــ إن الله عز وجل يذكر الأقوام باسم جدهم الأكبر الذين يرجعون في نسبهم إليه وفي نصوص القرآن الكريم شواهد على ذلك: قوم عاد وثمود (نسب القوم إلى جدهم الأكبر)، وآل ابراهيم (يجمع بين أبناء اسماعيل واسحاق). وفي القرآن بنوا اسرائيل (وهم نسل يعقوب الذي هو اسرائيل)، وكذلك سبأ يجمع بين أولاد حمير وأولاد كهلان ــ وقد ذكرهم الله عز وجلّ ــ بسبأ: أيام ملكة سبأ وأيام سيل العرم وأيام تجارتهم الآمنة.

٢ــ وفي حديث فروة بن مسك المرادي (كما سيأتي نصه): «ان الرسول سئل عن سبأ، فقال عليه السلام: رجل ولد عشرة من العرب..» جاء ذكر حمير في الحديث من ضمن أولاد سبأ ــ مما يؤكد أن سبأ كان يُطلق على العرب الذين يرجعون في نسبهم إلى سبأ بن يشجب.

٣ــ لم يُعثر حتى الآن على نص باسم «ملك أو ملوك حمير» وإنما هم في النصوص «ملوك سبأ وذي

ريدان وحضرموت ويمنات» حتى أبرهة الحبشي تلقب بهذا اللقب. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن تسمية مملكة حمير وملوك حمير جاءت في وقت متأخر لا علم لشمر يهرعش ولا شرحبيل يعفر ولا غيرهما بهذه التسمية.

و بناء على ما سبق يصبح الاعتراض (على أن شرحبيل من ملوك حمير في حين أن النكبة حلّت بالسبئين) لا مكان له، لأن شرحبيل نفسه من السبئيين أصلا. وحتى لو أصر بعضهم على أن شرحبيل حميري ولا يمت للسبئيين بصلة، فيمكن القول في هذه الحالة ان النكبة حلت بالسبئين إبان حكم شرحبيل!!

الجانب الثاني:

أما الاعتراض بأقوال المؤرخين وعدم الأخذ بها في هذا المجال، فيلزم تناول أقوالهم:

ذكرنا أن خراب السد بفعل سيل العرم حدث في فترة كان السبئيون على معرفة بالخالق فيها، وتأكدنا من النصوص أن بداية ذلك كان في عهد ملك كرب يهامن حوالي عام ٣٧٥م وعلى هذا، فإن أقوال بعض المؤرخين بخراب السد قبل عام ٣٧٥م يصبح أمرا مستبعدا.

يبقى عندنا رأي ابن خلدون ورأي ياقوت، وهما وإن لم يتفقا في تعيين زمن خراب السد بسيل العرم، إلا أن أقوالهما تُرجع زمن حدوث سيل العرم إلى ما بعد عام ٣٧٥م ولهذا لابد من النظر في أقوالهما:

أـ ابن خلدون يرى أن الخراب المقصود، حدث(١) زمن حسان بن تبان أسعد ابي كرب، إلا أنه يقول في مكان آخر(٢)«وتبان أسعد أبو كرب هو تُبّع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة، ملك بعده ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر: كان ابو حارثة تخلّف باليمن بعد خروج أبيه (عمرو بن عامر الذي قاد قبائل الأزد المهاجرة من مأرب بعد سيل العرم)».

وهنا تناقض واضح في أقوال مؤرخنا الكبير: فكيف يكون حدوث سيل العرم وخراب السد زمن حسان بن تبان أسعد أبي كرب، في حين أنه (أي حسان) حَكَم بعد ربيعة بن نصر حفيد عمرو بن عامر قائد الأزد الراحلين من مأرب بعد سيل العرم!!

و يُضاف إلى هذا، عدم العثور على نصوص تشير إلى خراب أو إصلاح للسد زمن حسان، وهذا ما يجعلنا نستبعد رأي ابن خلدون في أن سيل العرم حدث زمن حسان بن تبان.

بـ ونأتي أخيرا إلى رأي ياقوت في أن سيل العرم حدث في ملك حبشان. وقد أخذ برأيه بعض المؤرخين وحدّدوا ذلك زمن أبرهة الحبشي. غير أننا نستبعد هذا الرأي كما استبعدنا غيره للأسباب التالية:

١) خراب السد الذي حدث ـ بالتأكيد ـ زمن أبرهة كان خرابا جزئيا (كما رأينا في

---

(١) تاريخ ابن خلدون، المجلد الثاني ص ٢٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥١

نص ابرهة)[1] فقد ذكر أن طول السد الذي بناه (٤٥) أمما (باعا أو ذراعا) بينما كان الخراب بفعل سيل العرم خرابا كليا ، فإذا علمنا أن طول سد مأرب حوالي (٦٠٠) متر تأكد لنا أن الخراب الذي حدث زمن أبرهة الحبشي غير الخراب المقصود في القرآن الكريم .

٢) غزوة أبرهة الفاشلة لمكة كانت قريبة العهد ، عرف تفاصيلها المسلمون وكُفار مكة ، بينما جاءت قصة سبأ وسيلها وكأنها لم تعرف عند كثير من الناس ، فقد سأل أحد المسلمين الرسول (عليه السلام) عن سبأ أرجل أم أمرأة أم أرض ـ كما جاء في الحديث . وهذا يوحي بأن الحدثين : غزوة أبرهة لمكة ، وسيل العرم ـ حَدَثا في فترتين متباعدتين .



(١) انظر النص ص ١٢٠

الفصل الرابع
أسباب خراب سد مأرب

سبب الخراب عند المؤرخين العرب:

أغرزُ مادةٍ كُتِبت، وأطرف حكاية رويت في تاريخ عرب الجنوب هي قصة خراب سد مأرب من الفئران. وعند البحث عن أسباب خراب السد لابدّ من التطرُّق لهذه القصة لا لغرابتها، بل لأنها وردت في معظم كتب التفسير وكتب التاريخ فغدت كأنها حقيقة ليس من السهل نفيها.

وخلاصة هذه القصة كما رواها ابن هشام:(١)

«وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ــ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ــ أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لابقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة من اليمن.

والقصة بصيغتها هذه مقبولة من ناحية عقلية، فالفئران تعمل عملها في البيوت والمنشآت فتحفر جحورا قد تتسرب فيها المياه فتضعف أسس الأبنية القريبة من تلك الجحور، فإذا ما تعرّضت بعد ذلك لأحد عوامل الطبيعة كالرياح أو الأمطار أو السيول ــ تكون أكثر عرضة للانهيار أو التصدّع من غيرها.

إلا أن كثيرا من المؤرخين زادوا في هذه القصة زيادة أدخلتها في عالم الأساطين. فابن المجاور(٢) يروي أن أنياب تلك الفئران كانت من حديد!! وآخرون ذكروا أن تلك الفئرات كانت تقلب بأرجلها صخورا لا يستطيع قلبها عدة رجال!!

وإن كانت الأمم ــ في مختلف الأزمنة والأمكنة ــ لاتخلو عادة من أساطير متداولة بين أفرادها، فإن وجه الغرابة في هذه القصة ورودها في مؤلفات مؤرخين محققين: كابن خلدون دون تعليق منه. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن أصل هذه القصة، وسبب الإصرار على ذكرها ومن ثم مقدار صحتها.

يبدو أن هذه القصة ظهرت بعد الإسلام، ذلك أن سبب خراب السد عند شعراء الجاهلية هو السيول الجارفة لا الفئران، وفي ذلك يقول الأعشى:(٣)

---

(١) السيرة، جـ١ ص ١٣

(٢) صفة بلاد اليمن ــ القسم الثاني ص ١٩٥

(٣) الهمداني، الإكليل جـ٨ ص ٥٤

فـفـي ذاك لـلـمُـؤْتـسِـي أُسْـوة ومـأربُ قـفّـى عـلـيها العرم
رخـــامٌ بـــنـــاه لــــه حمير إذا جـاء مـاؤهـم لـم يـرم
فـأرْوى الحـروث وأعـنـابَـهـم على سـاعـة مـاؤهـم ينـقـسـم
فـعـاشـوا بـذاك في غـبـطـة فـجـار مـنـهـم جـارف منـهـزم

واضح من هذه الأ بيات أن سبب خراب السد هو السيل الجارف.

أما في العصر الإسلامي فخراب السد من الفأر لا السيل، إذ نجد خالد بن صفوان التميمي يَرُدُّ على رجل من أهل اليمن كان قد فخر عليه أمام السفاح (١٣٢—١٣٦ هـ):

«ليس فيهم ياأمير المؤمنين إلا دابغ جلدٍ أو ناسج بُردٍ أو سايس قِردٍ أو راكب عرد، غرّقتهُم فأرة، ومَلكتهُم إمرأة ودلّ عليهم هُدهد»(١).

كما أورد حكاية الفأر هذه، ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) وسادت هذه القصة بعد ذلك في كتب المؤرخين الإسلاميين.

والسؤال: لم سادت قصة الفأر وتخريبه للسد في العصر الاسلامي ولم تكن كذلك في العصر الجاهلي ؟؟

لعلّ تفسير كلمة «العرم» الواردة في القرآن الكريم هو الذي أوحى لهم بتلك القصة. فكلمة العرم لها معانٍ عدّة، وأحد هذه المعاني: الفأر، وعلى هذا المعنى يكون سيل العرم خرّب السد، وما دام العرم هو الفأر يكون سبب خراب السد هو الفأر، و بالطبع لابدّ أن تُحاك القصص عن كيفية خراب السد من الفأر.

أما في الجاهلية فقد كان بعض الشعراء على صلة أو معرفة باليمن، فيعلمون أن كلمة العرم تعني السد، قال أمية بن الصلت:

مـن سـبـأ الحـاضـريـن مـأرب إذ يـبـنـون من دون سيـلـه العَرِما(٢)

وهذا البيت شاهد على أن العرم هو السد، و يُضاف إلى ذلك ما مرّ في قصيدة الأعشى من أن العرم من بناء حمير.

فالعرم لدى شعراء الجاهلية هو السد لا الفأر، ولهذا لم تأت قصة الفأر وتخريبه للسد في أشعارهم.

أما لماذا تداول قصة الفأر وتخريبه للسد مؤرخون محققون كابن خلدون و ياقوت، فيبدو أن السبب في ذلك أنهما اعتبرا تلك القصة آية، وأوضحهم ذكرا لهذا الاعتبار: ياقوت الحموى،

(١) ياقوت، معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٨٧
(٢) ابن هشام، السيرة جـ١

قال: ([1])

«ففجرته (أي السد) فأرة ليكون أظهر في الأعجوبة ، كما أفار الله الطوفان من جوف التنُّور» .

ونخلص من أقوال مؤرخي العرب أن هناك ثلاثة آراء عن سبب خراب سد مأرب تسير في اتجاهات ثلاثة :

الأول: أن الخراب حصل بسبب الفئران التي فعلت فعلتها بالسد حتى نقضته . وتتفق الروايات والحكايات بله الأساطير المبثوثة في كتب المؤرخين مع هذا الاتجاه . ولايزال سكان مأرب يعتقدون بهذا السبب في تخريب السد ولا يقبلون غيره .

الثاني: وقد أخذ أصحابه بجانب قصة الفأر، وأضافوا عاملا آخر لخراب السد هو السيل الوارد ذكره في القرآن الكريم . وحتى يتم التوفيق بين العاملين اعتبروا اشتراك الفأر في الخراب آية ليكون أظهر في الأعجوبة وأوضح مثال للموعظة . وهذا رأي ياقوت كما أسلفنا .

الثالث: الخراب كان بفعل السيول الجارفة ، وقد وجد هذا الاتجاه لدى شعراء الجاهلية الذين ذكروا خراب السد . ولأن هؤلاء أقرب عهدا لخراب السد كانوا أقرب للواقع عند اشارتهم لسبب الخراب .

سبب خراب السد عند المستشرقين:

أما المستشرقون فقد أنكروا رواية الفأر وتخريبه للسد واعتبروها اسطورة منمّقة ، بل أخذوا بجانبها الأبعد ــ كتحريك الفأر للحجارة الضخمة ــ على سبيل التهكم والسخرية .([2])

ولما كان العقل البشري محدوداً لايتعدى نطاق المحسوسات والمرئيات والإمكانيات ، فإن للمستشرقين العذر في إنكار حكاية الفأر وما صاحبها من مبالغات غير معقولة .

وكان لابدّ للمستشرقين أن يبحثوا عن أسباب أخرى لخراب السد بعد أن أنكروا حكاية الفأر . لكنهم لم يتوصلوا للسبب الحقيقي لخراب السد المقصود في القرآن الكريم . و يعود سبب اخفاقهم في ذلك : أنهم اعتبروا سبب ذلك الخراب كأي سبب عادي يخرب السدود والمنشآت والبنايات ، ولم يتفهموا ــ بقصد أو بدونه ــ ان الخراب المقصود : كان عقابا من الله لأهل السد .

ونستعرض آراء المستشرقين المختلفة في سبب خراب السد المقصود :

كيتاني: يرجع خراب السد إلى فعل الجفاف الذي أثّر في السد .([3])

ولك أن تتساءل : كيف يكون الجفاف سببا في خراب السد؟ وهل كان هناك جفاف؟ وإذا كان الجفاف حاصلا فما الحاجة إلى بناء السدود؟

---

(١) معجم البلدان ، جـ٤ ص ٣٨٧

(٢) فيليب حتى ، تاريخ العرب جـ١ ص ٨٦

(٣) جواد علي ، المفصل جـ١ ص ٢٤٦

لقد كفانا الرد على هذه التساؤلات النص التالي: ([1])

«شعب سبأ قدم قربانا للمقه للسقي الهنيء الذي أروى كل منطقة مأرب من حقول وحدائق، وأفعم اذنه دون ان يحدث في بنائه أي ضرر أو تصدع»

فهذا النص يشير بصراحة إلى خوفهم على سدهم (من الخراب) بفعل الامطار لا الجفاف كما يقول كيتاني.

أما موزل([2])، فيرى أن خراب سد مأرب يرجع إلى أسباب متعددة منها:

١ ـ ضعف الحكومة

٢ ـ تدخل الحكومات الخارجية في شؤون العربية الجنوبية

٣ ـ تحوُّل طرق التجارة

وهذه العوامل مناسبة لانهيار دولة لا انهيار سد. فإن كان السد قائما ابّان قوة الدولة، فلا شك أنه يستمر في أداء عمله ولا يضعف بضعفهما. أما إن تصدّع السد في فترة ضعفها، فعندها فقط تعجز الدولة عن ترميمه. غير أن الدولة في عهد شرحبيل لم تكن ضعيفة، بل كانت أقوى من أي وقت مضى.

وتدخل الحكومات الخارجية ـ من أحباش وفرس ـ جاء في وقت متأخر عن زمن خراب السد، اللهم إلا تلك الحملة الرومانية الفاشلة عام ٢٤ق.م وهي قبل خراب السد بقرون. أما تدخل الأحباش الأول (٣٤٠ ـ ٣٧٨م) فهو قبل فترة حكم شرحبيل (الذي ذكرنا أن خراب السد بسيل العرم حدث في عهده).

وكذلك تحول طرق التجارة لا يعاصر خراب السد، فقد بدأ هذا التحول عام (٢٨٥ ـ ٢٤٦ق.م) عندما حفر بطليموس الثاني قناة بين النيل والبحر الأحمر([3]).

و يضيف فيليب حتى([4]) عاملا آخر إلى ما ذكره موزل وهو: المؤثرات الدينية التي دخلت للعربية الجنوبية. بيد أننا رأينا كيف تقبل ملك كرب يهامن ومن بعده شرحبيل ديانة التوحيد دون ضجة أو صراع أو مقاومة، ونضيف إلى ذلك أن المنازعات الدينية كانت في وقت متأخر عن زمن خراب السد، فقد كانت زمن يوسف ذي نواس الذي انتزع منه الأحبار حكم اليمن عام ٥٢٥م

ويميل فيلبي([5]) إلى اعتبار الكوارث الطبيعية ـ كالزلازل والبراكين ـ هي السبب المباشر

---

(١) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ ص ٧٠

(٢) جواد علي، المفصل جـ١ ص ٢٤٦

(٣) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٧٧

(٤) المرجع السابق ص ٨٥

(٥) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٥٨١

لخراب السد المقصود.

وان كان للزلازل والبراكين أثرها الذي لايُنكر في هدم المنشآت والمباني فإن الاعتقاد أنها لم تكن سببا في خراب السد اعتمادا على التحليل التالي:

١ــ إن كان ظن فيلبي أن الزلازل هي السبب، فيترتب على ذلك خراب للسد وللمصارف المجاورة للسد. وان قيل لعل المركز السطحي للزلزال كان في وسط مجرى الماء (الوادي) فخرّب السد دون المصارف المجاورة للوادي، قلنا إن الزلزال الذي يهدم السد لابد ــ على أقل تقدير ــ أن يشقق البناء الملاصق للسد وهو المصارف اليمنى، وهذا ما لم نلاحظه في أبنية المصارف اليمنى التي لا تزال كما بناها سمه علي و يثعمر شامخة كأنها بنيت بالأمس القريب.

٢ــ وان اعتقد فيلبي أن البراكين هي المسببة في خراب السد، فإن الزائر لمنطقة السد لا يشاهِدُ آثارا لنشاط بركاني ــ كمقذوفات بركانية أو رماد بركاني ــ في السد أو جواره. وان اعتقد بعضهم بأن الآثار البركانية غطتها الأتربة والرمال التي حملتها الرياح والمياه لمنطقة السد، فإن هذا الاعتقاد يمكن ان ينطبق على ما في الجنة اليمنى أو اليسرى ولا ينطبق على المصارف والقنوات التي ترتفع نسبيا عن دائرة تأثير الرياح والمياه. فلو تعرضت منطقة السد لآثار بركانية لأمكن مشاهدتها حول المصارف أو القنوات على الأقل.

إذن لم يقبل المستشرقون أخبار العرب عن سبب خراب السد، فاجتهدوا بالبحث في أسباب أخرى تكون أكثر قبولا عند العقل، فعرضوا جملة أسباب منطقية للخراب. ومع أن الأسباب التي عرضوها يمكن أن يكون بعضها أو كلها سببا في التصدعات المتعددة للسد، فإن أيا من تلك الأسباب لايمكن أن يكون سببا في خراب السد المعني في القرآن الكريم.

السبب الحقيقي لخراب السد المقصود في القرآن الكريم:

الشيء الذي يثير الدهشة هو إصرار مؤرخي العرب على أن الفأر هو السبب في خراب سد مأرب المقصود في القرآن الكريم، والشيء الآخر الذي يستحق الشفقة هو بحث المستشرقين المطول عن سبب الخراب دون الوصول إلى نتيجة صحيحة.

إن سبب الخراب واضح جلي، لايحتاج إلى بحث أو تفكير، فقد خبرنا الله في كتابه العزيز عن سبب الخراب فقال تعالى: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم..» الآية(١).

فأهل سبأ أعرضوا عن شكر الله فيما أنعم عليهم، فأرسل عليهم سيلا جارفا خارقا للعادة حطّم سدهم الذي كان سبب تلك النعم.

وعندما نؤكد أن ذلك السيل المرسل هو السبب الوحيد الذي خرّب السد، فإننا لن نبحث عن

(١) سورة سبأ، الآية ١٦

أسباب أخرى ما دام هناك نص صريح في القرآن، فلا اجتهاد مع النص : وهذه قاعدة فقهية.

وقد يقول بعض الباحثين: ما المانع أن يكون لمرور الزمن أو الإهمال أو ضعف الحكومة أو الفئران أثر في إضعاف السد بحيث كان من السهل على سيل العرم تخريب السد؟

والجواب على ذلك: أننا لانقبلُ ولن نقبلَ اعتبار هذه العوامل مساعدة لسيل العرم في تخريبه للسد، لأننا لو قبلناها لأمكن القول: لو لم تكن هذه العوامل موجودة لأصبح من الصعب على سيل العرم تخريب السد. وهذا خطأ، فنحن على يقين بأن سيل العرم كان لابد أن يخرب السد مهما كانت متانته، ومهما كانت قوة القاطنين حوله، وسواء وجدت الفئران أم لم توجد ـ ذلك أنه عقاب مرسل من الله عزّ وجلّ ـ «وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له».

فسيل العرم هو السبب الوحيد والمباشر لخراب السد المقصود في القرآن الكريم ولن نبحث عن سبب غيره أبدا: (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم).

وتبارك الله اصدق القائلين.



الفصل الخامس
نتائج خراب سد مأرب

الموضوع الذي يتبادر للأذهان عند ذكر خراب سد مأرب هو ـ بلا جدال ـ موضوع الهجرات من جنوب الجزيرة العربية، وأشهرها هجرة الأزد المرتبطة ارتباطا وثيقا بخراب سد مأرب.

غير أن هناك هجرات أخرى خرجت من جنوب الجزيرة، فهل لها علاقة بالانفجارات والتصدعات المتعددة لسد مأرب أم لا؟

فإن كانت هناك علاقة بين تلك الهجرات وخراب السد، فمتى خرجت تلك الهجرات؟ وما هو تفسيرنا لهجرات قبل خراب السد؟ وهل كانت منطقة مأرب تستوعب تلك الأعداد الهائلة قبل هجرتهم؟

وإن لم تكن هناك علاقة لتلك الهجرات بخراب السد، فما أسبابها ما دام جنوب الجزيرة العربية أوفر حظاً في مياهه وتربته من بقية أنحاء الجزيرة المُهَاجرَ إليها؟

إن هذه التساؤلات تحتم علينا دراسة موضوع الهجرات المتوالية من جنوب الجزيرة من ناحية: أسبابها وزمان حدوثها ومآلها، ثم معرفة تلك التي لها علاقة بخراب السد من غيرها.

الهجرات المتتالية من جنوب الجزيرة وصلتُها بخراب السد:

لاشك ان أسباب ودوافع الهجرات من جنوب الجزيرة تختلف عن دوافعها من وسط الجزيرة وشمالها. فإن كان من السهل إرجاع سبب هجرة القبائل الشمالية إلى عامل الجفاف الذي ينتابُ الجزيرة في فترات معينة، فإن معرفة أسباب هجرة القبائل الجنوبية أكثر تعقيداً ما دام لاينطبق عليها الجفاف تماما كبقية أنحاء الجزيرة.

فقبائل الجنوب مستقرّة، ذاقت طعم ملكية الأرض، وعرفت أن لكل منها حدوداً لا تتعداها. و بالطبع فإنها لن ترحل عن أرضها إلا لظروف قاهرة تُجبرها على الرحيل، هذه الظروف الظاهرة تمثلت في انفجارات السدود تارة، والحروب المستمرة بين القبائل أو دول الجنوب تارة أخرى.

وقد أسهب المؤرخون في تفاصيل الهجرات المصاحبة لخراب سد مأرب حتى طغت أخبارها على بقية الهجرات الأخرى، فأصبحت الهجرات الجنوبية مرتبطة بخراب سد مأرب رغم أن هناك هجرات لاعلاقة لها إطلاقا بخراب هذا السد.

وهذه محاولة ـ لترتيب الهجرات من جنوب الجزيرة حسب قدمها الزمني، وتحديد أسبابها ودوافعها ومن منها لها علاقة بخراب سد مأرب.

أولا: هجرة الولاة:

مات سبأ بن يشجب عن مملكة واسعة، وكان قد أوصى قبل وفاته لابنه حمير بالمُلْك، ولابنه كهلان بحماية الثغور وقيادة الجيش. ولهذين الرجلين يرُجع النسابون معظم قبائل جنوب الجزيرة العربية.

عيّن كهلان ـ بأمر حمير ـ ولاةً على الأقاليم الشمالية التي كانت تتبع الدولة السبئية الأولى، فجرهم تولى أمر الحجاز، والمميبم بن عاصم الجديسي على اليمامة، وعمر بن جحدر على تيماء وما جاورها(١).

هذه أول إشارة لانتقال أسر أو قبائل يمنية من جنوب الجزيرة إلى شمالها ووسطها. وقد استقينا أمر هذا الارتحال من كتب المؤرخين العرب، وليس لنا أن نؤكد هذا القول أو ننفيه، إذ لا توجد لدينا نصوص تشير إلى هذه الهجرة، غير أن نزول اسماعيل عليه السلام بمكة وحولها قبيلة جرهم، ثم ارتباط قبيلة جديس باليمامة في كتب التاريخ ـ يتناسبان كل التناسب مع هذه الهجرة، وهذا ما يجعلنا نُرجِّح صحة هذه الهجرة.

ويبدو واضحا من شأن هذه الهجرة: أنه لاصلة بينها وبين خراب سد مأرب. إذ أن أمر هذا الارتحال لايتعدى كون المهاجرين ولاةً على أجزاء من دولة في أوج قوتها.

ثانيا: المستعمرات التجارية:

ونوع آخر للهجرات من جنوب الجزيرة العربية هو إنشاء المحطات التجارية على طول طرق القوافل. وكانت هذه المستعمرات تُشكّل حماية للقوافل كما أنها كانت محطات استراحة للتجار. ولأهمية التجارة لعرب الجنوب، فقد اهتمت الدول بهذه المستعمرات وشجّعت الهجرة إليها والاستقرار بها.

وكانت الصلة قوية بين المستعمرات التجارية والدولة الأم بالجنوب، فإذا ضعفت الدولة أو انتزعت السلطة منها فإن المستعمرات تفقد تلك الصلة وتنصهر في بوتقة العناصر المختلفة في هذه المستعمرة أو العناصر المجاورة لها.

وتشبه هذه المستعمرات في نشأتها ونهايتها المستعمرات الفنيقية على شواطىء البخر المتوسط، وإن كانت الأخيرة أكثر وضوحا بسبب علاقتها بالرومان.

---

(١) قصيدة نشوان الحميري ص ١٧، ١٨

والدافع لهذا النوع من الهجرات إنما هو دافع اقتصادي في المقام الأول، سواء أكان الاستقرار في هذه المستعمرات من قبل الأفراد أو بالإيعاز من الدولة لحماية تجارتها.

ثالثا: هجرة القبائل المتشائمة:

وقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهذه الهجرة في الحديث المشهور بحديث فروة بن مسك المرادي. ولهذا الحديث أهمية بالغة لأنه الحديث الوحيد الذي أشار لسبأ وهجرتها، وللقبائل المهاجرة وأين اتجهت.

وقد ورد هذا الحديث في مسند الإمام احمد[1] وذكره معظم المفسرين والمؤرخين نختار منهم من أوردوه بتفاصيل أكثر وهم:

الشوكاني في فتح القدير[2]، والقرطبي في تفسيره[3]، وابن الكلبي في مخطوطه[4] وابن خلدون في تاريخه[5]. ونص الحديث كما يلي:

«سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ أأرض أم إمرأة، قال عليه السلام: ليس بأرض ولا إمرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار. فقال رجل يارسول الله وما أنمار؟ قال الذين منهم خثعم وبجيلة».

وألحظ في هذا الحديث النقاط المهمة التالية:

١ــ غسان ولخم تشاءمت بينما تيامن الأزد. وهذا لايتفق مع ما ذكره المؤرخون من أن الغساسنة واللخميين من الأزد الذين رحلوا من مأرب بعد خراب سد مأرب.

٢ــ لا ذكر للأوس والخزرج وخزاعة مع القبائل المتشائمة في الحديث، في حين أنها تُذكر عادة مع الغساسنة واللخميين.

٣ــ لم يشر الرسول (عليه السلام) في الحديث إلى سبب هجرة القبائل المتشائمة.

هذه الملاحظات الثلاث تُثير تساؤلات جديدة هي:

هل هجرة القبائل المتشائمة غير هجرة قبائل الأزد المرتبطة بخراب سد مأرب بفعل سيل العرم؟

هل يعزى سبب هجرة القبائل المتشائمة إلى خراب سابق لسد مأرب قبل سيل العرم؟

الحديث يشير بوضوح إلى أن هجرة القبائل المتشائمة غير هجرة الأزد ما دامت الأولى اتجهت نحو

---

(١) جـ٤ ص ٢٩٠٠

(٢) جـ٤ ص ٣٢٣

(٣) جـ رقم ٥٩ «تفسير سورة سبأ»

(٤) جمهرة الأنساب ــ مخطوط رقم ٩١٥٩ ح (دار الكتب المصرية)

(٥) المجلد الثاني ص ٣٣

الشمال، والثانية بقيت في اليمن. وتتفق النصوص مع هذا الاتجاه، إذ تشير إلى وصول اللخميين للعراق، والغساسنة إلى بلاد الشام قبل الفترة التي حددناها لحدوث سيل العرم: (بعد عام ٤٢٠ وقبل عام ٤٥٠م) فاللخميون كانوا في العراق قبل عام ٢٧٠م كما دلّ على ذلك النص المشهور بنص «أم الجمال»(١) الذي ذكر جذيمة ملك تنوخ. وتنوخ من قبائل حمير لا كهلان(٢)، والذي يهمنا من أمر جذيمة أن ابن اخته واسمه عمرو بن عدي هو المؤسس(٣) الحقيقي لدولة لخم التي نحن بصددها.

ونص آخر يشير إلى وصول اللخميين إلى العراق قبل سيل العرم هو «نص النمارة»(٤) المدّون على قبر إمرىء القيس ـــ من ملوك لخم الأوائل ـــ المتوفى عام ٣٢٨م

أما الغساسنة: فتاريخهم غير واضح كتاريخ اللخميين، إلا أن معظم المؤرخين يرون أن وصولهم لبلاد الشام كان في القرن الثالث للميلاد مع اختلاف بينهم في منتصفه أم في آخره، وفي كلتا الحالتين يكون وصولهم قبل سيل العرم.

و يقول جواد علي «ولم نظفر حتى الآن باسم غسان في نصوص المُسند»(٥)، غير أن زيد عنان أورد عبارة كُتِبت بالمسند فيها ذكر لغسان(٦) وهي:

ملك شعب غسان: | أملك | أشعبن | غسن |

واكتشاف هذا النص أوجد تناقضا في حقائق اعتمدها كثير من المؤرخين:

أ ـــ فإذا اعتبرنا هذا النص بعد هجرة الغساسنة، فإن ذلك يعني أن هجرتهم كانت قبل الميلاد، لأن اليشرح يحضب ـــ صاحب النص ـــ حكم بين عامي (٣٥ ـــ ١٥ق.م) كما هو معروف لدى الباحثين في تاريخ العربية الجنوبية إلا أن احدا من المؤرخين لم يقل بهجرة الغساسنة قبل الميلاد.

ب ـــ أما إذا اعتبرنا أن هذا النص قبل هجرة الغساسنة فإن ذلك يعارض أقوال المؤرخين: بأنهم سُمّوا «بغسان» لورودهم على ماء غسان بتهامة أثناء هجرتهم.

وللاستفادة من هذا النص يجب إعادة النظر في فترة حكم اليشرح يحضب من فترة ما قبل الميلاد

---

(١) جواد علي، المفصل جـ٣ ص ١٨٤

(٢) احمد امين، فجر الاسلام ص ٧

(٣) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ١٠٨

(٤) المرجع السابق، الجزء والصفحة

(٥) المفصل جـ٣ ص ٣٨٧

(٦) تاريخ حضارة اليمن القديم نقش رقم ٧٥ ص ٤٢٩

إلى ما بعده بقرون!! و يؤيد هذا وجود نصوص[١] تشير إلى حروب مستمرة بين اليشرح يحضب وشمر يهرعش بن ياسر يهنعم، والأخير مشهور لدى المؤرخين بأنه حكم في أواخر القرن الثالث الميلادي[٢] وعلى هذا ينبغي أن نعتبر اليشرح معاصرا له، وعندها يتناسب نص اليشرح يحضب الذي ذكر الفساسنة مع أقوال المؤرخين بهجرة الفساسنة حوالى منتصف القرن الثالث الميلادي— وهذا يقارب تاريخ وصول اللخميين للعراق حوالى عام ٢٧٠ م.

فهجرة اللخميين والفساسنة —في القرن الثالث الميلادي— كانت قبل هجرة قبائل الأزد المُرتبطة بسيل العرم، ومعنى ذلك أن هجرة القبائل المتشائمة غير هجرة الأزد، ومما يدعم ذلك، إضافة إلى ما سبق، أن اللخميين والفساسنة أنشأوا دولاً في العراق والشام، فلو اعتبرناهم من مهاجري سيل العرم— كما هو السائد لدى المؤرخين— لترتب على ذلك أنهم من المُعاقَبين بهذا السيل وممن مزّقهم الله شر ممزق. ولك أن تتساءل كيف يُعاقب قوم بالتمزيق والتشتت ثم ينشئون دولا في العراق والشام؟

والسؤال: لماذا خلط كثير من المؤرخين بين هجرة القبائل المتشائمة وهجرة الأزد؟

يبدو أن السبب في هذا الخلط ما يلي:

١— الحديث لم يذكر سبب هجرة القبائل المتشائمة، و يُعتقد أن السبب هو: تصدّع سابق لسد مأرب، وإلى هذا الاعتقاد يميل فيليب حتى[٣] فيقول: «و يُعزى إلى أحد انفجارات السد الأولى نزوح بني غسان إلى حوران في سوريا ونزوح بني لخم إلى الحيرة».
فالقبائل المتشائمة هاجرت بسبب تصدع سابق لسد مأرب، وقبائل الأزد هاجرت بسبب خراب سد مأرب بفعل سيل العرم— فخلط بعض المؤرخين بين الهجرتين وظنوهما هجرة واحدة.

٢— والذي دعا للملابسة بين الهجرتين كذلك هو: أن القبائل المتشائمة وقبائل الأزد يعودون إلى نسب واحد فهم أحفاد كهلان بن سبأ كما سنرى.

رابعا: هجرة الأزد:

وهي الهجرة المشهورة التي طغت أخبارها على غيرها من الهجرات، ولها صلة وثيقة بخراب سد مأرب (بفعل سيل العرم) في كتب التاريخ.

وقبائل الأزد تنسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ[٤]

---

(١) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن ص ٩٦

(٢) انظر فترة الصراع على السلطة، الباب الأول

(٣) تاريخ العرب جـ١ ص ٨٥

(٤) ابن الكلبي، جهرة الأنساب — مخطوط — رقم ١٩٥٩ح، ص ٥٧ (دار الكتب المصرية)

والإشارة الوحيدة لتوطن الأزد في مأرب هي ما ذُكر في قصيدة نشوان الحميري(١) :

«ثم إن الغوث جرّد ابنه الأزد إلى مأرب ليتوطنها، وعقد له الولاية على ساكنيها وأمرهم بالسمع والطاعة وكتب إلى جميع أهل أعمال مأرب :

من الغوث عن شورى زهير ورأيه ... إلى مأرب بالأمر والنهي للأزد
على أن بعد الغوث للأزد أمره ... وتجبى له الأطراف في الغور والنجد
ولا يتعدى طاعة الأزد مأرب ... مدى الدهر ما وهم براكبه يحدى

و بقيت قبائل الأزد في مأرب بجوار السد إلى أن جاء سيل العرم وهدمه، فارتحلت تلك القبائل إلى مواطن جديدة. وفي هجرة الأزد التي قادها عمرو بن عامر روايات وقصص وأشعار كثيرة لامجال لذكرها(٢) إلا أن المشهور أنهم تفرقوا (بعد حربهم مع قبائل عك في سهل تهامة) فاتجه بعضهم إلى عُمان وسُمّوا بأزد عُمان ومنهم من نزل السراة فسُمُّوا بها، ومنهم من اتجه إلى مكة وهم فرع خزاعة، وتوطّن الأوس والخزرج في يثرب بجوار اليهود.

خامسا : الهجرات الفرعية :

بالإضافة إلى الهجرات التي ذكرناها سابقا، خرجت من جنوب الجزيرة العربية هجرات أخرى في أوقات مختلفة. ومصادر معلوماتنا عن هذه الهجرات الفرعية قليلة، فهي عبارة عن نُتَف مبثوثة في كتب المؤرخين. وتعود أسباب قلة معلوماتنا عن هذه الهجرات الفرعية إلى :

١ـ انها هجرات لقبائل مُتبَدِّية، فسكان جنوب الجزيرة لم يكونوا جميعهم مستقرين، بل كان هناك بعض الأعراب في أماكن مختلفة من جنوب الجزيرة. و يؤكد وجود الأعراب في جنوب الجزيرة نصوص المسند في ألقاب الملوك «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات واعرابهمو في الطود وتهامة».

٢ـ لم تَتْرُك هذه القبائل آثارا أو كتابات يُستدلُّ منها على أخبارها.

٣ـ بالإضافة إلى أنها لم تُنشىء ممالك أو إمارات في مواطنها الجديدة كما فعلت غيرها من القبائل الرئيسية بعد هجرتها :

ومع قلّة المصادر التي ذكرت هذه الهجرات الفرعية فإنه بالإمكان ذكر أصول بعض هذه القبائل وتحديد أماكنها الجديدة.

أشهر هذه القبائل التي تعود أصولها إلى حمير هي قبيلة قضاعة التي هاجرت من حضرموت بعد أن

---

(١) ص ٢٧

(٢) انظر السيرة، لابن هشام ص ١٤، صفة جزيرة العرب، للهمداني ص ٣٦٩ ـ ٣٧٤

غلبهم عليها أبناء عمهم الأزد(١).

وقد تفرعت قضاعة بعد رحيلها إلى بطون كثيرة تمكن بعضُها من إنشاء ممالك صغيرة في مواطنها الجديدة، وأهم فروع قبيلة قضاعة(٢)

تنوخ ــ وقد نزلت أولاً بالبحرين ثم استقرت في العراق.

بنو كلب ــ سكنوا في تبوك ودومة الجندل.

سليح ــ استقروا في مشارف الشام و بقوا فيها حتى وصول الغساسنة.

جُهينة وعذرة ــ وقد نزلوا في وادي اضم بالحجاز(٣).

بِلي(٤) ــ ارتحلت إلى شرق يثرب.

بَهرا ــ توطّنت بين حمص والبحر المتوسط(٥).

أما القبائل الفرعية المهاجرة التي تُنسب إلى كهلان (غير المشتركة في هجرة القبائل المتشائمة وهجرة قبائل الأزد) فهي:

قبيلة طيء ــ ومسكنها الجديد في جبال شمر (وسط الجزيرة)

كندة ــ سكنت في أواسط نجد ثم عادت بعد ذلك إلى حضرموت

بنو الحارث ــ استقروا في جنوب شرق الطائف(٦).

والمهجرات الفرعية عموما خرجت في أوقات مختلفة لانستطيع تحديدها بالضبط، ولا نعرف أسبابها ودوافعها، فقد تكون أسباب هذه المهجرات الفرعية تزايد السكان أو كثرة الحروب أو توقف الأرض عن إمداد سكانها بوسائل الرزق الكافية سواء أكان ذلك بقلة الإنتاج أو بسبب انهيارات السدود أو غيرها من الأسباب.

و بعد أن عرضنا المهجرات المتتالية من جنوب الجزيرة العربية، وعرفنا أن بعضها له علاقة مباشرة بخراب سد مأرب، و بعضها الآخر لا صلة له بخراب السد، يُمكننا الآن وضع الآثار المختلفة والنتائج المتعددة التي ترتّبت على خراب سد مأرب. هذه النتائج نستخلصها من مصادر

---

(١) احمد باشميل، العرب في الشام قبل الاسلام ص ١٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥٢

(٣) احمد امين، فجر الاسلام ص ٧

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٢٧٣

(٥) المرجع السابق، ص ٢٧٤

(٦) احمد امين، المرجع السابق، في نفس الصفحة

متعددة تناول كل مصدر منها جانبا معينا من تلك الآثار نُجملها فيما يلي :

أولا : النتائج الدينية :

لقد كان خراب السد بفعل سيل العرم درساً من دروس القرآن الخالدة التي يُمكن أن يستفاد أو يُتعظ بها في كل زمان ومكان. فما حدث لسبأ يمكن أن يحدث لغيرهم سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، إذ أن طبيعة النفس البشرية ميّالة إلى الجحود والنكران إذا لم يردعها عن ذلك وازع الإيمان، قال تعالى: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر كان يؤسا»(١) فقصة خراب السد نتيجة معادلة دائمة الحصول :

إنعام من الله، قابله جحود ونكران لتلك النعم ـ فالنتيجة المنطقية : ذهاب تلك النعم. وحتى لا تتكرر المأساة جاءت قصة خراب السد في القرآن الكريم عظةً وعبرة لقوم سبأ، ولكفار مكة، وللمسلمين :

فقوم سبأ اتعظوا بالنكبة التي حلّت بهم إلى حين، يقول ابن رسته :(٢)«فلما حلّ بهم هذا الحدث (سيل العرم وتخريبه للسد) آمنوا بالله وسألوه العفو وأنابوا، فقبل الله توبتهم ..».

وأما قريش الكافرة فصدّها ما كانت تعبد من دون الله عن الإتعاظ وأخذ العبرة. واتعظ المسلمون الأوائل بالقصة ولاشك، فهي من دروس الوحي التي وعوها وفهموها.

وما برح المسلمون يتصورون قصة خراب السد بسيل العرم كلما تلوا الآيات التي تذكّرُ بتلك القصة، وبالمقابل فإن الوقوف على أنقاض سد مأرب ومشاهدة الجنتين الدّارِستين اليوم يوحي بترتيل تلك الآيات.

فالقصة قديمة، ولكنها خالدة. جاءت في القرآن الكريم عظة وعبرة لأولي الألباب، والعاقل من اتعظ بغيره.

ثانيا : الآثار الانثروبولوجية :

لقد رأينا ارتباط هجرة الأزد (من جنوب الجزيرة العربية) بخراب سد مأرب من سيل العرم، كما رجّحنا أن سبب هجرة القبائل المتشائمة يعود إلى خراب سابق حدث لسد مأرب قبل سيل العرم، بالإضافة إلى أن هناك هجرات أخرى يرتبط تاريخها بتصدُّعات سد مأرب خاصة والسدود الأخرى في اليمن عامة(٣).

وآثار هذه الهجرات لم تقتصر على الجزيرة العربية فحسب، بل تعدتها إلى أقطار مجاورة. ويمكن

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٣

(٢) الاعلاق النفيسة ـ المجلد السابع ص ١١٥

(٣) الموسوعة العربية الميسرة (مادة مأرب)

إبراز آثار هذه الهجرات في النقاط التالية :

١ ـ تبدل الكثافة السكانية :

لقد كان جنوب الجزيرة العربية أكثف سكانا من بقية أنحائها ، فأدت الهجرات المتعددة إلى انتقال أعداد كبيرة من جنوب الجزيرة إلى شمالها ، فحدث من جراء ذلك تغيّرٌ في الكثافة السكانية إذ نقصت في الجنوب وزادت في الشمال .

٢ ـ التوزيع الجغرافي للقبائل :

من المعلوم أن القبائل القحطانية كانت متوطنة في جنوب الجزيرة العربية ، كما كان العدنانيون في الحجاز وشمال الجزيرة . فأدت الهجرات (المصاحبة لخراب السد) إلى انتقال قبائل قحطانية من الجنوب إلى الشمال مزاحمة القبائل العدنانية في الجزيرة وخارجها .

٣ ـ التأثير الحضاري المُتبادل :

كان سكان جنوب الجزيرة أكثر تحضُّرا من سكان الشمال الذين كانت تغلب عليهم سِمَةُ البداوة . وزادت الهجرات من الاتصال المباشر بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال ، فتأثرت كلُّ مجموعة بالأخرى . وقد وضُحَ هذا التأثير المتبادل في : اللغة والعقيدة والأفكار والصفات المشتركة التي نجمت عن التزاوج والاختلاط حتى أصبح من الصعوبة بمكان إرجاع القبائل إلى أصولها بعد ذلك الاتصال .

٤ ـ الصراع الدموي :

لقد سلكت القبائل المهاجرة سبيل القوة منذُ رحيلها ، لذا كان الصراع حَتْمياً بين القبائل الراحلة وأصحاب الأرض المهاجَرِ إليها من أجل البقاء . وكُتب التاريخ تشير إلى حروب : الأزد وعك في سهل تهامة ، والقتال بين خزاعة وجرهم حول سدانة الكعبة ، والنزاع بين الأوس والخزرج واليهود للسيطرة على يثرب ، والحروب بين الغساسنة وسليح في بلاد الشام .

ثالثا : الآثار الاقتصادية :

يُعتبر سد مأرب أضخم المشاريع التي أقيمت في جنوب الجزيرة قديما ، فالأراضي الزراعية الواسعة التي كانت ترتوي من مياه السد كَفلت العيش لأعداد كبيرة من السكان . ولم تكن خيرات السد مقتصرة على أهل مأرب فقط ، بل كان فائض الإنتاج يُنقل إلى الأقاليم المجاورة .

وقد أدرك حُكّام دول جنوب الجزيرة الأهمية الكبيرة لهذا السد ، فأولوه اهتمامهم البالغ ، وأنفقوا أموالاً طائلة لترميمه واصلاحه . وقد سجلت لنا نصوص المسند إصلاحات وترميمات لهذا السد من قبل حكام سبأ وظفار وحتى من تبابعة صنعاء التي تبعد عن السد حوالى مئة وسبعين كيلو

مترا، وكأنهم شعروا أن سد مأرب رمز للتقدم الاقتصادي في جنوب الجزيرة بأكملها.

فلهذا فلا عجب أن اعتُبِر خراب سد مأرب كارثةً عامة حلّت بالجنوب. وقد بدت آثار هذه الكارثة (في الناحية الاقتصادية) بأمرين هامين:

١ــ تحوّل الأراضي الزراعية الخصبة إلى صحراء قاحلة لاينبت فيها سوى بعض أشجار برية شوكية لافائدة منها. وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذا التحول في هذه الآية[1]«وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سدر قليل»

٢ــ كانت منطقة مأرب الزراعية عامل جذب للسكان. غير أنها أضحت بعد خراب السد خالية من السكان خلا أعداد قليلة من البدو يعيشون في قرى صغيرة أو في بيوت من الشَّعرِ أو الخيام.

رابعا: الآثار السياسية:

وقد تمثلت هذه الآثار في ظاهرتين سياسيتين بارزتين:

الظاهرة الأولى: أفول نجم مأرب:

كانت مأرب قبل خراب السد مطمعا للغزاة وسببا لتنافس الحكّام حولها: إذ أنها رمزُ الحكم ومورد الغذاء ومركز التجارة، وهذا ما جعلها مسرحا للمعارك التي وقعت بساحتها. وقد سجلت لنا كتب التاريخ الغزوة الرومانية الفاشلة على مأرب في عام ٢٤ قبل الميلاد، كما أن نصوص المسند غنيّة بذكر الوقائع التي دارت بين الأسر المختلفة للاستيلاء على مأرب.

غير أن خراب السد كان إيذانا بخراب مأرب نفسها، فقد رحل عنها أهلها، وأخذ حكّام جنوب الجزيرة يتخذون عواصم جديدة لهم: كظفار وصنعاء اللتين حلّتا محل مأرب بعد خراب سدها.

والحق، فإن تاريخ مأرب وتاريخ السد مرتبطان كيدين في البداية والنهاية، ولهذا فنحن على يقين بأن إعادة بناء سد مأرب ستؤدي إلى بعث الحياة في مأرب من جديد، وعسى أن يكون ذلك قريبا.

الظاهرة الثانية: القبائل المهاجرة والفتوحات الإسلامية:

كان للهجرات التي خرجت من جنوب الجزيرة بسبب خراب سد مأرب دورٌ إيجابي في نُصرة الإسلام والمساهمة في الفتوحات الإسلامية.

الأوس والخزرج: ساهموا في إيجاد قاعدة صلبة ومكان ملائم لقيام الدولة الإسلامية، كما انهم بذلوا أموالهم وأنفسهم مع الرسول (عليه السلام) وخلفائه الراشدين من بعده، فعندما انطلقت

---

(١) سورة سبأ الآية ١٦

الجيوش الإسلامية من قاعدتها في المدينة، انطلق معها الأنصار قادة وجنوداً ليأخذوا دورهم الطليعي في المعارك الحاسمة خارج المدينة.

واشتركت القبائل المهاجرة إلى البلدان المتاخمة للجزيرة العربية في الفتوحات الإسلامية كما فعلت قبيلة «بُجيلة» التي كان لها اثرٌ واضح في فتوحات العراق بعهد الخليفة عمر بن الخطاب(١).

أما عرب الشام فقد اشتركوا مع الروم في قتال العرب المسلمين في البداية، إلا أنه في مرحلة تالية تجلّت ميولهم نحو العرب المسلمين، و يظهر هذا في قول أهل حمص للعرب المسلمين:

«لَولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنّا فيه من الظُلم والغُشم»(٢).

وفي قصة تَخَفِّي عمرو بن العاص ودخوله على قائد الروم ــ الأرطبون ــ في معركة اجنادين، لجمع المعلومات عن قوتهم ــ ما يدلّ على أن الشعور القومي لعرب الشام يميل إلى جانب العرب المسلمين حتى ولو كانوا في جيش الروم، فلم يُنقذ عمرو بن العاص من القتل ــ بعد اكتشاف أمره ــ إلا أحد الغسانيين في جيش الروم عندما نبهه بالمؤامرة التي كانت تستهدف قتله بقوله: ياعمرو أحسنت الدخول فأحسن الخروج. فأدرك عمرو المأزق الذي وقع فيه واحتال للخلاص منه.

وعلى أية حالة، فإن بعض المؤرخين(٣) يرون أن استيطان القبائل العربية في الشام والعراق كان من الأسباب المهمة التي سهّلت الفتوحات الإسلامية لهما.



(١) احمد أمين، فجر الاسلام ص ٧

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٢٠٥

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤

الباب الرابع

دراسة جغرافية لسد مأرب

الفصل الأول : طبيعة اليمن .

الفصل الثاني : منطقة مأرب بين الأمس واليوم .

الفصل الثالث : وصف سد مأرب - دراسة ميدانية .

الفصل الرابع : إعادة بناء سد مأرب .

الفصل الأول
طبيعة اليمن

تسميتها وحدودها:

يُعرف اليوم جنوب غرب الجزيرة العربية بـ«اليمن». وقد اختلف المؤرخون في أساس التسمية: هل هي لليُمْن والبركة أم لأنها تقع يمين الكعبة، أو أن هذه التسمية نسبة إلى أيمن بن المميسع بن حمير. وكلّها أسباب معقولة في كونها أصل التسمية ولا يَفْضُلُ احدها الآخر كما يبدو.

وقد وردت لفظة يمنات ويمنة ويمنت في نصوص المسند هكذا (𐩺𐩣𐩬𐩩). ولاشك أن النصوص تعني بذلك الأراضي الواقعة في وسط اليمن بما فيها صنعاء، وقد وصلنا إلى ذلك من قراءة لقب ابرهة الذي ورد في نصه «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهمو في الطود وتهامة»:

فمأربُ سبأ في شرق اليمن وريدان في جنوبه وحضرموت في شرق اليمن وتهامة في الغرب، وعلى هذا يبقى الجزء الأوسط من اليمن الذي كان يُطلق عليه «يمنت» كما ورد في النصوص، إلا أن هذه التسمية غلبت فيما بعد على المنطقة بكاملها.

سطح اليمن:

يسير سطح اليمن مع النسق العام لسطح الجزيرة العربية من ناحية الغرب والوسط ويختلف عنها من ناحية الشرق.

فسهول التهائم الغربية المجاورة للبحر الأحمر امتدادٌ للسهول الغربية في الجزيرة، والتشابه حاصل في الامتداد وتكوين التربة والمناخ الرطب والنباتات الطبيعية والنشاط السكاني. وقد كانت سهول تهامة اليمن موطناً لقبائل «عك»، كما أنها شهدت صراعا طويلا بين ملوك اليمن والأحباش في فترات متقطعة من التاريخ.

أما المرتفعات الغربية التي تُشكّل الحافة الشرقية للأخدود الأفريقي العظيم المتكون في العصر الجيولوجي الثالث ــ فهي امتداد لمرتفعات الحجاز. والاختلاف بينهما مقتصر على الارتفاع والاتساع لجبال اليمن الغربية عن مرتفعات الحجاز. وتنحدر سلسلة الجبال هذه بشدة ناحية الغرب وتدريجيا نحو الشرق، و يَتْبعُ نمط انحدارها هذا، الأودية المتجهة إلى الشرق أو الغرب.

ومن الأ ودية المنحدرة غر با :

وادي موزع ، الجريبة ، رسيان ، ز بيد ، رمع ، سهام ، سردد ، مور (وهو أكبرها و يسمى ميزاب تهامة الأعظم) ووادي حرض ، خلب ، بيش ، ريم ، و وادي عرموم .

أما الأ ودية الشرقية ذات الانحدار التدريجي فهي :

وادي اذنة (و يسمى ميزاب اليمن الشرقي وقد أقيم عليه سد مأرب) و وادي حريب ، بيحان ، الجوف ، وغيرها([1]) .

وتمتاز المرتفعات الغر بية وأوديتها بخصوبة تر بتها التي استُغِلَّت منذ القدم ، ولا تزال تزرع على شكل مُدرجات ، كما أنها تضم أكثر مخاليف اليمن و بها أشهر المدن ذات التاريخ المجيد كصنعاء ونجران.

وتمتد الصحارى خلف المرتفعات الغر بية ، إذ تشكل هذه الجبال حاجزاً يمنع وصول الرياح المُمطرة إلى تلك الصحارى .

والجزء الغربي من هذه المنطقة الداخلية الصحراو ية يضم سهوب مأرب وصحراء الجوف والأحقاف ، وهو أفضل حظا من الوسط والشرق ، فقد كان موطن حضارات عاد ومعين وسبأ ، في حين أن الجزء الأ وسط والشرقي عبارة عن مساحات رملية شاسعة يُطلق عليها الر بع الخالي الذي يُشَكِّل أكبر مساحة رملية في العالم (٢٥٠) الف ميل مر بع . ولا يزال هذا الجزء من العالم مجهولاً في بعض النواحي رغم أن (برترام توماس الانجليزي) تمكن من عبوره من الجنوب إلى الشمال ، و(سنت جون فيلبيي) قطعه من الشرق إلى الغرب في تسعين يوما([2]) .

وتنتهي صحراء الربع الخالي شرقا بالمرتفعات الشرقية المشهورة بـــ«الجبل الأخضر(٣١٠١م)» ، و بينهما يكون انحدار هذه المرتفعات الشرقية تدريجيا نحو الر بع الخالي ، يكون انحدارها شديدا ناحية الشرق حيث تترك بينها و بين خليج عمان سهلا ساحليا ضيقا .

أما القاعدة الجنوبية لجزيرة العرب المطلة على بحر العرب فتتوالى فيها السهول والهضاب والمرتفعات بامتداد أفقي من الغرب إلى الشرق . ولا تخلو هذه القاعدة من وجود أودية شهيرة كوادي حضرموت الذي كان يوما ما كثيف السكان وكثير المدن منها : تريم وشبام وسيئون المذكورة في النقوش السبئية . ويمتدُّ إلى الشرق من هذا الوادي إقليم ظفار مركز المُرّ واللبان في قديم الزمان .

المناخ :

تقع اليمن الطبيعية ضمن المناطق المدارية ، إلا أن مناخها يختلف باختلاف مظاهر السطح فيها

(١) انظر هذه الأ ودية في صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٢٠ وما بعدها (اليمن الخضراء) لمحمد الأكوع ص ٤٧ وما بعدها

(٢) تاريخ العرب ، فيليب حتى ص ٧

من جانب، والبعد أو القرب عن البحر من جانب آخر.

ورغم ان اليمن الطبيعية محاطة بالبحار من ثلاث جهات إلا أن ضيق هذه البحار ونوع الرياح التي تهب عليها جعل أثرها محدودا. وتلعب التضاريس دورها في تمييز مناخ أقاليم اليمن بحيث يمكن تقسيمها إلى الأقاليم المناخية التالية:

١ـ المرتفعات الغربية:

وهي أغزر مناطق اليمن أمطارا بسبب هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية القادمة من المحيط الأطلسي تارة وهبوب الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية من المحيط الهندي تارة أخرى.

وتهب هذه الرياح في فصل الصيف غالبا، عندما يكون وسط الجزيرة منطقة ضغط منخفض (الشمس تكون عمودية على مدار السرطان). وقد تتساقط الأمطار في فصول أخرى من السنة: كفصلي الربيع والخريف.

والظاهرة المميزة لأمطار المرتفعات الغربية سقوطها بعد الظهر، فبينما تُرى السماء صافيةً في الصباح الباكر، تتجمع السحب وتتكاثف و ينهمر المطر بعد الزوال مشابهة بذلك الإقليم الاستوائي في هذه الظاهرة.

والأمطار الهاطلة على هذه الجبال لا يقتصر أثرها عليها فحسب، بل يتجمع معظمُها في الأ ودية المنحدرة شرقا وغربا. وقد أفلح سكان هذه المنطقة في الاستفادة من مياه الأ ودية هذه، بإقامة السدود والآبار والبرك لتجميع المياه. ولأن هذه الجبال ذات حظ وفير في مياهها كانت مكانا مثاليا لإقامة الحضارة الجنوبية بها، فقد اقيمت فيها المدن والقرى والقصور التي بقيت آثارها خالدة على مدى الزمن، ولا شك أن أشهر هذه المدن قديما وحديثا: صنعاء العاصمة الحالية لليمن الشمالي والتي تُعتبر أجمل العواصم العربية مناخا في فصل الصيف.

٢ـ المنطقة الوسطى:

(الواقعة في ظل المطر) والسمة الغالبة على هذه المنطقة. الجفاف. و ينال الجزء الغربي منها نصيبه من المياه بواسطة الأ ودية المنحدرة إليه. وأبرز الظواهر المناخية في هذا الجزء: هبوب الرياح المُحملة بالأ تربة التي تتراكم فوق الحقول والمباني والآ ثار القديمة وتُدثّرها برداء كثيف من الرمال الناعمة.

ومن المؤكد أن هذه المنطقة كانت في زمن سابق أفضل مما هي عليه الآن في كميات الأمطار التي تهطل عليها، فقد جاء في النصوص السبئية سقوط أمطار غزيرة في مأرب وشبام[1] في حين أنها نادرة الأمطار حاليا.

(١) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣: انظر نقش رقم ٨ ص ٥٦

٣ ـ المنطقة الشرقية:

وتمتد بها مرتفعات الجبل الأخضر من الشمال إلى الجنوب. والظاهرة المناخية المُميزة فيها سقوط الأمطار شتاء في ركنها الشمالي (بفعل الرياح الشمالية الشرقية التي تمُر على الخليج العربي وخليج عمان) وسقوطها صيفا في الركن الجنوبي (بفعل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية).

٤ ـ السواحل الجنوبية:

وهي أقل مطرا من المرتفعات الغربية والشرقية رغم مجاورتها للمحيط الهندي، والسبب في ذلك يرجع لهبوب الرياح الموسمية موازية للساحل الجنوبي.

و يبدو لنا من كتابات المسند أن اليمن الطبيعية عموما كانت أغزر مما هي عليه الآن، فقد كانت الأمطار تتساقط في ثلاثة فصول من السنة هي:

الربيع وهو (دثا)(١) في نصوص المسند: و يبدأ من أواسط يناير وفبراير ومارس، وهذه تقابل أشهر الشتاء في مصر و بلاد الشام.

الصيف: (قيضن) في النصوص أي القيظ: و يبدأ من شهر ابريل ومايو و يونيو، وهو أغزر فصول السنة مطرا في اليمن.

الخريف: (خرفن) في الكتابات، و يبدأ من يوليو وأغسطس و ينتهي بسبتمبر.

الشتاء: (صربن) و يبدأ من أواخر سبتمبر واكتوبر ونوفمبر وديسمبر، وهو فصل قليل الأمطار إذا ما قيس ببقية فصول السنة في اليمن.

النباتات:

أدى اختلاف مظاهر السطح والمناخ في جهات اليمن الطبيعية إلى تنوع النباتات الطبيعية والمزروعة:

ففي تهامة اليمن تنمو أشجار الأثل والسمر والطرفاء والسدر والأراك. أما نبات الحلفا فعلى مجاري الأودية، كما تنمو أشجار قصيرة السيقان في السبخات المجاورة للبحر مباشرة.

ولاشك أن محصول الذرة هو المحصول الرئيسي في هذه المنطقة، إذ يُقطف هذا المحصول عدّة مرات في السنة من نفس بذرته الأولى.

وأغنى أقاليم اليمن بالنباتات الطبيعية هو اقليم المرتفعات الغربية الغزيرة الأمطار، إذ توجد فيه الغابات ذات الأشجار المتفاوتة الارتفاع والكثافة. وأهم الأشجار في هذا الجزء: العرعر والسدر

---

(١) انظر اسماء فصول السنة بالمسند في جواد علي المفصل جـ٨ ص ٤٤٣

والسلم والأراك والطلح، وذكر الهمداني أنواعا أخرى مثل السمر والسرح والثمام والعرفج(١).

ومن النباتات الطبيعية «الكاذي» الذي يشبه النخل ولورقه رائحة طيبة(٢).

أما شجرة القات التي تغزو بيوت اليمنيين يوميا فتنمو على قمم الجبال منافسةً خطيرة لشجرة البن. وقد أُدخلت شجرة القات إلى اليمن في وقت متأخر على ما يبدو، إذ لم تذكرها كتب التاريخ. وكان لدخول هذه الشجرة أثرٌ سيءٌ في حياة اليمنيين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

فالآثار الاقتصادية السيئة بدت في أن هذه الشجرة محلية في انتاجها واستهلاكها ولا تُصدَّر إلى الخارج، بالاضافة إلى أن أشجار البن الاقتصادية تُقطع حاليا لتُزرع مكانها أشجار القات، هذا غير الوقت الضائع للباعة والمشترين له بأعدادهم الهائلة في مختلف أوقات النهار، فالجميع يحرصون على شرائه ولو اضطر أحدهم إلى اغلاق متجره إن كان تاجرا أو ترك مكتبه إن كان موظفا.

ومن الناحية الاجتماعية تبدو آثاره السيئة في جلسات تخزين القات (يوميا) بعد الظهر إلى وقت متأخر من الليل. ولا يشغل المخزّنين في تلك الجلسات إلا تناول الشاي أو تبادل الطرائف أو الهيام في عالم الخيال، أما أسرهم و بيوتهم فلا تخطر على البال.

وأما تأثيره النفسي: فَمُدْمِنُه يرى ضرورة الحصول عليه مهما بلغ الثمن، والأفضلية للقات إن خُيِّر الرجل بين القات وقوت الأولاد، فإن حصل عليه فقد ملك الدنيا بقصوره التي يبنيها في الهواء أثناء و بعد تخزينه. وإذا انتهى مفعول القات وعاد المُخَزِّنُ إلى واقعه يُقسِم ألاّ يُخَزِّنَ مرة أخرى ولكن...هيهات. وقد رأيت رجلا يبكي بمرارة عندما شدّدت المملكة السعودية في عقاب مُخَزِّني القات و بائعيه. وقد أصدرت حكومة اليمن الجنوبي قرارا يمنع تخزين القات إلا في أيام العطل الرسمية!! والأمل أن تحذو اليمن الشمالية حذو السعودية واليمن الجنوبي في منع تداول القات في الأسواق على الأقل.

وإن كان القاتُ انتاجاً محليا في اليمن، فإن البُنّ اليمني ــ وخاصة المنسوب إلى مخا ــ ذو شهرة عالمية. والظروف الطبيعية المناسبة لنموشجرة البن هي نفس الظروف المناسبة لنموشجرة القات، ومن هنا جاءت الخطورة على شجرة البن، فقد تنتهي نهائيا من اليمن إذا لم تُتَدارك الأمور.

واليمنيون يستخدمون قشرة حبة البن لا الحبة نفسها التي تُصدَّر إلى الخارج، ولهذا، فليس من السهل الحصول على كفم من حبوب البن في صنعاء.

وتزرع في المرتفعات الغربية مختلف أنواع الفواكه وفي طليعتها العنب بأنواعه وأشكاله المختلفة

(١) صفة جزيرة العرب ص ٣٠١
(٢) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن جـ١ ص ٨٢

التي قد تبلغ العشرين صنفا، وأشهر هذه الأنواع: العاصمي والرازقي والأسود. والعناية بالكرمة في اليمن ذكرتها النصوص القديمة: فقد كانت تُرفع عن الأرض بواسطة أعمدة رخامية يسمونها (عرائش)(١)، وكانت الأعمدة متصلة بواسطة أسلاك تحمل أشجار العنب وقد تدلت منها العناقيد.

وقد حفظت لنا نصوص المسند والرسومات القديمة أسماء مزروعات كانت سائدة في اليمن منها:

البر (القمح) والشعير والذرة، وقد ورد ذكر هذه المحاصيل الثلاثة في نصَّي ابرهة وشرحبيل ـ كمؤن غذائية قُدّمت لعمال سد مأرب.

وورود محصول الذرة في المسند يُغيِّرُ المفهوم الحالي لدى الجغرافيين والاقتصاديين في انها دخلت إلى العالم القديم بعد اكتشاف قارة أمريكا.

والتمر أيضا من المواد الغذائية الرئيسية، حيث كان يُعتنى بزراعة أشجار النخيل على شكل حدائق كما جاء في نقش نقله أحمد شرف الدين(٢).

وقد شاهدت في متحف صنعاء وأماكن أثرية أخرى رسومات لعناقيد عنب وسنابل قمح وأشجار نخيل، وقد نُقِشتْ هذه الرسومات بعناية فائقة تُعبّر عما وصل إليه اليمني من دقّة في تمثيل بيئته.

الحيوانات:

وهي مستأنسة و برية. أما المستأنسة فالإبل والخيل والحمير والأبقار والأغنام والماعز. والإبل أنفع الحيوانات لسكان الصحارى في وسط اليمن وشرقها، فهي وسيلة الانتقال والتنقل، ومنها الغذاء والكساء، وهي في حد ذاتها رأس المال ومقياس الغنى والجاه لسكان الصحارى. ولئن فقد الجمل أهميته التقليدية في أيامنا هذه بسبب ظهور وسائل المواصلات الحديثة فإن أهميته القديمة لا تزال عالقة في الأذهان خاصة عندما نتذكر أنه كان وسيلة النقل الرئيسية التي احتكر السبئيون بواسطته التجارة البرية العالمية عدّة قرون.

وقد ورد ذكر الإبل في نصوص المسند، ففي نصَّي شرحبيل وابرهة أن إبلا ذُبحت وقُدمت كغذاء للعمال.

أما الأبقار و بالأخص الثيران فقد نالت من القُدسية ما لم ينله غيرها من الحيوانات عند السبئيين. ولدينا نصوص متعددة، كما توجد تماثيل مرمرية لرؤوس ثيران قُدّمت تقرُّبا للإله المقه.

---

(١) زيد عنان، في تاريخ اليمن القديم نقش رقم ٨٧ ص ٤١٥

(٢) تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٥ ص ٥٤

ولعل التشابه بين شكل قرني الثور والهلال (المقه) هو الذي أوحى للسبئيين بأن يقدّموا قرابينهم على شكل رأس ثور، و بالاضافة إلى ذلك فقد كان الثور هو الحيوان الرئيسي المُستَخدم في الحراثة.

و بالنسبة للأغنام فقد كانت توجد بأعداد كبيرة، إذ ذُبح في عهد أبرهة ـ كما ورد في نصه ـ (٧٢٠٠) ذبيحة من الضأن خاصة.

ولليمنيين طريقة عجيبة في تر بية الخراف، فقد ذكر عدنان ترميسي(١) أنهم يضعونها في غرفة مظلمة بعد أن يوفروا لها العلف الشهي باستمرار بحيث لا تأتي بأية حركة أو يشغل انتباهها أي منظر، فلا همّ لها ولا عمل سوى تناول الطعام في الظلام، فيزداد وزنها بسرعة.

ومن الحيوانات المتوطنة في اليمن منذ القدم: الحمار، و يبدو أن منزلته لدى اليمنين القدماء أقل من بقية الحيوانات، فقد جاء في أحد النصوص السبئية أن أحدهم قدم نذراً للإله المقه حين نضح ثو به حمار(٢)

أما الخيول، فلا شك أنها كانت معززة مكرمة محبوبة ليس عند اليمنيين فحسب، بل عند العرب عامة حتى ارتبطت شهرتها باسمهم، وقد بقيت الأنواع الجيدة من الخيول تُنسب للعرب بعد دخولها أور با عن طريق الاندلس.

ومن أشهر خيول اليمن تلك المسماة «بالخيول الجوفية» نسبة إلى الجوف على ما يبدو. وقد بيّنت لنا نصوص المسند منزلة الفرسان في الحروب، فقد كان قائد المعركة يحرص على سلب خيول أعدائه ليضعف شأنهم كما دوّن ذلك القائد سعد تالب بن جدن في عهد ياسريهنعم: انه سبا سبعين فرسا من حضرموت(٣).

والحيوانات البرية تنتشر في جبال اليمن ووهادها منذ القدم. وأكثرها انتشاراً القردة، و يسمون واحدها (ر باح) وتعيش في مرتفعات اليمن المحاذية لتهامة على شكل قبائل، ولكل قبيلة منها رئيس يقودها إلى جهة آمنة بعد أن يتلقّى انذاراً من الكشافة. ومن السهل جدا صيد صغار القردة التي تكون مُعتليةً ظهور أمهاتها: إذ يمكن للإنسان أن يتناول أحد الصغار من على ظهر الأم إذا مرّت بجانبه، والشيء الغريب أن الأم لا تحاول إرجاع صغيرها بعد أخذه بل تمضي في سبيلها كأنَّ شيئا لم يحدث!! ولله في خَلْقِهِ شؤون.

أما الأسود التي تكثر الإشارة إليها في أشعار العرب فيبدو أنها في سبيل الانقراض حتى في المناطق البعيدة عن العمران، رغم أنها كانت تعيش في العصور السابقة قرب المدن، وقد ورد في أحد النقوش السبئية: «أن أسدين كانا يهاجمان مدينة (نشق) في الجوف باستمرار حتى تمكّن أحد القادة

(١) اليمن وحضارة العرب ص ٣٦
(٢) احمد شرف الدين، اليمن الثقافي جـ٣ ص ٩٣
(٣) زيد عنان، حضارة اليمن القديم نقش رقم ٦١ ص ٣٤١

من قتلهما »([1]) .

وتعيش النمور والفهود والذئاب في الأماكن الوعرة والمنعزلة من المرتفعات الغربية ، أما الثعالب فتُشاهَد في وضَح النهار قرب القرى والمزارع .

وتكثر الوعول والغزلان في مرتفعات اليمن وصحاريها ، وقد شاهدتُ رسماً دقيقا لأحد الوعول قرب سد مأرب . والغزلان (المثل الأعلى للجمال والرشاقة عند الشعراء) كانت معروفة في اليمن منذ القدم ، فقد جاء في شرح قصيدة نشوان الحميري([2]) أن الملك الهدهاد أنقذ غزالاً من ذئب كاد يفترسها .

والنسر في طلعية الطيور التي كانت معروفة عند قدماء اليمنيين ، وقد اتخذ السبئيون من النسر شعاراً لهم كما هو واضح في رسوماتهم([3]) ، وما برحت جمهورية اليمن الشمالي تتخذ النسر شعاراً رسميا لها يرمز إلى قوة الشعب وانطلاقه([4]) .

وتشاهد اليوم في جبال اليمن وسهولها أسراب من الطيور الجارحة كالصقر والعقاب والبازي ، هذا غير الطيور اللطيفة المعروفة في الأقطار العربية كالحمام البري والهداهد والعنادل والقبرات وغيرها .

هذا عرض شامل لطبيعة اليمن من حيث السطح والمناخ والنبات والحيوان ــ عرضناه ليكون مدخلا لدراستنا لمنطقة مأرب التي تعنينا دراستها التفصيلية لوجود السد فيها .



---

(١) مطهر الارياني ، في تاريخ اليمن ص ١٢٥

(٢) ص ٧٥

(٣) محمد حداد ، تاريخ اليمن السياسي ص ٤١٤

(٤) احمد النور ، اليمن في صور ص ٢٠٩

الفصل الثاني

منطقة مأرب بين الأمس واليوم

تقسم اليمن الشمالية اليوم إلى ثمان محافظات هي:

محافظة صنعاء وحجة وصعدة والحديدة ورداع والبيضاء وإب وتعز. وتسهيلاً لادارتها قُسّمت هذه المحافظات إلى أقضية أو نواح أو ألوية كانت تسمى قديما مخاليف.

وأشهر مخاليف اليمن من الناحية التاريخية مخلاف «مأرب» الذي يلحق إداريا في هذه الأيام بصنعاء. (انظر الخريطة رقم ٣).

ويحد مخلاف مأرب من الغرب خولان العالية، ومن الشمال بلاد نهم ومن الجنوب قضاء حريب. أما من الشرق فتمتد صحراء مأرب المسماة (فلاة صيهد أو الغائط)[١] باتجاه الربع الخالي.

ويمكن تقسيم هذا المخلاف من ناحية تضاريسية إلى قسمين:

أ ــ المرتفعات الغربية:

وهي الممتدة بين صرواح ومأرب بمسافة (٣٠) كيلومترا، وانحدار هذه المرتفعات يسير مع الاتجاه العام لمرتفعات اليمن عموما (انحدار تدريجي نحو الشرق) وتتخلل هذه الجبال ــ أثناء انحدارها ــ الشعاب والأودية التي تتلاقى مكونة أودية كبيرة. وقد تحصر هذه الجبال بينها أحيانا أراض منبسطة يسميها أهالي تلك النواحي «قيعان» تستقي أراضيها من الأودية المنحدرة إليها بواسطة قنوات أو سدود صغيرة تقام عند نهاية هذه الأودية.

وتبدو قمم هذه الجبال وقد تكدست عليها الصخور كتماثيل وضعت بعناية على هذه القمم. أما أنواع الصخور فتختلف من مكان إلى آخر، فبينما نجد الصخور النارية (متمثلة في البازلت والجرانيت) تُشَكِّل القاعدة الصخرية لهذه المرتفعات نجد الصخور الجيرية منتشرة على ظاهر هذه الجبال. والصخور الجيرية هذه، تسمى في اليمن منذ القدم بــ«البَلَق» وقد جاء هذا الاسم من لونها الرصاصي. و يُشاهد في مناطق متباعدة من هذه الجبال آثار لصخور بركانية، وقد استُخْدِمت هذه الحجارة البركانية قديما في البناء على نطاق واسع، ولا تزال تُستخدم في بعض النواحي حتى اليوم.

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٢٢٠

ومن الصخور المتحولة في هذه المنطقة «الرخام» الذي صُقِلَ وعُمِل على شكل أعمدة ضخمة استخدمت في بناء القصور والمعابد. ومنها أيضا الميكا المتحولة من الصخور الطينية بلونيها الأبيض والأسود.

وهناك نوع آخر من الصخور يُشاهد في هذه المنطقة يسمونه «العمش»[1] وهو صخور رملية متحجرة.

و يوجد في هذه المنطقة بعض الأحجار التي يمكن أن يُستفاد منها اقتصاديا: كالجبس والصخور الزجاجية الشفافة والكلس، بالإضافة إلى المعادن الفلزية الموجودة بنسبة كبيرة في صخور هذه المنطقة وأهمها الحديد.

ومناخ هذا الجزء قليل الأمطار بسبب وقوعه في ظل المطر، ذلك أن المرتفعات الغربية العالية تمنع الرياح الممطرة من الوصول إليه، إلا أنه أكثر برودة من السهول المجاورة (بسبب ارتفاعه)، وتزيد فروق درجات الحرارة بينهما عن تسع درجات مئوية.

وكثيرا ما تتسرب الرياح الشمالية الشرقية المحملة بالأتربة (خاصة في فترة ما بعد الظهر) إلى هذه المرتفعات عن طريق الوديان فتُحدِث جواً مُغبراً يبقى حتى صباح اليوم التالي.

ب ــ سهوب مأرب في الشرق:

وعند نهاية مرتفعات منطقة مأرب السابقة الذكر تمتدُّ الأراضي المنبسطة نحو الشرق إلى أن تنتهي جنوب غرب الربع الخالي.

والحقيقة أن هذه السهول صحراوية في تربتها ونباتاتها ورياحها المحملة بالأتربة. فالرمال تُشكِّل طبقة قد تبلغ المترين في بعض النواحي، ومن بين الرمال الكثيفة هذه تُطِلُّ شجيرات شوكية اتخذت شكل المظلات من تأثير الرياح. ومن الأشجار الطبيعية الموجودة في هذه المنطقة: الأثل والطرفاء والسمر، وتزداد كثافة هذه الأشجار قرب الوديان أو على ضفافها.

والجهة الغربية من هذه السهول أكثف نباتا من الجهة الشرقية، ولا شك أن سبب ذلك مجاورتها للجبال التي تنحدر منها أودية وشعاب كثيرة: كالشعاب المنحدرة إليها من جبل دقرار والسويق وجنون من الجنوب، وأودية العوهل وهينا وصرواح وموضح من الشمال[2].

وأمطار هذا الجزء نادرة، ودرجات الحرارة مرتفعة. أما الرياح التي تهب عليه فمحملة بأتربة كثيفة كما أنها رياحٌ لافحةٌ بحرارتها. وعلى العموم فإن الجو في تلك الناحية لايطاق إلا في فترة السحر عندما يهب نسيم عليل تكون نهايته بداية شروق الشمس.

---

(١) احمد الثور، هذه هي اليمن ص ٢٣

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ٢٢١



(خريطة رقم ٣)

(الأقسام الإدارية ومراكزها والدول القديمة (١)

سكان هذا الاقليم:

إن كان هذا المخلاف أكثف مناطق اليمن سكانا في العصور القديمة فإنه على العكس في هذه الأيام: فالجنتان اللتان كانتا عامرتين بالسكان تسير اليوم فيهما طولا وعرضا دون أن تُشاهد إنسانا. وحتى مراكز التَّجَمُّع نسبيا في مدينة الحصون ومدينة مأرب خلال النهار ـ يختفي منها المتجمعون بعد قضاء حاجياتهم و يعودون إلى أماكن نائية. أما مطار مأرب الترابي فقد يتجمع به في

(١) عن كتاب اليمن السياسي، محمد حداد ص ٢

أكثر أوقاته ازدحاما خمسون شخصا وذلك في موعد الرحلات الجوية لطائرة (الداكوتا) ذات العشرين راكبا.

وعلى أية حالة، فإن سكان هذا الإقليم (مع قلة عددهم) يحترفون عدة مهن: فمنهم من يعمل بالزراعة التي تقوم على الآبار الارتوازية فيزرعون حولها العنب وقصب السكر والبرسيم و بعض الخضروات وحبوب القمح والشعير والذرة وقليلا من البقول. أما في المرتفعات حيث توجد العيون المائية والسيول فيزرعون الفواكه بمُختلف أنواعها وأكثرها العنب.

إلا أن غالبية السكان يربون الأغنام والماعز في الجبال والخيول في المنطقة السهلية، كما تُربى الأبقار قرب الأراضي الزراعية والجمال في المناطق الشرقية من هذا الاقليم.

و يعمل بعض السكان بالتجارة فينقلون البضائع من صنعاء بواسطة السيارات أو عن طريق الرحلات الجوية اليومية بين صنعاء ومأرب.

والنظام القبلي هو المهيمن على السكان كما هو الحال في بقية أنحاء اليمن. و بلا جدال فإن أفراد القبيلة يرتبطون بشيخ القبيلة أكثر من ارتباطهم بالحكومة. وشيء مألوف أن يُرى شيخ القبيلة وقد التفَّ حوله أفراد قبيلته ينتظرون أوامره ولو كان في تلك الأوامر الموتُ الزؤام.

ومن القبائل المشهورة في هذه المنطقة «عبيدة» التي تمتد أراضيها في مساحات واسعة قرب مدينة مأرب، وقبائل «جهم» و بأراضيهم يوجد سد مأرب. و يسكن حول مأرب «الأشراف» الذين يمتازون بكرمهم ووعيهم أكثر من غيرهم من سكان هذا الإقليم.

وأبرز الظواهر الاجتماعية هناك هي حمل السلاح. وهذه الظاهرة وإن كانت بارزة في اليمن عموما، فإنه من النادر إن لم يكن من المستحيل أن ترى رجلا لايحمل سلاحا في منطقة مأرب.

و يتمثل هذا السلاح في البنادق السريعة الطلقات بأنواعها المختلفة والبنادق العادية، وأقلها الجنبية والخنجر المعكوف. وتغلب عليهم هذه الظاهرة لدرجة أن أحدهم لايستطيع السير بضعة أمتار دونه، وقد عبر عن ذلك أحد سكان مأرب فقال: إن الرجل منّا إذا سار دون سلاح يشعر أنه دون ثياب تكسو عورته.

ومقابل هذه الظواهر التي توحي بالقتل والموت تبرز ظاهرة أخرى ضدها تماما وهي طيب المعشر والاطمئنان لهم بعد أن يتم التعارف والمشاركة في الطعام، وهذه الطيبة عامة في بلاد اليمن حتى لتُعتبر أبرز صفات اليمنيين اطلاقا.

المدن في هذا المخلاف:

ثلاث مدن يتردد ذكرها على ألسنة سكان هذه المنطقة هي الحصون وصرواح ومأرب.

الحصون:

وهي العاصمة الاقتصادية الحالية لهذا الإقليم، ففيها المركز الصحي ومكتب الطيران والفنادق والمطاعم والأسواق العامرة بالأقمشة والمواد الغذائية والأدوات المنزلية ــ التي لا توجد في غيرها من مدن هذا المخلاف.

وتقع هذه المدينة إلى الشمال الشرقي من مدينة مأرب وعلى بعد (٣٥) كم عنها، ورغم بعد هذه المسافة وطريقها الترابي، إلا أنها المكان الوحيد الذي يقصده السكان لبيع بضائعهم وشراء ما يلزمهم. والجدير بالذكر أن السيارات التي تنتظر الركاب في مطار مأرب تتجه جميعها إلى بلدة الحصون.

صرواح:

تبعد عن مأرب مسافة (٤٠) كم من ناحية الغرب. وهي مدينة تاريخية، إذ كانت العاصمة الأولى لحكام الدولة السبئية الثانية، وقد اتخذها المكربُ الأولُ سمه علي ــ عاصمة له في القرن الثامن قبل الميلاد. و بقيت العاصمة حتى اتخذ كرب إيل وتار (آخر مكارب سبأ وأول ملوكهم) من مأرب مركزا لحكمه. ومنذ ذلك الوقت فقدت صرواح أهميتها السياسية، ولا تزال كذلك فالسكان يسمونها حاليا «الخربة».

وأهم الآثار المتبقية في صرواح معبد المقه، وأعمدة السور الخارجي (الذي يحيط بالمعبد) من المرمر، وتشير الكتابات على بعض هذه الأعمدة أن بانيه هو المكرب (يدع آل ذرح)(١).

أما الأهمية الأثرية لهذا المعبد فقد جاءت من وجود نقش النصر في بهوه، وقد وُجِدَ النقش على عمود من المرمر في وسط المعبد يشير إلى أن صاحبه هو كرب ايل وتار الذي قام بفتوحات كبيرة في البلاد المجاورة(٢).

و يوجد بقرب معبد صرواح بقايا أبنية قديمة لايمكن معرفتها أو التأكد منها دون إجراء حفر وتنقيب ودراسة على هذه البلدة الأثرية.

ولئن فقدت صرواح أهميتها السياسية منذ عهد مكارب سبأ، فإن موقعها الاستراتيجي يؤخذ دائما في الحسبان، ذلك أن السيطرة عليها معناها السيطرة على شرق اليمن، ولهذا شهدت سهولها وهضابها أعنف المعارك في الحرب اليمنية الأخيرة.

مأرب:

وهي أشهر مدن هذا الإقليم الذي سمي باسمها، بل هي من أشهر المدن التاريخية في العالم.

---

(١) ديتلف نيلسون، التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ٢٨٩

(٢) احمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٠٤

وقد ورد ذكرها في كتب اليونان والرومان باسم (مريابا)(١)، وفي النصوص السبئية(٢)(مريب).

و يعتقد جورجي زيدان(٣) أن لفظها آرامي الأصل مركب من (ماء)و(راب): أي الماء الكثير. أما إذا كانت عربية فيمكن أن تكون اسم مكان من أرب: مأرب ــ بمعنى مكان يقصد إليه، على وزن مورِد. و يلفظها أهالي تلك الناحية (مارب) دون همزة.

والحقيقة أن تسميتها اليوم «مدينة» إنما هي تسمية مجازية أوعلى اعتبار ما كانت عليه قديما، إذ أنها (في الوقت الحاضر) ليست المدينة التي وصفها استرابو اليوناني بقوله: «وهي مدينة عجيبة، سقوف أبنيتها مُصَفَّحةٌ بالذهب ومطعَّمةٌ بالعاج والأحجار الكريمة وفيها من الأ بنية العظيمة ما يُبهر العقول..»(٤).

وإنما هي «خربة» مهجورة موحشة، تخالها كأنها في سبات عميق.

ولنتتبع تاريخ هذه المدينة ونقارن بين ماضيها وحاضرها لنرى الفرق بين المدينة العاصمة والمدينة الشبح.

يبدو لنا من دراسة تاريخ عرب الجنوب قِدَمُ مدينة مأرب، فإن صح ما جاء في دائرة المعارف البريطانية(٥) من أنها كانت عاصمة ملكة سبأ، تكون مدينة مأرب أقدم بكثير من صرواح التي اتخذها مكارب سبأ عاصمة لهم حوالى عام ٨٠٠ق.م، إذ يعني ذلك أنها كانت العاصمة الأ ولى للدولة السبئية الأ ولى التي أسسها سبأ بن يشجب (كما مرمعنا) قبل عام ٢٢٠٠ق.م.

الموقع العام للمدينة:

تقع مأرب في وسط سهل فسيح محاط بالجبال من مختلف الجهات ما عدا الجهة الشمالية الشرقية. وهذاالسهل الواسع يَقْسِمه وادي اذنة إلى قسمين متقاربين في المساحة: هما ما كان يُعبَّرُ عنهما بالجنتين اليمنى واليسرى أو جنتي سبأ كما ورد في القرآن الكريم. وتقع مأرب على الضفة اليسرى لهذا الوادي الذي أقيم عليه سد مأرب. وإذا أضفنا إلى ذلك موقعها على الطريق التجاري بين حضرموت والشام ــ فإننا ندرك تماما الأهمية التي كانت تحتلها مأرب زراعيا وتجاريا.

تخطيط المدينة القديمة:

الحقيقة التي ينبغي الإشارة إليها: أن مدينة مأرب القديمة ليست دائرية الشكل كما يذكرها المؤرخون، ذلك أن السور الذي يسمونه السور الحميري يحيط بالمدينة القديمة بأبعاد متباينة (من

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ١ ص ٧١

(٢) مطهر الارياني، في تاريخ اليمن ص ٣٦، احمد شرف الدين اليمن الثقافي جـ٣ ص ٥٦

(٣) العرب قبل الاسلام ص ١٦٣

(٤) عدنان ترسيسي: اليمن وحضارة العرب ص ٤٦

(٥) مادة السبئيين

الجهات الأربع) عن ساحة المدينة : فباب السور من ناحية الجنوب الغربي (والذي يسمى الباب الغربي) يبعد عن ساحة (ميدان) المدينة الحالية مسافة (٩٠٠م) بالضبط ، بينما يبعد الباب الشرقي مسافة (٢٥٠م) وما يسمونه باب المجنة (ناحية الغرب) يبعد عن الميدان حوالي (٥٠٠) متر كما يبعد السور عن الساحة من ناحية الشمال (٣٠٠) متر. فالشكل العام للمدينة حسب الأبعاد التي ذكرناها لايكون دائريا كما هو واضح في الرسم الكروكي (شكل رقم ١).

وسور المدينة القديم مغطى بالأتربة ولا يظهر إلا في بعض النواحي. و يستبان من الأجزاء البارزة منه طريقة بنائه : فهو مكون من نوعين من الحجارة ــ السفلى مكونة من الحصى والتراب ذي اللون الأصفر وهي على شكل قوالب كبيرة منتظمة سهلة التفتت ، أما الطبقة العلوية فمكونة من حجارة منتظمة الشكل أيضا ، والمعتقد أنها من جبل بَلَق لتشابه نوع الصخور.

و يرتفع السور في بعض الأماكن التي يظهر فيها أكثر من مترين ، وهذا الارتفاع دون جزء السور السفلي المغطى بالرمال.

ورغم أن بعض المؤرخين ذكروا أن لهذا السور أربعة أبواب(١) إلا أنه لايبدو منها الآن إلا بابان فقط هما :

الباب الغربي: و يقع في الجهة الجنوبية الغربية في اتجاه سد مأرب.

الباب الشرقي: على حافة وادي اذنة في اتجاه المعابد السبئية. و يوجد ممر بعمق متر ونصف وعرض متر ــ بجانب هذا الباب ــ يوصل بين الوادي والمدينة ، وقد قال أحد سكان مأرب : إنه طريق سرّي كانت تسلكه بلقيس عندما لا ترغب في أن يراها الناس! والأقرب للصحة أنه كان مصرفا لمياه المدينة يوصلها إلى الوادي.

ومن النقوش المدونة على السور الحميري (قرب الباب الغربي) يتبين لنا أنه من بناء يثعمر بن سمهعلي ينوف مكرب سبأ(٢). وهذا المكرب اشترك في بناء سد مأرب أيضا كما مرّ معنا في دراستنا التاريخية. وإن دل بناء هذا المكرب لسور مأرب على شيء ، فإنما يدل على الأهمية الكبيرة لهذه المدينة في عهد المكارب رغم أن عاصمتهم كانت صرواح.

ومن نقش آخر(٣) على السور يعرف بنقش جلازر ٤١٨/٤١٩ نعرف أن كرب ايل وتر أضاف بعض الأجزاء على السور: فقد بنى بوابتين و بعض الأبراج ــ وكرب إيل هذا هو آخر مكارب سبأ وأول ملوكهم ، كما أنه أول من اتخذ مأرب عاصمة له بدل صرواح.

وسور مأرب القديم بأبعاده التي ذكرناها لايعطينا صورة دقيقة لأبعاد مدينة مأرب المشهورة ،

---

(١) احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١١٨

(٢) جورجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ص ١٦٣

(٣) احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٢٠

ذلك أن المساحة التي يحيط بها السور أصغر من أن تتسع لمدينة بلغت شهرتها الآفاق، ولهذا فنحن بين احتمالين:

ـ إما أن السور الحميري كان محيطا بقلب المدينة فقط بينما كانت أطرافها خارجه.

ـ أو أن السور كان يحيط بقصور الحكام لا المدينة نفسها، و يؤيد هذا أن النصوص تشير إلى ثلاثة قصور ـ سنذكرها بعد قليل ـ كانت تحتل مساحة واسعة من الأراضي التي يحيط بها السور ـ فماذا يبقى للسوق التجاري و بيوت الأمراء والأشراف وأبنية عامة الشعب!!

والاحتمالان:

الأول والثاني يفترضان وجود أجزاء أو كل مدينة مأرب القديمة خارج السور الحميري.

مأرب اليوم:

على أنقاض قصور مدينة مأرب القديمة تقوم الآن عشرات البيوت الطينية التي اتخذت شكل المخروط المقطوع من أعلاها. ومعظم هذه البيوت منهارة الجدران أو على وشك الانهيار. والبيت الوحيد الذي يوجد فيه شيء من الحركة والأنس هو: الفندق الذي لايتسع لأكثر من عشرين شخصا. ورغم أنه لا يُقدم لنزلائه إلا الماء ومرتبة واحدة فإن السيّاح الأوروبيين(١) الذين يغامرون بالوصول إلى مأرب يُسمونه «هيلتون مأرب».

وفي أسفل التلة المقام عليها البيوت الطينية (ومنها الفندق) توجد البئر الارتوازية التي يستقي منها أهل مأرب والوافدون إليها. وكانت المياه تُستَخرجُ منها بواسطة مراوح هوائية أقامها الجيش المصري أثناء وجوده في اليمن، إلا أن هذه المراوح تعطلت بعد ذلك فاستبدلت (بماتور) خاص يفي بهذا الغرض.

وعلى مقربة من البئر يظهر البناء الحجري الوحيد في مأرب الذي يتسم بشيء من الجمال وهو مبنى المحافظة. وقد استخدمت في هذا البناء الحكومي حجارة حميرية قديمة يظهر على بعضها كتاباتُ المسند. ووجود المحافظة في مأرب هو السبب في قدوم سكان القضاء إليها خلال الدوام الرسمي فقط، إذ أنهم يعودون إلى أماكن بعيدة بعد قضاء أعمالهم، ولولا وجود هذا المبنى في مأرب خاصة لغدت مهجورة ليلا ونهارا. (انظر الرسم الكروكي شكل رقم ١ والصورة الفوتوغرافيـــة رقم ٢).

وعلى يمين المحافظة يوجد المطعم الوحيد في مأرب والذي يقدّم لزبائنه البازيلا والأرز والشاي: فطورا وغداء وعشاء، وعلى أية حالة فهو المطعم السياحي الوحيد شئنا أم أبينا.

---

(١) معظم هؤلاء السيّاح من الفرنسيين، و يبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن (أرنو) و(هاليفي) اللذين تمكنا من الوصول إلى مأرب والسد (والكتابة عنهما) كانا فرنسيين

أما المدرسة الوحيدة والحديثة البناء فهي مقامة بين الباب الشرقي (المطل على وادي اذنة) والتلة. وطلاب المدرسة يَفِدون إليها من أماكن متفرقة ومتباعدة، أما الهيئة التدريسية فمن المصريين الذين يُضيفون جهودا أخرى لمن سبقهم من المؤرخين: أمثال أحمد فخري وخليل نامي في تعليم وابراز تاريخ أحفاد بلقيس.

آثار مأرب:

قبل الحديث عن آثار مأرب وضواحيها لابدّ من الإشارة إلى نقطة في غاية الأهمية وهي:

ضرورة البحث والتنقيب عن الآثار في مأرب، ليس لأنها مدينة أثرية تجذب السيّاح إليها فحسب، بل لأن الحفر والتنقيب بها قد يُلقي أضواء جديدة على تاريخ عرب الجنوب عامة باعتبارها عاصمة السبئيين في فترات طويلة من تاريخهم. أما الحديث عن مأرب وآثارها دون تنقيب وحفر فهو «ضرب في المندل»، لأن الأتربة والرمال غطت كل شيء فيها: فمثلا تشير الدراسات إلى وجود أنقاض قصر كبير في مأرب يُسمى «سلحين» كان مركزا للحكّام كما بينت النقوش وأشعار العرب:

هجرن/ظفر/عدى/هجرن/مرب..سلم../بيتن/سلحن.

ومعنى هذاالنص كما ترجمه مطهر الارياني(1):

«وعاد من ظفار إلى المدينة (مأرب) لتسنم (لتسلم) العرش في القصر سلحين».

وأتت أشعار العرب مؤكدة وجود هذا القصر كما في شعر علقمة:

وقصر سلحين قد عفاه ... ريب الزمان الذي يريب
تعوى الثعاليب في قراها ... مافي مساكنها غريب(2)

وقوله في أنقاضه(3):

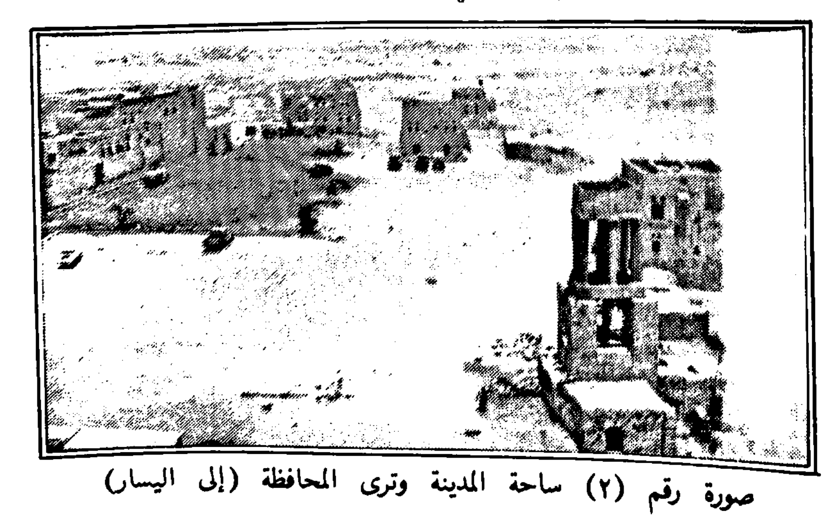
أو ما ترين وكل شيء للبلا ... سلحين خاوية كأن لم تعمر

ومع التأكد من وجود هذا القصر القديم في مأرب، إلا أنه لا يعرف أين مكانه بالضبط من تلك الأنقاض، فزيد عنان(4) يرى ان المدينة الحالية قائمة فوق أنقاض القصر، بينما يعتقد أحمد الثور(5) أن بقايا قصر سلحين هي التي سماها الهمداني أعمدة العرش. غير أن هذه الأعمدة(6) تبعد عن مأرب مسافة أربعة كيلومترات!!

---

(1) في تاريخ اليمن، نقش رقم ١٤ ص ٨٩
(2) جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٦٣
(3) المرجع السابق والصفحة
(4) تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١١٤
(5) هذه هي اليمن ص ٢٠١
(6) سيأتي ذكر هذه الأعمدة ــ إن شاء الله ــ عند عرضنا للآثار الموجودة في ضواحي مأرب

شكل رقم (١) رسم كروكي لمدينة مأرب ومعالمها القديمة والحديثة



صورة رقم (٢) ساحة المدينة وترى المحافظة (إلى اليسار)

ولاشك أن التلة المقامة عليها مدينة مأرب حاليا منطقة أثرية تحوى الكثير من سجلات السبئين، ولهذا لابدّ من البحث والتنقيب في أنقاض هذه المدينة وحولها.

و يتحدثُ أهالي مأرب اليوم عن خروج ما يُشبه الدخانَ من التلة، وقد فسر بعضهم ذلك: بانه غازات بركانية، لما تتميز به من شدة الحرارة إذ أحرقت عدة حيوانات صادف وجودُها هناك كما يقولون.

ومن القصور الأُخرى ــ غير قصر سلحين ــ التي يُعتقد بوجود أنقاضها داخل سور مأرب القديم قصر القشيب، وقد ورد ذكره في أشعار العرب كما في قول علقمة:

لو رأيت القشيب بعد بهاء خاو يا هذ بعضه فوق بعض

وأقاو يل مأرب قد تولوا بعد عقد الأمور منهم ونقض[1]

وذكر زيد عنان أن عامل مأرب هدم الأجزاء المتبقية من هذا القصر واستعمل الأحجار لبناء مبنى الحكومة[2] وعلى هذا فمن المحتمل أن يكون مكان قصر القشيب في الهضبة التي تقوم عليها المحافظة اليوم.

ومن قصور مأرب الهجر وقد ذكره الهمداني[3] من جملة قصور مأرب.

ومنها أيضا: قصر غمدان: وقد ورد ذكره في نصوص المسند، وكان المُعتقد أنه قصر غمدان المشهور في صنعاء، إلاّ أن الملاحظات التالية تؤكد أن غمدان مأرب غير غمدان صنعاء:

١ــ ورد في النقش رقم ١٨ من مجموعة مطهر الارياني[4] أن (اليشرح يحضب وأخاه يازل ملكي سبأ وذي ريدان) وصلا وتملّكا قصري سلحين وغمدان: وربط قصر غمدان بقصر سلحين (مركز الحكم في مأرب) يدّل على أن القصرين متقاربان، إذ لايعقل أن يصلا معا إلى قصر سلحين في مأرب وغمدان في صنعاء ليتخذا منهما قاعدة لملكهما في آن واحد.

٢ــ ذكر زيد عنان[5] أنه قرأ اسم غمدان و بقية قصور مأرب على الحجارة التي استُخدمت في بناء محافظة مأرب. و بالطبع لانتصور أن الحجارة يمكن أن تُنقل من صنعاء إلى مأرب.

٣ــ وملاحظة أخرى من شعر علقمة:

أبعد غمدان حين أمسى يسفي به المور والرياح

ياعين سلحين فاندبيه إذا هاض من أهله الجناح[6]

و يفهم من هذين البيتين أن غمدان مأرب انهدم قبل قصر سلحين (مركز الحكم في مأرب) أما غمدان صنعاء فقد بقي قائما[7] حتى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) محمد الأكوع، اليمن الخضراء ص ٢٨٤

(٢) حضارة اليمن القديم ص ١١٤

(٣) الإكليل، جـ٨ ص ٥٥

(٤) في تاريخ اليمن ص ١١١

(٥) تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١١٤

(٦) زيد عنان، المرجع السابق ص ١١٧

(٧) جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٦٥

وإذا ما تركنا أطلال قصور مأرب التي كانت مكان الرفاهية والحياة الرغدة واتجهنا إلى أماكن العبادة في داخل مأرب نفسها ــ وجدنا أنفسنا أمام ما يسمى بــ« هيكل سليمان » . والحقيقة انه لايوجد دليل قاطع على أن هذا المكان كان معبدا يهوديا أو على الأقل معبدا دينيا لأهل مأرب: فالأعمدة الجرانيتية المضلعة (المتبقية) عليها كتابات بالعربية قرأت منها كلمة « محمد » ، ومعلوم أن هذا الاسم عُرف وانتشر في الجزيرة العربية بعد الإسلام ، وهذا ما يوحي لنا بأن الأعمدة هذه، وضعت أو بنيت في وقت متأخر عن زمن ملكة سبأ . و يؤيد هذا أن هناك أعمدة اسطوانية الشكل (بجانب الأعمدة المضلعة) لايبدو منها إلا رؤوسها فقط . فإن كان هناك هيكل بالفعل فأعمدته الاسطوانية لا المضلعة كما يعتقد الكثيرون من أهالي مأرب .

وعلى أية حال ، فقد سد سكان مأرب بين الأعمدة الضخمة المضلعة وجعلوا منها جدارا للمسجد المعروف « بمسجد سليمان » . ومدخل هذا المسجد قرب بئر الماء ومحرابه في الجهة الشمالية الغربية، وليس فيه أي فراش أوحصيرة على الأقل .

آثار ضواحي مأرب :

وإلى الجنوب الشرقي من مدينة مأرب القديمة يوجد أثران باقيان يُنسبان إلى بلقيس : أحدهما يسمى عرش بلقيس والآخر يسمى محرم بلقيس . والطريق إليهما تمر عبر الباب الشرقي للمدينة فوادي اذنة (الذي يتسع في هذا المكان مسافة كيلو متر واحد) فإلى الجنة اليمنى التي يوجد بها الأثران السابقان .

الأعمدة (أوما يسمى بعرش بلقيس) :

الحقيقة التي لامناص من ذكرها حتى ولو كانت تسيء[1] إلى الناحية السياحية في اليمن هي :

أن تسمية هذه الأعمدة بالعرش خطأ ، وكذلك نسبتها إلى بلقيس فهي منه براء . ذلك أن الأعمدة ليست أعمدة عرش وإنما هي بقايا معبد ، وقد أكد هذا زيد عنان[2] الذي قرأ كلمة (محرم) على أحد هذه الأعمدة ، كما ذكر أحمد فخري[3] أن أرنو الفرنسي رأى حجرا (في العمايد) مكتوبا عليه اسم ذلك المعبد وهو « باران » وأنه كان مشيدا للإله المقه .

أما نسبته إلى بلقيس ، فإن الكتابات التي أشرنا إليها لتدل على أنه معبد للقمر وليس عرشا ، و بلقيس ، على أية حالة ، لم تعبد المقه في أي يوم من أيام حياتها . و بالإضافة إلى ذلك ، فإذا حُسِبَ

---

(١) السياح الأوربيون الذين يزورون مأرب يحرصون على مشاهدة الآثار التي تنسب إلى بلقيس لورودقصتها ــ مع سليمان «عليه السلام» في الكتاب المقدس

(٢) تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١١٥

(٣) اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٢٤

أن هذه الأعمدة عرش لبلقيس، فإن القرآن الكريم[1] أشار إلى نقل هذا العرش لبيت المقدس ولم تُشِر كتب التفسير إلى إعادة هذا العرش من بيت المقدس إلى مكانه في مأرب.

و يتكون هذا الأثر من ستة أعمدة لا تزال قائمة، إلا أن أحدها مكسور، و يقول أهل مأرب ان و يندل فيليبس (رئيس البعثة الأمريكية التي نقّبت في المنطقة) هو الذي كسر هذا العمود.

و يبلغ ارتفاع العمود الواحد منها خمسة أمتار ونصف، وهي منحوتة على شكل متوازي مستطيلات عرض جانبها الأكبر (٨٠ سم)، وعرض الجانب الآخر (٦٤سم).

وتنتهي رؤوس هذه الأعمدة بنقوش دقيقة وجميلة تبدو كأنها تيجان اُلبست بها رؤوس الأعمدة.

وحول هذه الأعمدة يوجد كثير من الأحجار المنحوتة ملقاة على الأرض بإهمال، و بعضها غُطي برمال ناعمة حملتها إليها الرياح، وقد لايمضي طو يل وقت إلا وقد اختفت نهائيا كغيرها إن لم تُنقذ قبل فوات الأوان.

معبد المقه (المسمى محرم بلقيس):

وعلى بعد (١٤٠٠) متر من معبد العمايد (في الجهة الشمالية الشرقية) يوجد معبد آخر هو معبد المقه الذي يُطلق عليه حاليا محرم بلقيس.

وأهمية هذا المعبدليست في كونه من أهم الآثار الواضحة نسبيا في منطقة مأرب فحسب، بل لكثرة النقوش التي عُثر عليها في هذا المعبد والتي ألقت أضواء جديدة على تاريخ عرب الجنوب.

وخيرُ وصف لهذا المعبد جاء من مؤرخين: احدهما مصري وهو أحمد فخري (عالم الآثار المشهور)، والثاني زيد عنان (وكيل دائرة الآثار في اليمن) الذي رافق بعثة وندل فيليبس أثناء تنقيبها في المعبد المذكور.

ولأن هذا المعبد مغمور بالأتربة الآن ولا يظهر منه إلا بعض أجزاء السور من الناحية الشرقية وعدد من الأعمدة المنحوتة التي تطل برؤوسها من بين الأتربة، فإننا سنستفيد من وصف المؤرخين المذكورين لهذا المعبد مع الملاحظات التي سجلناها أثناء مشاهدة هذا المعبد.

يظهر من بقايا المعبد أنه دائري الشكل قطره (٩٠) مترا[2]، ويحيط بهذا المعبد سور له بابان شمالي وجنوبي، و يبدو أن الشمالي هو المدخل الرئيسي للمعبد إذ يوجد ممر واسع (على جانبيه أعمدة) ينتهي إلى داخل المعبد. وعلى بعد عشرة أمتار من المدخل الرئيسي توجد ثمانية أعمدة ضخمة اسطوانية الشكل غطّت الرمال الأجزاء السفلى منها. وفي الجانب الشرقي صحن متصل بالمحرم بواسطة باب صغيرقال عنه زيد عنان[3]: انه مذبح من البرونز كانت تُقدم فيه القرابين!

---

(١) سورة النمل الآية ٣٨

(٢)و(٣) زيد عنان، تاريخ حضارة اليمن القديم ص ١١٥

وللمعبد باب جانبي في الناحية الغربية المواجهة لمدينة مأرب([1])، أما السور من الجهة الشرقية فلا تزال فتحاته العلوية (تشبه الدشم العسكرية) ظاهرة بوضوح، وقد ذكر أحد من كان معنا من أهل مأرب أن عدد الفتحات (٣٦٠) فتحة، وأنها بُنيت بشكل يسمح بدخول أشعة الشمس من فتحة منها على مدار السنة!! وزاد صاحبنا هذا ـ بأن عيَّن الفتحة التي ألقى منها هدهد سليمان الرسالة إلى ملكة سبأ!!

وكما قلنا من قبل: إن نسبة أعمدة العرش إلى بلقيس غير صحيح، كذلك نقول عن نسبة هذا المعبد لها، فكل النصوص التي عُثر عليها في المعبد تُشير إلى أنه معبد للمقه وليس بها نص واحد يشير إلى بلقيس أو إلى الشمس معبودة ملكة سبأ قبل إسلامها.

وعلى أية حالة، فقد أشارت النصوص([2]) إلى أن هذا المعبد بُني من قبل (يدع آيل ذرح) و يدع آل ذرح من مكارب سبأ الأوائل الذين حكموا بعد ملكة سبأ بأكثر من قرن ونصف.

وعلى هذا يتأكد لنا أن نسبة المعبد إلى بلقيس ملكة سبأ ليس صحيحا، ولو كان هذا معبدها حقا لما تركته قائما بعد إسلامها وتركها الوثنية.

ومن الآثار الخالدة في ضواحي مأرب سدها العظيم الذي سنُفرد له فصلا مستقلا هو الفصل التالي.



(١) احمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٢٩

(٢) انظر ديتلف نيلسون في التاريخ العربي القديم، ترجمة واستكمال فؤاد حسنين ص ٢٨٩، احمد فخري في اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٢٩

الفصل الثالث

وصف سد مأرب - دراسة ميدانية

يتناول هذا الفصل دراسة ميدانية وصفية لما تبقى من أجزاء سد مأرب ، إضافة إلى نظرة فاحصة لمصارف المياه وأسلوب الري الذي كان مُتبعا ، ثم تقديرا لمساحة الأراضي التي كانت تستفيد من مياه السد — وكل هذا مدعما بالرسوم الإيضاحية ، والخرائط المُرفقة والصور الفوتوغرافية .

والذي دَفَعنا إلى التركيز على هذا الفصل هو أن الذين زاروا السد وكتبوا عنه من قبل لم يعطونا صورة صادقة ودقيقة عن السد لدرجة أن الصورة التي تكونت في أذهاننا من كتاباتهم عن السد اختلفت عن الواقع . و يبدو أن أسباب الاختلاف جاء مما يأتي :

١ـ النظرة إلى العمارة في الحضارات القديمة : فعندما نقرأ عنها فإننا نضعُ في حسابنا عدم امتلاكهم آلات حديثة كالمعهودة اليوم ، ولهذا نتوقع أن تكون أبنيتهم وعمرانهم ضمن نطاق القوة الجسدية التي نحسبها محدودة . إلا أن الأمر يختلف لدى مشاهدة آثارهم ، إذ تجعلنا ننظر إلى أعمالهم على أنها تقارب المعجزات : فالأهرام —مثلا— نقرأ ونسمع عنها ونتصور حجارتها الضخمة وارتفاعها الشاهق ونعجب من ذلك ، إلا أن الأمر يكون أكثر عجبا ودهشة عندما نراها بأعيننا فحجارة البناء أضخم مما تصورناها والارتفاع أعلى مما توقعناه وهندسة البناء ما كنا نظن أنهم وصلوا إلى هذه الدقة . ومثل ذلك « بترا الأنباط » المنحوتة في الصخور وأعمدة بعلبك الخالدة وهندسة تاج محل الرائعة — يكون اعجابنا بها أكثر (عند مشاهدتها) مهما بلغ ذلك التصور.

وكذا شأن سد مأرب كأحد آثار الحضارات القديمة ، رأى بعض المؤرخين أن عظمته جاءت من ضخامته ودقة هندسته بينما رأى آخرون أن مصارفه هي سر شهرته ، فركز كل منهم على ناحية معينة رآها هي الأَوْلى بالاهتمام دون غيرها مما جعل انتباه القارىء أو السامع يتجه إلى الناحية التي رآها المؤرخ موضع الأهمية بسد مأرب ، فأحمد فخري مثلا يركز على الناحية الأثرية ولا عجب بذلك فهو عالم آثار كبير، بينما يهتم نزيه العظم بالوصف الجغرافي لأجزاء السد والبيئة الجغرافية المحيطة به — ولم يشر أحد منهما إلى الحجارة القوسية المنحوتة والمستعملة في بناء الحائط الموالي للصدف الثاني بالجهة اليمني من السد رغم أن الحضارات القديمة خالية آثارها من الحجارة القوسية كالموجودة بالسد ، ولم يشيرا كذلك إلى

المادة الماسكة (القضاض) التي هي في حد ذاتها تُميز حضارة اليمنيين القدماء عن غيرها تماما كما يُميِّزُ التحنيط حضارة الفراعنة .

٢ــ بعض المؤرخين الذين وصفوا السد لم يشاهدوه ، ولهذا جاء وصف هؤلاء وصفاً تَخَيُّليًا ، وبمقدار سعة الخيال جاء الوصف ، وأبرعهم في هذا المجال ــ جورجي زيدان الذي أخذ عنه كثير من المؤرخين اليمنيين المعاصرين رغم أنه لم يشاهد السد اطلاقا[1] .

٣ــ قلة الصور الفوتوغرافية التي التُقِطت لاجزاء السد والتي تَصْحَبُ الوصف عادة ، وقد قيل : إن صورة مُتقَنة خيرٌ من مائة صفحة في الوصف .

ولهذا فإننا سنعمد في هذا الفصل إلى إلقاء نظرة عامة عن موقع السد ونصفه وصفا مجملا ثم ندخل بعد ذلك في دراسات دقيقة لاجزاء السد ، موضحين هذه الدراسة بالرسومات والصور كُلّما تَطَلَّب الأمرُ ذلك بحيث ينتهي القاريء إلى تكوين فكرة كاملة وشاملة ودقيقة عن سد مأرب .

الوضع العام للسد :

رأينا في دراستنا الجغرافية لطبيعة أرض اليمن أن جبال عسير تُشكِّل خط تقسيم للمياه بين الأودية المتجهة غربا نحو البحر الأحمر ، والأودية المتجهة شرقا باتجاه الربع الخالي . كما عرفنا أن أعظم الأودية المنحدرة غربا هو وادي « مور » (الميزاب الغربي) ، وأكبر الأودية المتجهة شرقا هو « وادي اذنة » (الميزاب الشرقي) .

وعند نهاية انحدار الجبال شرقا و بداية اتصالها بالسهول أُقيم سدُّ مأرب على فَمِ وادي اذنة . فالسد الضخم الذي يبلغ طوله (٦٠٠) متر كان يقف في طريق سيل وادي اذنة كالجبل يصدّه عن الجريان فتتجمع المياه أمامه بكميات هائلة كانت تُستغل في ري مساحات شاسعة من الأراضي تُسمى الجنتين : اليمنى واليسرى .

وتَتصرِفُ المياه إلى الجنة اليمنى بواسطة فتحة واحدة محصورة بين حائطين مبنيين من الحجارة المنحوتة في طرف السد الجنوبي يُسميان (الصدفين : واحدها صدف) .

أما الجنة اليسرى فتنصرف إليها المياه من فتحتين اثنتين توجدان في الطرف الأيسر للسد .

احداها محصورة بين صدفين والثانية محصورة بين أحد الصدفين وحائط طويل يسمى السد الأيسر ، وتنتهي هاتان الفتحتان إلى قناة واحدة تتجه إلى الجنة اليسرى . (انظر الخريطة الشاملة للسد ــ رقم ٤) .

فالأجزاء الرئيسية للسد هي :

---

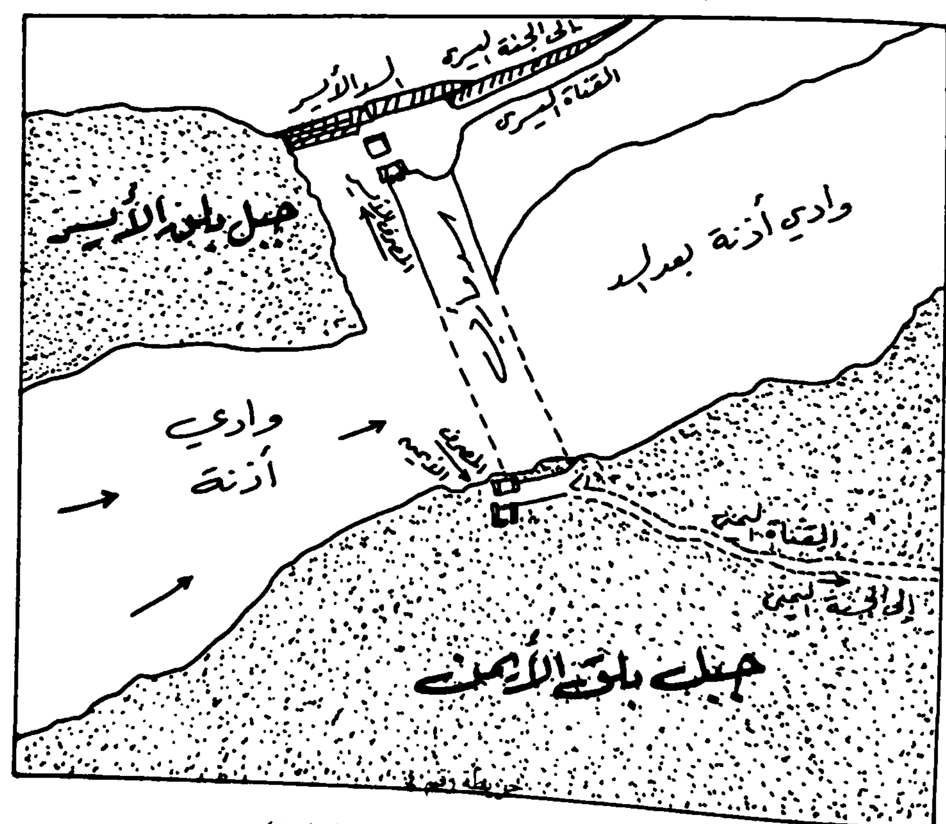
(١) أثناء وصف جورجي زيدان للسد يقول : و يظهر ممن شاهدوه (السد) انظر العرب قبل الاسلام ص ١٧٤

وادي اذنة، جسم السد، المصرف الأيمن، المصرف الأيسر، الجنة اليمنى، الجنة اليسرى. وسندرس كل جزء منها بالتفصيل.

أولا: وادي اذنة:

ويسميه أهالي مأرب (ذنة)، والأصح أنه (اذنة) لوروده في نصوص المسند(1) وهو أكبر الأودية المنحدرة شرقا كما أسلفنا، وتنتهي إليه أوديةٌ كثيرة وشعابٌ متعددة من أماكن مختلفة ذكر منها الهمداني(2).

رداع، ردمان، ومن جانب ذمار وبلاد عنس، وبلد كومان والحدا وجبال اسبيل ورخمة وجبال بني وابش وكداد وجبل بني مالك وكلها من بلاد مراد، ومن مخلاف ذي جران وجهران وهران، كما تنحدر إلى وادي اذنة أودية تأتي من ناحية خولان العالية.



(خريطة شاملة لسد مأرب والمناطق المجاورة)

---

(1) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي جـ3 نقش رقم 7 ص 55

(2) صفة جزيرة العرب ص 147 وما بعدها

أما أسماء هذه الأودية المنتهية إلى وادي اذنة، فمن حسن الحظ أنه صادف وجودي في مأرب وصولُ جماعة من سكان تلك الأماكن، سألتهم عن أسماء الأودية فذكروا منها :

وادي رحبته، وادي بقثه، وادي اللب، وادي ماهلي، وادي المشيرف، وادي يكلا وتنحدر جميعها ــ إلى وادي اذنة ــ من الجنوب والجنوب الشرقي.

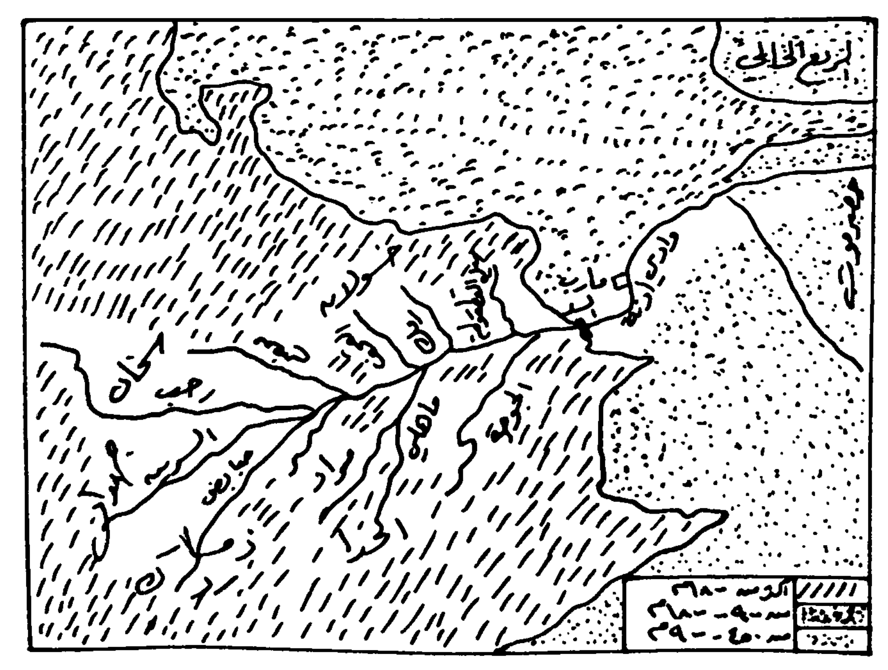
كما ذكروا أودية أخرى من الجنوب الغربي هي :

وادي ينعه، وادي السريين، وادي رحب (والأخير يبعد عن السد أكثر من عشرين كيلومترا).

أما الأودية المنحدرة إلى وادي اذنة من الشمال والشمال الغربي ــ من خولان العالية ــ فقد ذكر الهمداني منها : القحف ورمك وموضح(1).

وقبيل السد بقليل ينتهي إلى وادي اذنة سيل القطقوطة قادما من الشمال من بلاد جهم وسيل الجوجة الذي ينتهي إلى وادي اذنة من الجهات الجنوبية(2).

(انظر هذه الأودية بالخريطة رقم ٥)



خريطة رقم (٥) (وادي اذنة)

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٤٩

(٢) نزيه العظم رحلة في بلاد العربية السعيدة جـ٢ ص ٤٩

الحوض :

و ينحدر وادي اذنة نحو الشرق مع انحراف ـ أحيانا ـ جهة الشمال الشرقي إلى أن ينتهي إلى منخفض واسع (يشبه الحوض) محاط بالجبال من جميع الجهات. وتبدو هذه الجبال المحيطة دكناء اللون مقفرة من النباتات ما عدا بعض المزروعات المتناثرة في بطون الأودية. أما قمم هذه الجبال فيتكون أغلبها من كُتل صخرية ضخمة عملت فيها عوامل التعرية فعلتها فشكّلتها بأشكال متنوعة.

ولإن هذا المنخفض يميل ناحية الشرق فإن وادي اذنة يتخذ مجراه في هذا الاتجاه عبر المنخفض إلى أن يصل إلى الضيقة عند نهاية المنخفض من جهة الشرق.

الضيقة :

ويمر الوادي بعد خروجه من المنخفض بمضيق صغير (محصور بين جبلي بلق الأيمن والأيسر من جهتهما الغربية) يسميه أهل تلك الناحية «الضيقة».

و يبلغ اتساع وادي اذنة عندها خمسين مترا، وهو أقل اتساع لهذا الوادي وقد اشتهرت الضيقة بأنها مركز لقُطاع الطرق حتى ضُرِبَ بها المثل: كفاك الله شر الضيقة.

بحيرة السد :

و بين الضيقة وسد مأرب يتسع وادي اذنة شيئا فشيئا إلى أن يبلغ أقصى اتساع له في هذه المنطقة (حوالي ٥٠٠) متر، وذلك في منتصف المسافة بين الضيقة والسد. و يضيق الوادي بعد ذلك إلى أن يصل عرضه (٣٢٠ر٥) متر قبالة السد مباشرة. (انظر الصورة الفوتوغرافية رقم ٣).

وهذه المنطقة المحصورة بين السد والضيقة هي بحيرة السد القديم. ويمكن تقدير اتساعها كما يلي:

المسافة بين السد والضيقة (٤) كم، ومعدل عرض الوادي (٤٠٠) متر، وارتفاع حافتي الوادي (١٠) أمتار كحد أدنى، فتكون مساحة البحيرة: ٤٠٠٠×٤٠٠×١٠= (١٦ر٠٠٠ر٠٠٠) متر مكعب، وهي ولاشك كميات هائلة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المياه كانت تتدفق إلى وادي اذنة بانتظام في فصول معينة من السنة وقد عبّر مدير الآثار بمأرب عن كميات مياه السد الهائلة بكلمات بسيطة فقال: «كانوا يسقون أراضيهم دون أن تَنْقُصَ مياه السد».

جبلا بلق :

وجبلا بلق الأيمن والأيسر (الذي ينحصر بينهما وادي اذنة) هما في الأصل جبل واحد، إلا أن المياه شقّت هذا الجبل إلى جبلين بينهما أخدود عميق هو وادي اذنة.

و يرتفع هذان الجبلانعن الوادي بحوالي (٣٠٠) متر، و يتصلان بسلسلة الجبال المُطلة على سهول مأرب: أي انهما ليسا جبلين منفردين عن غيرهما كما يوحي الحديث عنهما، فشهرتهما جاءت من إحاطتهما بوادي اذنة من اليمين (الجنوب) ومن اليسار (الشمال) ابتداء من الضيقة وانتهاء بالسد. وعندما يقتربان من السد ينحرف جبل بلق الأ يسر إلى الشمال فالشمال الغربي فالغرب حيث يتصل بجبل هيلان المطل على سهول مأرب.

أما جبل بلق الأيمن فيبقى في اتجاهه نحو الشرق بعد السد بحوالي (٢) كم ينحرف بعدها إلى اليمين (الجنوب) و يتصل بالجبال المطلة على سهول مأرب من الجنوب.

وكلمة بلق (بفتح الباء واللام) تعني لونا بين البياض والسواد، أو كما قال راجح (رفيقي في رحلتي للسد): لون لاهو أبيض ولا هو أسود) وهو لون صخور جبل بلق بالفعل.

أما نوع صخور جبلي بلق فليست بركانية كما ذكر أحمد فخري[١] وغيره، وإنما هي صخور جيرية فيها قليل من حبات الكوارتز، وقد ثبت هذا من تحليل العينة (التي اقتطعتُها من جبل بلق) في مختبر الجامعة الاردنية.

والأشياء الجديدة التي شاهدتها في نهاية جبل بلق الأ يسر (أمام السد) هي:

١ــ وجودُ رسمٍ لجندي يقف مستعداً ومشيراً بيده اليمنى إلى الشرق ناحية السد.

٢ــ رسم لكرسي مائل إلى الخلف.

٣ــ رسم لوعل بقرونه المتشعبة.

وهذه الرسومات الثلاثة تُشاهد بوضوح إذا ما بُلِّلَتْ بالماء. (انظر مكانها على الخريطة رقم ٦).

٤ــ خريطة للسد ظننت في البداية أنها رُسمت في وقت متأخر، إلا أنني تأكدت من أنها محفورة بالصخور، والخريطة في شكلها العام تشبه خريطة العراق بنهريه دجلة والفرات كما يُشاهد في الصورة الفوتوغرافية رقم (٤). وامعان النظر في الخريطة يجعلنا نظن أن القناتين العلويتين المحفورتين تُمثلان القناة اليسرى واليمنى للسد، فإن صح هذا التفسير يكون الشمال في الخريطة المحفورة هو الشرق حقيقة.

وادي اذنة بعد السد:

وقبل ان ندخل في تفاصيل السد ومصارفه نتتبع وادي اذنة بعد السد: يتجه الوادي بعد السد مباشرة ناحية الشمال الشرقي (انظر الصورة رقم ٥) لمسافة كيلو متر واحد ينحرف بعدها ناحية الشرق فالشمال الشرقي فالشرق إلى أن ينعطف كليا بشكل زاوية قائمة في اتجاه مدينة مأرب. و يستمر في الاتجاه الشمالي ــ مع تعرجات بسيطة ــ إلى أن يصل إلى المدينة ويحاذي بابها الشرقي.

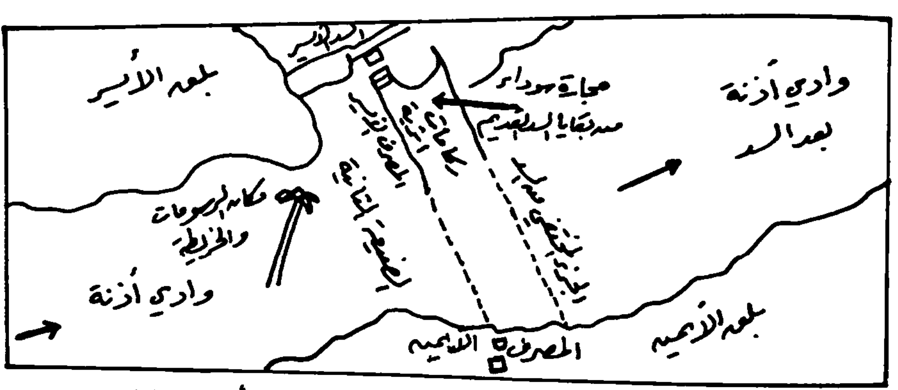
---

(١) اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٣٦

وهنا يتسع الوادي بحيث يبلغ عرضه من (٩٠٠ ـــ ١٠٠٠م).

و يتغير مجرى الوادي بعد المدينة إلى الناحية الشمالية الشرقية، و يستمر في تغيير مجراه بين الاتجاهات الشمالي والشمال الشرقي والشرق ـــ إلى أن ينتهي بفلاة صيهد ـــ غرب حضرموت.

وهنا أود أن أشير إلى ملاحظة جديرة بالاهتمام، إذ أن الفكرة الشائعة عند المؤرخين وعند سكان مأرب: ان الوادي ينتهي في الربع الخالي، وليس هذا صحيحا بل ينحرف الوادي نحو الشرق ـــ ناحية وادي حضرموت لأن الأراضي التي تفصله عن الربع الخالي أكثر ارتفاعا من الأراضي التي يجري فيها. وقد وصَلْتُ إلى هذه الملاحظة أثناء تتبع طرق التجارة القديمة التي كانت تسير في منخفض وادي حضرموت لتتجه إلى وادي اذنة فمدينة مأرب، ثم تأكدت من هذه الملاحظة بمراجعة خريطة الجزيرة العربية وملاحظة انحراف وادي اذنة إلى الشرق قبل وصوله الربع الخالي. (انظر الخريطة الشاملة لوادي اذنة رقم ٦).



(خريطة رقم ٦ :مكان الرسومات والخريطة : لم يشر إليها أحد من قبل)



صورة رقم ٣ ـــ وادي اذنة قبيل السد (جزء من بحيرة السد)



صورة رقم ٤ — خريطة السد المنقوشة



صورة رقم ٥ — وادي اذنة بعد السد



صورة رقم ٦ — ركامات الأتربة التي يعتقد انها بقايا جسم السد القديم

ثانيا : جسم السد :

على بعد (١٣٧) مترا من نهاية جبل بلق الأ يسر (من ناحية الشرق) أقام السبئيون سد مأرب بطول مقداره (٦٠٠) متر . أما عرض السد وارتفاعه فليس بالإمكان قياسها إذ لم يبق من جسم السد باقية، وما ظنه المؤرخون أجزاء مُتبقية من السد بالجهة اليسرى ما هو — في الحقيقة — إلا ركامات من الأ تربة ممتدة بين المصارف اليسرى للسد وحافة الوادي اليسرى لا تعطينا بأي حال من الأحوال فكرة عن ارتفاع السد (انظر الصورة رقم ٦) وحتى هذا الجزء من بقايا السد يُشك في أنه من بقايا السد القديم للأسباب التالية :

١ـ ان هذه الركامات مكونة من الأ تربة، فقد لاحظت هذه الركامات من ناحية الوادي فوجدتها ترابا من أعلاها إلى أسفلها ما عدا حجرا واحدا شاهدته بين الأ تربة، لكن نصوص المسند تشير إلى أن السد كان مبنيا من حجارة كبيرة من البلق[1] وليس من التراب .

٢ـ ان الفتحة الكبيرة المحصورة بين السد وجبل بلق الأ يسر (والتي تقود إلى المصارف اليسرى) سُدَّت بهذه الركامات حتى أصبحت متصلة بالجبل. غير أننا متأكدون أن السد لم يكن متصلا بالجبل بل كان بينهما فتحة كبيرة تتيح لمياه السد الاتجاه نحو المصارف اليسرى، ومعنى ذلك أن الأ تربة تجمعت في هذا المكان في وقت متأخر.

٣ـ يلاحظ وجود حجارة سوداء (متماسكة بقوة) في نهاية الركامات من ناحية الشمال (قرب القناة اليسرى) ومن المؤكد أن هذه الحجارة هي من مخلفات السد القديم، فهي في آخر السد من جهة الشمال (انظر الخريطة رقم ٦) ورغم صغر حجمها (يزيد حجمها عن قبضة اليد قليلا) إلا أنه من المستحيل نزع حجر منها بسبب وجود مادة ماسكة تربط هذه الحجارة.(انظر الصورة رقم ٧) أما الأ تربة المتراكمة بين المصارف اليسرى للسد وحافة الوادي اليسرى فيمكن أن تكون قد تجمعت في وقت متأخر — بعد خراب السد — بفعل الرياح الشرقية المحملة بالأ تربة (والتي يسمونها غبرة اذنة) من ناحية، والطمي الذي يرسّبه سيل وادي اذنة عندما يضعف تياره (بسبب استواء الأ رض) من ناحية أخرى.

---

(١) احمد شرف الدين، تاريخ اليمن الثقافي ص ٩٥



صورة رقم ٧ ـــ حجارة سوداء بقرب المصرف الشمالي من بقايا السد القديم

وعلى هذا فإن كان من السهل قياس طول السد بين المصارف اليمنى واليسرى فإن قياس ارتفاع وعرض السد مستحيل من بقاياه الراهنة كما أسلفنا . وفي هذه الحالة لابدّ من الرجوع إلى النصوص التي ذكرت أبعاد السد لعلنا نستطيع معرفة عرض السد وارتفاعه كما كان قديما .

ومن النقوش التي أشارت إلى أبعاد السد نقش أبرهة ، وفيه أنه أعاد بناء السد بعرض (٣٠) أمما ، وارتفاع (١٤) أمما[1] .

والخلاف بين المؤرخين حول ما يعنيه (الأمم) : هل هو الذراع أم الـباع ؟ فإذا أخذنا برأي الذين يرون أن (الأمم) هو الذراع وحسبنا أن الذراع (٦٨) سم يكون عرض السد (٢٠ر٤٠) متر وارتفاعه (٩ر٥٢م) على حسب ما ورد في نص أبرهة إلا أن الفتحة اليمنى الموجودة حاليا ترتفع عن مجرى الوادي بأكثر من تسعة أمتار ، لهذا فمن المستحيل أن يكون ارتفاع سد مأرب القديم تسعة أمتار فقط ، لان مياه السد لا تصل إلى الفتحة اليمنى (في المصرف الأيمن) على هذا الحساب . (و بهذه المناسبة يتأكد لنا أن الأمم الذي يرد في النصوص السبئية هو الباع لا الذراع)

وإذا أخذنا برأي الذين يفسرون الأمم بالباع ، فإن المقاييس التي أوردها أبرهة في نصه تُصبح معقولة . غير أن تحديد أبعاد السد بدقة حسب الباع أمر أكثر تعقيدا لجهلنا بمقدار الباع عندهم . لهذا لابد من الاستفادة من الجغرافيا البشرية وعلم الوراثة إذا ما أردنا تقدير الباع عند السبئيين فنقول :

إن اليمنيين يتصفون بقصر القامة على الأغلب ، وربما كان لطبيعة بلادهم الجبلية أثر في ذلك ، فإذا علمنا أن طول القامة وقصرها من الصفات الموروثة عادة فإننا نتوقع أن اليمنيين القدماء غلبت

---

(١) احمد شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافي جـ٣ نقش رقم ٦٥ ص ١٠٠

عليهم صفةُ قصر القامة كأحفادهم ، و يسير مع هذا الاتجاه تمثال ذمار علي يهبر (من ملوك سبأ وذي ريدان) الموجود في متحف صنعاء ، وكذلك رسم الجندي الذي شاهدناه في نهاية جبل بلق الأ يسر ، و بهذا يمكن تقدير معدل الطول لليمنيين بـ(١٥٠) سم . والظاهرة المعروفة «بأن طول باع الإنسان يقارب طوله» تجعلنا نُقدر الباع عند السبئيين بمقدار (متر ونصف) فإذا أخذنا بهذا التقدير تكون أبعاد السد كما وردت في نص ابرهة : العرض ٤٥م والارتفاع ٢١م ، وهذه الأطوال تتناسب مع ضخامة السد ووضع المصرف الأيمن .

ثالثا : المصرف الأيمن لسد مأرب :

لايزال المصرف الأيمن للسد باقيا حتى اليوم شاهدا على عظمة سد مأرب . وكان الهمداني -في القرن الرابع الهجري- قد عبّر عن طول بقاء هذا المصرف بقوله :

«ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا -وهو الذي يخرج منه الماء- قائما تخاله على أوثق ما كان ولا يتغير إلا أن يشاء الله عز وجل»[1]

والصدفان اللذان ذكرهما الهمداني في الجهة اليمنى لايزالان كما وصفهما ، ويحصران بينهما فتحة الماء الوحيدة في هذه الجهة والمتصلة بالقناة اليمنى التي تنتهي إلى الجنة اليمنى .

وقبل أن ندخل في تفاصيل هذا الجزء من السد نود أن نوضح معنى كلمة «صدف» المذكورة في كتب التاريخ التي أشارت إلى السد .

الصدف المقصود في سد مأرب هو عبارة عن حائط مبني من الحجارة المنحوتة على شكل مخروط مقطوع . و يوجد صدفان في الجانب الأيمن من السد وآخران في الجانب الأ يسر ، و بين كل صدفين فتحة (بوابة) لخروج الماء .

والصدفان الباقيان في يمين الوادي : أحدهما ملتصق بالجبل (نرمز له بالحرف أ) والثاني ناحية الوادي (نرمز له بالحرف ب) و بينهما فتحة الماء (رقم ١) انظر الشكل التوضيحي (رقم ٢) .

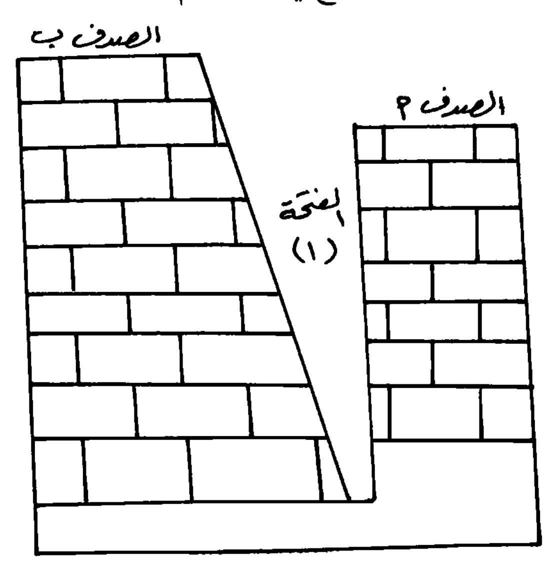
وقاعدة الصدف (أ) أعلى من قاعدة الصدف (ب) كما يبدو في الشكل رقم (٢) ، وواجهته الأمامية مبنية من الحجارة الكبيرة المنحوتة ذات اللون الرمادي ، أما ظهيره الخلفي فيلتصق مباشرة بصخور بلق الأيمن العظيمة (انظر الصورة رقم ٨) ، وتوجد درجة واحدة منحوتة في الطرف الشرقي من واجهته الشمالية (الموالية للفتحة رقم (١) .

أما الصدف (ب) فهو مبني من الحجارة المنحوتة أيضا ، ولكن حجارة بنائه بيضاء اللون اكتسبت مع طول الزمن لونا يقترب من اللون الذهبي .

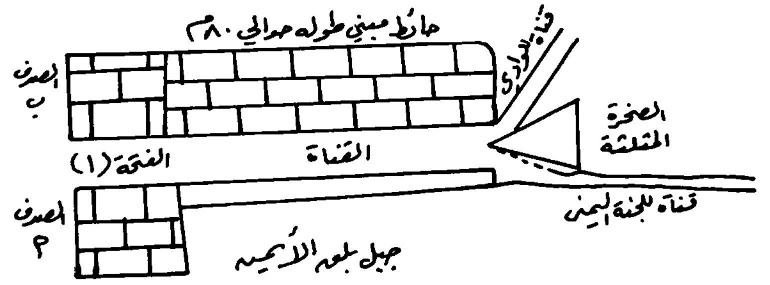
---

(١) الإكليل جـ٨ ص ٥٣

و يتميز الصدف (ب) عن الصدف (أ) في أنه متصل من خلفه بجدار يبلغ طوله حوالي (٨٠) مترا مبنّي بحجارة منحوتة ، ومن مميزاته أيضا وجود سلم مبني من الحجارة في الجهة المقابلة للصدف (أ) أي في ناحية فتحة الماء كما هو واضح في الصورة رقم (٩).

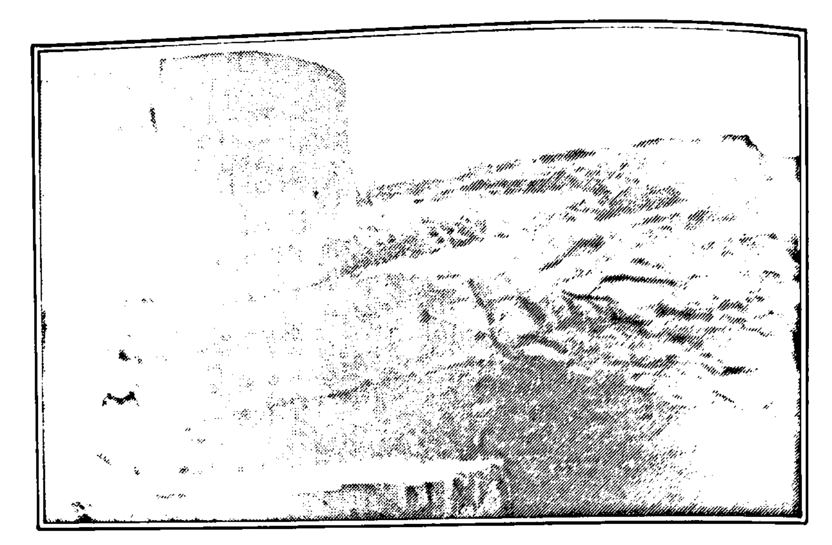


شكل رقم (٢) وضع الصدفين في الجانب الأيمن من السد ، بينهما الفتحة (١).

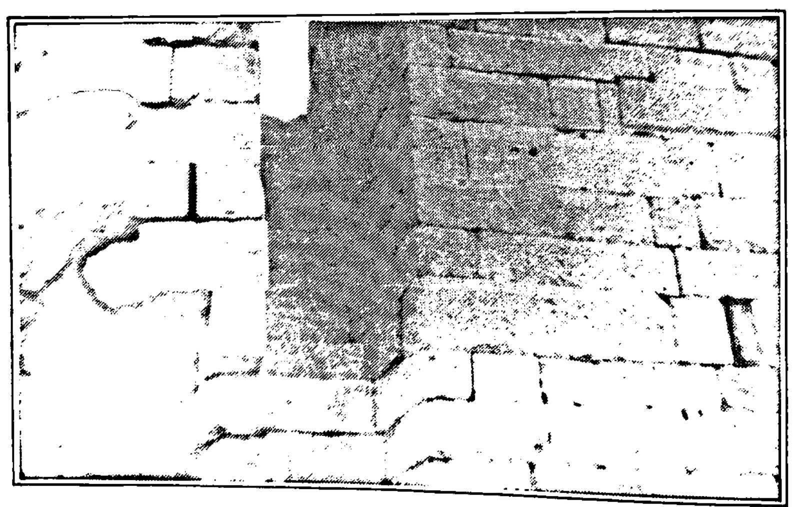


شكل رقم (٣) الصدفان والقناة وفرعاها والصخرة المثلثة

شكل رقم (٤) عوارض خشبية ظن المؤرخون أن صرف المياه من السد كان يتم بواسطتها



صورة رقم ٨ــ قاعدة الصدف أ مرتكزة على صخور جبل بلق الأيمن



صورة رقم ٩ــ درج في الصدف ب

وبين الصدفين (أ،ب) توجد الفتحة رقم (١) وعرضها (٤٫٥٥) متر ، وتتصل من ناحيتها الشرقية بالقناة اليمنى التي تنحصر بين جدارين هما :

الجدار الجنوبي:
وهو منحوت في جبل بلق الأيمن ، وطرف هذا الجدار من الغرب متصل بالصدف (أ) .

الجدار الشمالي:
(ناحية الوادي) وأسفله منحوت، بينما الجزء العلوي منه مبني بالحجارة. وأول هذا الجدار متصل بالصدف (ب)، وطرفه الآخر (الشرقي) كان متصلا بجسم السد.

وتمتد القناة بين الحائطين مسافة (٨٠) مترا تقريبا (طول الجدار الشمالي) إلى أن تقابل القناة صخرة منحوتة على شكل مثلث رأسه إلى الأسفل (كما هو واضح في الصورة رقم ١٠)، وتتفرع القناة أمام الصخرة إلى فرعين:

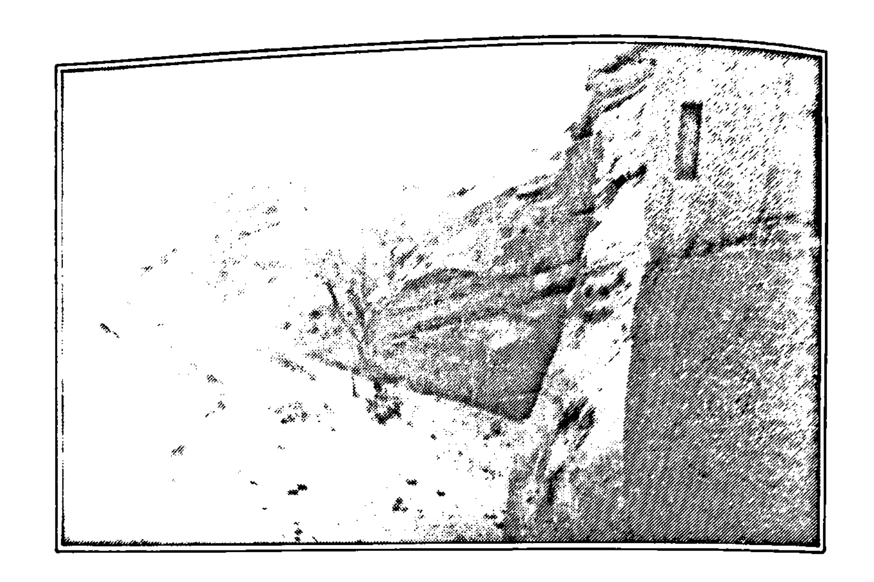
فرع أيمن: يسير باتجاه الجنة اليمنى. وإذا تتبعنا هذا الفرع فإننا نجده ـ أحيانا ـ مبنيا بالحجارة وخاصة في المناطق المنخفضة من الجبل، وأحيانا أخرى يكون منحوتا في جبل بلق الأيمن. وعلى أية حال فهذا الفرع هو الذي كان يسقي أراضي الجنة اليمنى بواسطة مقاسم المياه التي توزعه على الأراضي.

فرع أيسر: ينحرف إلى اليسار من أمام الصخرة المثلثة و يتجه إلى وادي اذنة، و يبدو أن هذا الفرع كان يُستخدم لتصريف المياه الزائدة عن مخزون مياه السد. (انظر الشكل التوضيحي رقم ٣ والصورتين رقم ١٠، ١١).

كيف كانوا يتحكمون بصرف المياه من الفتحة (١):

يعتقد كثير من المؤرخين أن السبئيين كانوا يستخدمون عوارض خشبية أو حديدية في إغلاق الفتحة المحصورة بين الصدفين (أ،ب) الشكل رقم ٤. فقد ذكر هؤلاء أن أطراف العوارض الخشبية كانت تركز على درجات متقابلة في واجهتي الصدفين (أ،ب) من ناحية الفتحة(١)، فكان السبئيون يرفعون العارضة العلوية عند حاجتهم للري، فتنساب كميات من المياه بسعة الفتحة حتى يهبط سطح الماء إلى مساواة العارضة الثانية فيقف، فإذا أرادوا ريا آخر نزعوا عارضة أخرى.. وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة[1].

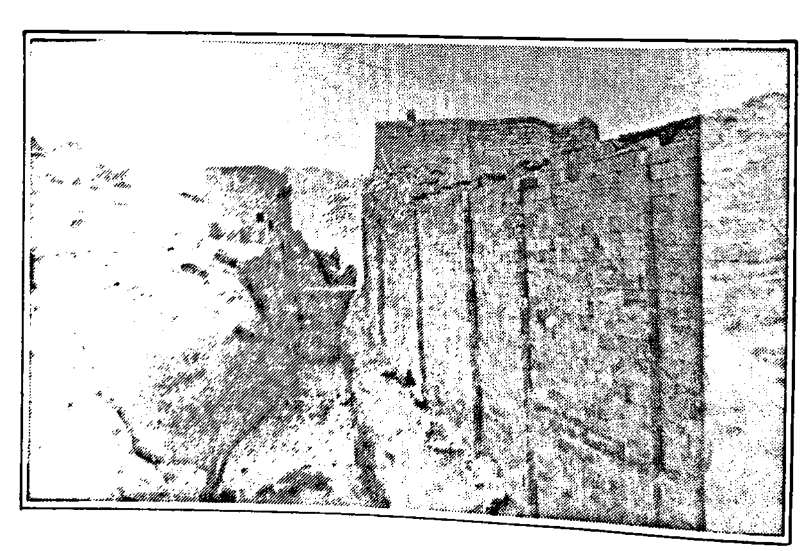
(١) انظر جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام ص ١٧٥، ونقل عنه هذه الفكرة معظم الذين وصفوا سد مأرب



صورة رقم ١٠ ــ الصخرة المثلثة التي تقابل القناة بعد خروجها من بين الصدفين

(لاحظ انقسام القناة إلى فرعين أمام الصخرة)

التقطت الصورة اثناء الوقوف بين الصدفين



صورة رقم ١١ ــ القناة بعد خروجها من بين الصدفين

التقطت الصورة اثناء الوقوف على الصخرة المثلثة

وطريقة صرف المياه هذه أقرب إلى البدائية من أن تناسب سداً ما دام بقاؤه آلاف السنين، ثم أعجز أولئك الذين بنوا السد من الحجارة الضخمة، وربطوا بينها بطرق مختلفة ونحتوا القنوات في الصخور وأقاموا مصارف خالدة — أعجزوا عن إيجاد طريقة مُثلى للتحكم بصرف المياه غير طريقة العوارض الخشبية أو الحديدية؟

وتساؤل آخر: هل رفع عارضة خشبية تحكم بالماء. إن رفع عارضة واحدة فقط معناه خروج المياه باتساع الفتحة وهو (٤ر٥٥) متر، فماذا لو كانوا يحتاجون لكميات مياه أقل؟

إن استخدام العوارض الخشبية أو الحديدية لا يؤدي الغرض المطلوب بأية حالة من الحالات، ولهذا لابد أن القائمين على السد كانوا يستخدمون طريقة أخرى غير طريقة العوارض. وقد ثبتت هذه الفكرة في ذهني قبل زيارتي للسد مما جعلني افكر في الطريقة الصحيحة التي كان السبئيون يستخدمونها في صرف مياه السد.

وعند زيارتي الأولى لأطلال السد تفحّصتُ المصرف الأيمن بعناية ولمدة طويلة فلاحظت ما يلي:

١- لا توجد درجات متقابلة بين الصدفين (أ، ب) كما ذكر المؤرخون، وإنما الدرجات في الصدف (ب) فقط كما يُشاهد في الصورة رقم (٩). أما الصدف (أ) ففيه درجة واحدة في أعلاه في الجهة المقابلة للصدف (ب). (انظر الصورة رقم ١٠) وبالطبع لا يمكن وضع اطراف العوارض على درجات من جهة واحدة فقط دون أن تقابلها درجات ترتكز عليها الأطراف الأخرى للعوارض — خاصة إذا ما وضعت العوارض لصد الماء، فأية قوة للماء مهما كانت ضعيفة تُسقط العارضة إذا لم يرتكز طرفاها تماما. ولهذا فإن فكرة استخدام العوارض ينبغي أن تُزاح من الأذهان نهائيا كطريقة كانت مستخدمة لصرف مياه سد مأرب.

٢- شاهدت حجارة منحوتة مصفوفة بانتظام بين الصدفين (أ، ب) — انظر الصورة رقم ٨ — وتساءلت عن فائدة وضعها في هذا المكان، فما لبثت أن أدركت أنها الوسيلة التي كان السبئيون يتحكمون في صرف المياه بواسطتها، فكيف كان يتم ذلك؟

الحجارة المنحوتة ممدّدة في الفتحة (ما بين الصدفين) بشكل أفقي وهي حجارة مضلعة (متوازي مستطيلات) طولها حوالي المتر والواجهة العلوية (١٥) سم أما ارتفاع الواجهة الأخرى فحوالي (١٠ سم). وفي كل حجر منها أربعة بروزات في جهة وأربع نقرات في الواجهة المقابلة (انظر الشكل التوضيحي رقم ٥) ويمكن رص هذه الحجارة بعضها فوق بعض بحيث تدخل بروزات حجر في نقرات الحجر الذي تحته وهكذا بحيث تتكون حجارة متراصة كأنها حجر واحد.

وكان السبئيون إذا أرادوا صرف كميات من مياه السد رفعوا أحد هذه الأحجار فتخرج المياه

من فتحة اتساعها (١٥×١٠) سم٢، وإذا أرادوا مضاعفة هذه الكمية رفعوا حجرا آخر بجانب الحجر الأول (وليس من تحته)، وهكذا كانوا يتحكمون بكميات المياه التي يريدونها من أقل اتساع (١٥×١٠) سم٢ إلى اكبر اتساع وهو اتساع الفتحة كلها (٤٫٥٥)م. وإذا انخفض منسوب الماء إلى السطر الثاني (من الأعلى) للحجارة المصفوفة وأرادوا كميات من المياه رفعوا حجرا من السطر الثاني أو اثنين أو ثلاثة .. من نفس السطر (الثاني) على حسب حاجتهم.

وليس من الضروري رفع الحجارة إلى مكان بعيد بل يمكن أن تُركن على الحجارة الأخرى المحاذية.

أما اغلاق الفتحة فكان يتم برص الحجارة التي رفعوها بعكس طريقة فتحها: أي أن آخر حجر رُفع عند الفتح يُوضع أولا. (الشكل التوضيحي رقم ٦).

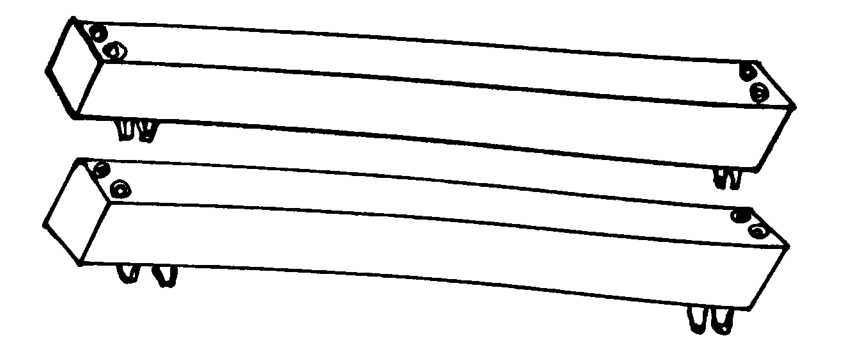
وطريقة صرف الماء هذه فريدة من نوعها ـ تماما كما أن السد فريد من بين السدود قديمها وحديثها.

رابعا: مصارف السد اليسرى:

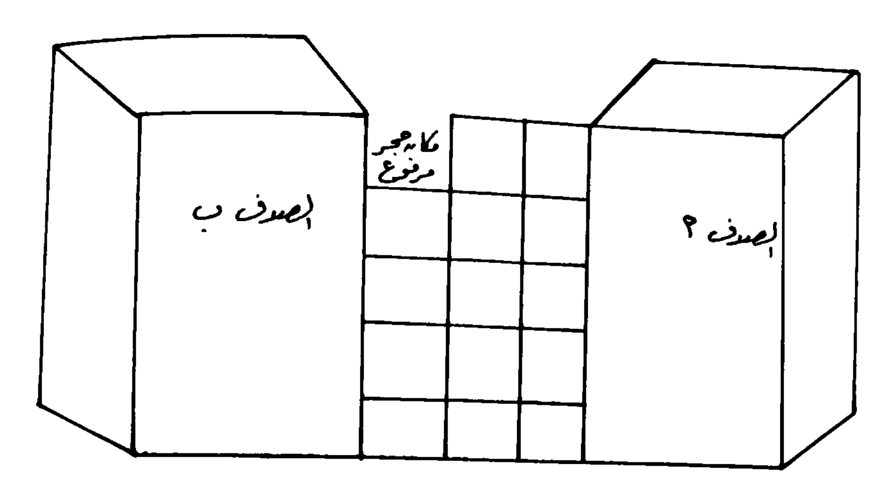
يميز المصارف اليسرى للسد عن اليمنى ما يلي:

١ ـ وجود فتحتين لصرف المياه لا فتحة واحدة كما هو الحال في المصرف الأيمن.
٢ ـ التقاء القناتين اللتين تخرجان من الفتحتين في قناة واحدة بعد عشرة أمتار.
٣ ـ امتداد حائط (يسمى السد الأيسر) في آخر أجزاء السد من ناحية الشمال.

أما بناء وشكل الصدفين في هذا الجزء فيشبه الصدف (ب) في الجانب الأيمن من السد من حيث نوع أحجار البناء والشكل العام الذي يبدو كمخروط مقطوع من أعلاه.



شكل رقم (٥) ـ حجران من الحجارة المصفوفة بين الصدفين كانت تستخدم كوسيلة لصرف مياه السد (لاحظ البروزات والنقرات)



شكل رقم (٦) الحجارة المنحوتة بين الصدفين وقد رفع منها حجر واحد لكي تتدفق المياه من مكانه

ولنبدأ في وصف هذا الجزء من السد:

نرمز للصدف الملاصق للسد بـ(جـ) وللصدف الآخر بـ(د) ونرقم الفتحة المحصورة بينهما برقم (٢) والفتحة الثانية المحصورة بين الصدف (د) والسد الأيسر برقم (٣) كما هو موضح بخريطة رقم ٨.

والصدف (جـ) متقدم عدة أمتار عن الصدف (د) إلا أنه مندمج تماما في بقايا السد الذي يأخذ شكلا منجليا من وراء الصدف (جـ) مكونا حوضا صغيرا عند التقاء القناتين الخارجيتين من الفتحتين (٢، ٣) وتوجد بقايا بناء متهدم على الصدف (جـ) ذكر أهل مأرب أن الجيش المصري بناه كنقطة مراقبة إبان وجوده في مأرب في الفترة الأخيرة (أنظر الصورة رقم ١٢).

أما الصدف (د) فهو أصغر من الصدف (جـ) ولكنهما متشابهان في الشكل العام وفي نوع حجارة البناء.

و يبلغ ارتفاع الجزء الظاهر من الصدف (د): ٨٫٣٠ متر، بينما يبلغ عرضه (من الأسفل) ٤٫٢٠متر، و يتصل بهذا الصدف من الخلف حائط طوله (١٠م) تقريبا ينتهي بالتقاء قناتي الفتحتين.

والفتحة (٢) المحصورة بين الصدفين عرضها ثلاثة أمتار وهي مسدودة الآن بحجارة صغيرة يظهر من طريقة بنائها والمادة الماسكة المستعملة ــ أنها سُدّت في وقت متأخر. (الصورة رقم ١٣).

أما الفتحة (٣) فهي محصورة بين الصدف (د) والسد الأيسر. (انظر الصورة رقم ١٢ التي

جمعت بين: الصدفين والفتحتين وجانب من السد الأ يسر).

وآخر أجزاء السد من ناحية الشمال هوما يسمى بـــ«السد الأ يسر» و يبدأ هذاالسد من جبل بلق الأ يسر و ينتهي بعد التقاء القناتين حيث يتصل بجدار القناة اليسرى. وطوله من مبدئه إلى منتهاه حوالي (١٤٠) مترا.

ويمكن تقسيم السد الأ يسر إلى قسمين:

الأ ول: من جبل بلق الأ يسر حتى مقابل الصدف (د) وطوله حوالي (٥٠م) وعرضه عند قاعدته نحو (٥ر٥) أمتار. وسطحه مغطى بمادة ماسكة تسمى القضاض (سيأتي ذكرها) و ينخفض القسم الأ ول عن القسم الثاني بمقدار ثلا ثة أمتار. ولا يزال هذا الجزء من السد الأ يسر متماسكا بقوة كما كان.

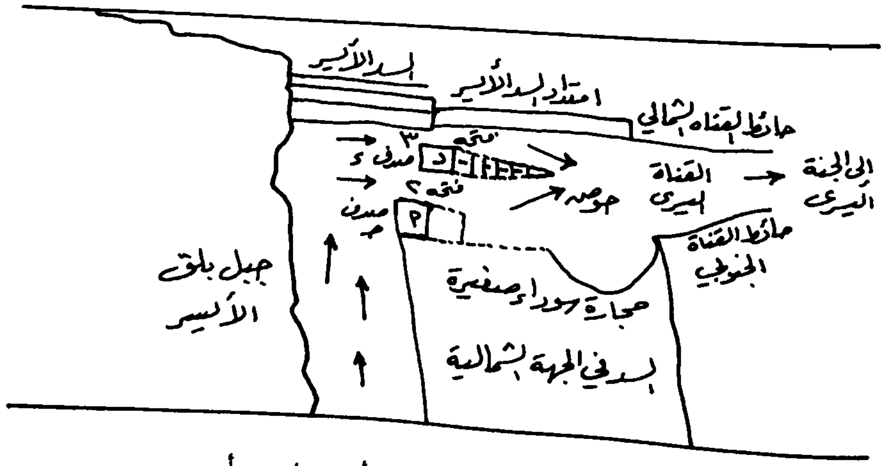
الثاني: و يبدأ من مقابل الصدف (د) و يتصل بالحائط الشمالي للقناة اليسرى، وطول هذا القسم (من السد الأ يسر) حوالي (٩٠) مترا، أما ارتفاعه فيقارب ارتفاع الصدف (د) أي حوالي (٣٠ر٨م) وقد بدأ هذا القسم في الانهيار كما يلاحظ في الصورة رقم (١٤).

وللسد الأ يسر ــ كما يظهر من وضعه ــ عدة فوائد منها:

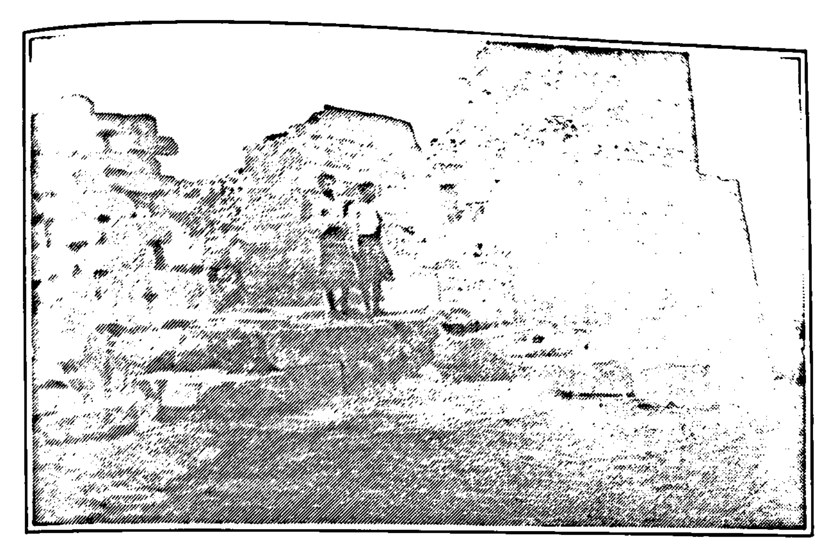
١ــ أنه يشكل مع الصدف (د) جدارين للفتحة (٣).

٢ــ بالقسم الأ ول منه فتحات لتصريف المياه الزائدة أثناء ارتفاع منسوب مياه السد الرئيسي.

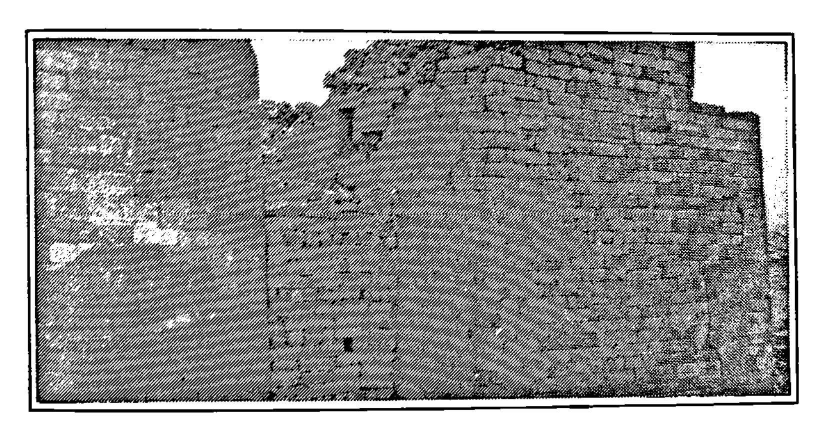
٣ــ انه يقف أمام سيول الأمطار المنحدرة من الشمال الغربي فيمنعها من الاتجاه نحو السد الرئيسي.



خريطة رقم ٨ــ المصرف الأ يسر لسد مأرب



صورة رقم ١٢ــ الصدفان جـ، د والفتحتان ٢، ٣ وجانب من السد الأ يسر و بقايا نقطة المراقبة



صورة رقم ١٣ــ الفتحة رقم (٢) مسدودة بالحجارة



صورة رقم ١٤ــ الفتحة رقم (٣) وجزء من السد الأيسر بدأ في الانهيار

أين تتجلى عظمة سد مأرب:

قبل أن نترك السد وأجزاءه إلى وصف الجنتين نودّ أن نبحث في سر عظمة هذا السد وخلوده على مر الأزمان.

قد تكون ضخامة سد مأرب سبب شهرته لاسيما وأنه بني قبل (٢٥٠٠) سنة على أقل تقدير عندما كان الإنسان في احدى مراحل تدرجه الحضاري.

وقد تكون شهرته ناتجة عن اتساع الأراضي المستفيدة منه.

ويمكن أن تكون دقّة نحت الحجارة التي بُني بها أو طريقة صرف مياه السد هي سر عظمته.

والحقيقة أن أي سبب من الأسباب السابقة كفيل بأن يجعل من السد أضخم مشروع اقتصادي أقيم في العصور القديمة.

وإن كان هناك آثار من الحضارات القديمة تشارك السد في ضخامته أو تزيد كأهرام الجيزة بحجارتها الضخمة أو بترا الأنباط المدينة المنحوتة في الصخور ــ فإن سد مأرب ينفرد عن غيره من آثار الحضارات القديمة بشيئين بارزين هما: أساليب البناء المتعددة التي استخدمت في بنائه والمواد الماسكة المُستعملة ــ وهما في اعتقادي سر عظمة سد مأرب وخلوده كما سنبين ذلك

أولا: أساليب البناء:

يتبين من أطلال سد مأرب أن السبئيين استخدموا في بنائه طريقتين لم تُشاهدا في آثار الحضارات القديمة هما:

١ ــ البناء بالبروزات والنقرات: وهذه الطريقة في البناء اختصت بها حضارة اليمن القديمة على ما يبدو، و يسمونها (ذكر في انثاه) فقد كانوا ينحتون الحجر بأي حجم يريدون، و يتركون في أطرافه أربعة بروزات (نتوءات) أو بروزان بينما يُنقر (يحفر) أربعة فراغات أو أقل في الواجهة المقابلة. فإذا أرادوا البناء وضعوا نتوءات الحجر في نقرات حجر آخر ــ فيلتصق الحجران تماما دون استخدام مادة ماسكة.
وقد ذكرنا أن هذه الطريقة تظهر في الحجارة الموجودة بين الصدفين في الجهة اليمنى من السد، كما استُخدمت في بناء السد الأيسر. (الصورتان ١٤، ١٥).

٢ ــ وضع الحجارة الرأسية: وطريقة أخرى للبناء تُشاهد في بقايا سد مأرب وهي وضع حجر رأسي بين كل أربعة أحجار مبنية أفقيا (الشكل التوضيحي رقم ٧). و يوجد هذا النوع من البناء في الحائط المُمتد وراء الصدف (ب) في الجانب الأيمن من السد. (الصورة رقم ١٦ تبين أسلوب البناء هذا بوضوح).

٣ ــ الحجارة القوسية: وقد استخدم هذا النوع من الحجارة في زوايا الأبنية و يُشاهد هذا البناء في

الركن الخلفي للصدف (ب) عند اتصاله بالحائط الممتد وراء هذا الصدف.

ثانيا: المواد الماسكة التي تربط بين الحجارة المبنية:

١ــ عمد السبئيون إلى استخدام الفلزات (النحاس والرصاص) لربط حجارة البناء وتثبيتها. فقد ذكر الهمداني[1] أنهم ربطوا بين الحجارة الضخمة التي اتخذت أساسا للبناء بالقطر (النحاس المذاب).

أما القضبان الرصاصية والنحاسية فكانت مهمتها ربط الحجارة ببعضها لتزيد من قوة البناء. ولم أشاهد هذه القضبان في أطلال السد، إلا أن أحد سكان مأرب ذكر أن طول القضيب الواحد (١٥) سم، وأنهم لازالوا يستخدمونها في أغراض شتى منها استخدامها مدقاقا للبن.

٢ــ استعمال القضاض كمادة ماسكة في البناء:

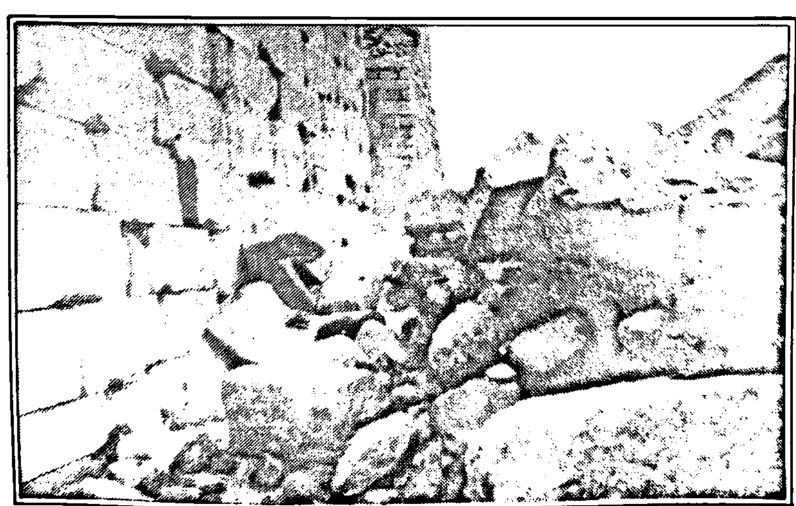
والقضاض يشبه الأسمنت في استعمالا ته، إلا أنه يُستخدم كذلك في تغطية سطوح الأ بنية وحوافها (كالألبست الموجود على قمة الهرم الأ وسط من أهرام الجيزة).

ومعرفة مادة القضاض استغرقت فترة طو يلة بَدَأتْ عندما أَخَذْتُ عينةً منها من السد الأ يسر، و بعد تحليل هذه العينة في مختبر الجامعة الأ ردنية تبيّن أن مادة القضاض تتكون من المواد التالية:

قطع بازلت 1- Basalt Frogments

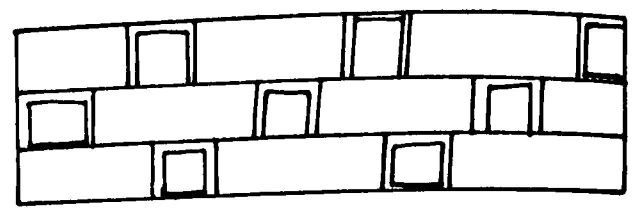
حجر جيري (بلق) مبلور نوعا ما 2- Limeston(Carontes)

طين جيري (ناعم جدا) 3- Calcareous Mud

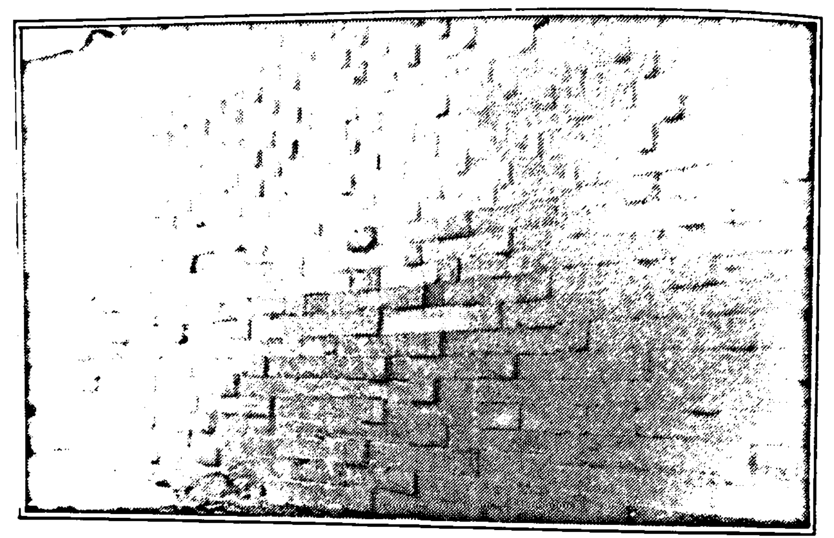


صورة رقم ١٥ ــ حجارة بها نقرات في السد الأ يسر

(١) الإكليل جـ٨ ص ٥٥



شكل رقم ٧ــ حجارة رأسية موضوعة بين حجارة أفقية



صورة رقم ١٦ ــ الجدار الممتد وراء الصدف ب: حجارة رأسية بين أفقية

إلا أن معرفة هذه المواد لا تُرشد إلى كيفية صنع مادة القضاض ولا طريقة استعمالها. و بقي أمر معرفة هذه المادة عالقا في ذهني إلى أن شاهدت القضاض في أحد المساجد بجنوب السعودية، فسألت عن بانيه فعرفت أنه كهل يمني، وقد شرح لي هذا الرجل صناعة مادة القضاض من البداية حتى النهاية.

المواد المستعملة:

١ــ حجارة الخورم (توجد في الطبيعة على شكل طبقات بين الصخور الأخرى).
٢ــ حجارة المرور (حجارة مبلورة حمراء أو بيضاء اللون).
٣ــ حجارة بازلتية.
٤ــ كميات كبيرة من الحطب بعضه أخضر لتطول فترة اشتعال النار
٥ــ حوضان أحدهما أعلى من الآخر تصل بينهما قناة صغيرة.

مراحل الصناعة: الخطوة الأولى:

تُصَفُّ حجارة الخورم في الحوض العلوي وتوضع فوقها طبقة من الحطب ثم طبقة خورم وفوقها.

طبقة حطب، وهكذا حسب اتساع الحوض العلوي.

يُشعل الحطب فتحترق حجارة الخورم وتتحول إلى تراب ناعم شبيه بالدقيق ينحدر مع القناة إلى الحوض الأسفل.

الخطوة الثانية:

أثناء الحريق أو قبله تُدَقُّ حجارة البازلت بالمدقات الحديدية حتى تصبح كالحب المجروش ثم تدق حجارة المرو أيضا كالحجارة البازلتية.

الخطوة الثالثة:

يُعجن تراب الخورم الناعم مع حجارة المرو والبازلت المدقوقة، ثم يُترك مدة أربعة أيام كي يتخمر. والعجينة المخمرة هذه ـ هي القضاض التي تُستخدم في ربط الحجارة وفي طلاء البيوت وغيرها من الاستعمالات.

وطريقة تحضير القضاض السابقة طريقة بدائية، وإنما ذكرتها بالتفصيل لأ وجه الانتباه إلى إمكانية الاستفادة من هذه الصناعة اقتصاديا في الوقت الحاضر، سيما وأن القضاض بديل للأسمنت وأفضل منه بكثير، و يؤكد هذا أن القضاض الموجود على سطح السد الأ يسر لا يزال على وضعه منذ ألفي سنة، ولا أحد يخال أن الأسمنت يبقى هذه المدة بأي حال من الأحوال.

وعلى ما أوردناه آنفا تكون أساليب البناء في سد مأرب والمواد الماسكة المستعملة في البناء ـ من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى عظمة سد مأرب وخلوده.

خامسا: الجنتان: اليمنى واليسرى:

وهما الأراضي الواسعة الممتدة على ضفتي وادي اذنة بعد السد. وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم «لقد كان لسبأ في مَسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»(١) وكانتا ترتويان من مياه السد بواسطة قنوات لايزال منها باقية. ومن يرجع إلى كتب التفسير وأشعار العرب ومؤلفات المؤرخين يحسب أن وصفهم للجنتين فيه مبالغة، وما هو كذلك، خاصة إذا علمنا أن الله ـ سبحانه ـ جعلهما آية.

أولا: الجنة اليمنى:

يستمر جبل بلق الأيمن في موازاة وادي اذنة بعد السد لمسافة تقارب الكيلومترين، ينفرج بعد ذلك نحو اليمين (الجنوب) و يسير في هذا الاتجاه نحو (٢) كيلومتر حيث يتصل بالجبال المطلة على سهول مأرب من الجنوب. وتأخذ الجبال شكلا قوسيا تقريبا من الجنوب والجنوب الشرقي والشرق

---

(١) سورة سبأ الآية ١٥

لسهول مأرب (انظر الخريطة رقم ٩).و بين وادي اذنة وتعرجاته (من السد حتى مدينة مأرب) والجبال المحيطة من الجنوب والجنوب الشرقي والشرق ـ تمتد أراضي الجنة اليمنى.

ولقد سرت بالسيارة عبر هذه الجنة وشاهدت آثار القنوات القديمة التي لا يزال بعضها مرتفعا عن الأرض بمقدار متر تقريبا.

وارتفاع القنوات هذا يثير تساؤلات: هل كانت القنوات مرتفعة أصلا عن أراضي الجنة أم أن الأرض كانت بمستوى القنوات فأخذت منها عوامل التعرية سطحها العلوي فانخفضت عن مستوى القنوات؟

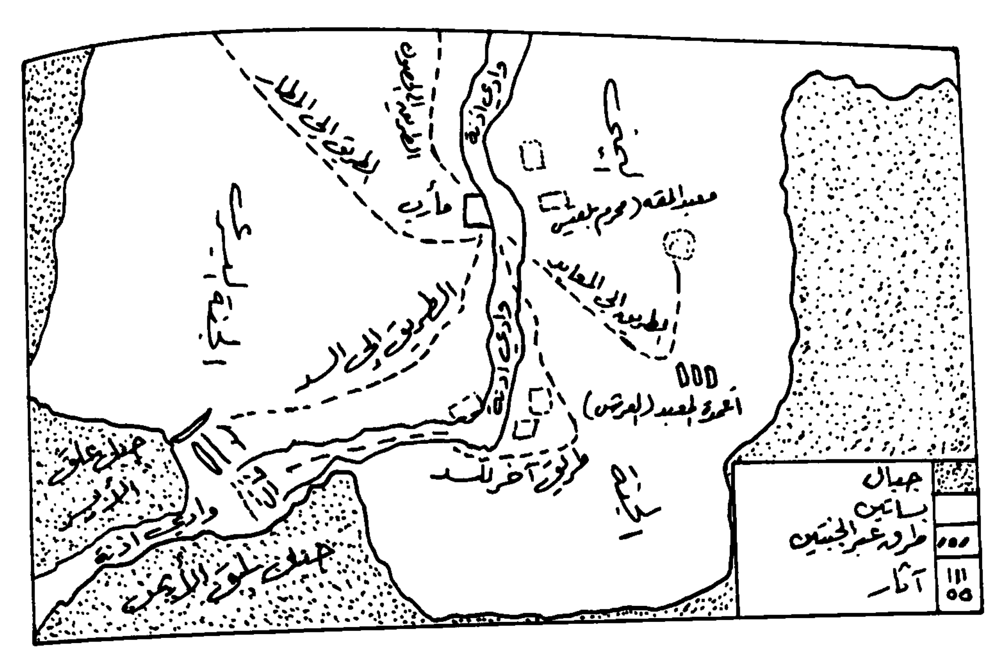
وكلا الأمرين محتمل، إلا أن مشاهدتي لآثار القنوات (الأكثر وضوحا) في الجنة اليسرى جعلني أرجّح أن القنوات كانت مرتفعة عن سطح الأرض بواسطة قناطر.

وفي الجنة اليمنى بقايا لأبنية قديمة أحسب أنها كانت بيوتا للمزارعين في ضواحي مأرب. وفيها كذلك الآثار التي تُنْسَبُ إلى بلقيس كما سبق ذكره في آثار ضواحي مأرب.

أما معالم الحياة في هذه الجنة اليوم فتتمثّل في عدة بساتين بقرب الوادي مزروعة بمحاصيل قصب السكر والذرة والبرسيم، وعلى مقربة منها بيوت سكنية مبنية من الطين شاهدت بقربها بعض الحيوانات كالأغنام والأبقار.

والإنسان والحيوان والزرع تحصل على المياه من آبار ارتوازية أودع عليها أصحابُها مضخات (مواتير) لاستخراج الماء، وقد ذكر لي أحد المهندسين هناك أن عمق بعض هذه الآبار لايتعدى بضعة أمتار.

وعلى أية حال فما استغل من أراضي هذه الجنة إنما هو جزء صغير جدا إذا ما قيس بمساحتها الكلية: فالرمال والشجيرات الشوكية (التي اتخذت شكل المظلة من تأثير الرياح) هي آخر ما تبقى من جنة كانت ـ يوما ما ـ مثار العجب والدهشة بكثرة انتاجها وتنوع محاصيلها.



خريطة رقم ٩ــ الجنتان والمعالم الجغرافية والأثرية بهما

ثانيا: الجنة اليسرى:

وتمتد أراضيها على الضفة اليسرى لوادي اذنة بعد السد. وآثار هذه الجنة أوضح من آثار الجنة اليمنى إذ تُشاهد بقايا القنوات في أماكن متعددة منها ــ متفرعة من الحوض (مقسم المياه) الذي يبعد عن السد مسافة كيلومتر واحد باتجاه مدينة مأرب.

وتبدو أراضي هذه الجنة مُقطّعة بواسطة أخاديد متكونة من مجاري المياه، ولهذا تَحْصُر الأخاديد بينها أراض مرتفعة على شكل موائد صحراوية.

والنباتات الطبيعية في الجنة اليسرى أكثر توزيعا وكثافة من الجنة اليمنى، ولاشك أن سبب ذلك امتدادها بجانب الجبال التي تنحدر أوديتها نحوها. وأهم أشجارها شجر الأراك (الذي تزداد كثافته بقرب وادي اذنة) وتؤخذ من عيدان هذا الشجر المساويك، وشجر السلم والسرح والسمر، وهي أصغر حجما في الجنة اليسرى منها في الجبال والأودية المجاورة.

وقد اكتسبت هذه الأشجار لوناً مغبرا من تأثير الرياح الشمالية الشرقية التي تهب بانتظام حاملة معها الأتربة الصحراوية.

وكما في الجنة اليمنى تتخذ هذه الأشجار ــ عموما ــ شكل المظلة، وما ذاك إلا بتأثير الرياح التي تهاجمها باستمرار فتأخذ شكلاً مظليا يساعدها على الصمود أمام الرياح.

أما المزروعات في الجنة اليسرى فأقلُّ من مثيلتها بكثير، إذ لايوجد إلا بستان واحدبجانب انعطاف وادي اذنة نحو مأرب (انظر الخريطة رقم ٧).

وأهم الآثار الموجودة في هذه الجنة: أطلال مدينة مأرب و بها قصور السبئيين المُحاطة بالسور الحميري، كما يوجد بها ما استجدمن المباني الطينية والحجرية خاصة مبنى المحافظة.

والطريق إلى مطار مأرب تمر عبر الجنة اليسرى كما تمر بها طريق مأرب-صنعاء، وعادة تسير السيارات بنفس وادي اذنة ما لم يكن جاريا، فإن كان، فهناك طرقٌ أخرى أكثر وعورة من طريق الوادي.

مساحة الجنتين:

تباينت تقديرات المؤرخين لمساحة الجنتين تبايناً ظاهراً:

فجورجي زيدان[1] ذكر أن مساحتهما مع سفوح الجبال المحيطة بهما حوالي (٣٠٠) ميل مربع، وهذه تعادل (٧٦٨) كم مربع.

وفي مجلة «العربي» قُدِّرت مساحة الجنتين بـ(٨٠) كم مربع[2]. وقدر نزيه العظم[3] مساحة الجنة اليسرى بـ(٣٠) كم مربع، فإذا اعتبرنا أن الجنة اليمنى تقاربها في المساحة كان مجموع مساحة الجنتين ــعلى حسابهــ (٦٠) كم مربع.

وأمام هذه التقديرات المُتباينة أمكنني حساب مساحة الجنتين بطريقة أقرب للواقع، بعد قياس المسافة بين مدينة مأرب والسد واستخدمت طريقة(التنصيف النظري)[4]في قياس أبعاد الجنتين، ولا تخلو هذه الطريقة من أخطاء ولكنها أفضل الطرق في التقدير ولا يُضاهيها إلا القياسات الميدانية الدقيقة.

وتوضح الخريطة رقم (٨) الأسس التي اتبعتُها في تقدير مساحة الجنتين، فقد حَسَبْتُ أبعاد الجنتين بأشكال هندسية ليَسْهُل إيجاد مساحتها ولم آخذ ببعض التفرجات في طبيعة الأرض لصغر مساحتها ولصعوبة إيجاد مساحتها.

مساحة الجنة اليمنى:

وتتكون من المستطيل: وهـ د ن+ المستطيل ط ن غ ظ+ المثلث ط ظ د+ المثلث ظ ج ل وتساوي (٥×٤)+(٣× ١/٢)+(١/٤ ×٢)+(١× ١/٢ ٥)=٢٧٫٥ كم مربع مساحة الجنة اليمنى.

---

(١) العرب قبل الاسلام ص ١٧٤

(٢) العدد ١٨٤ (مارس ١٩٧٤) ص ٨٧

(٣) رحلة في بلاد العربية السعيدة جـ٢ ص ٩٣

(٤) طريقة نظرية لقياس المسافات إذ تُنصف المسافة كلها ثم يُنصف النصف الأقرب للناظر ثم ينصف نصف النصف حتى نصل إلى جزء يمكن قياسه فيتضاعف بعدد مرات التنصيف

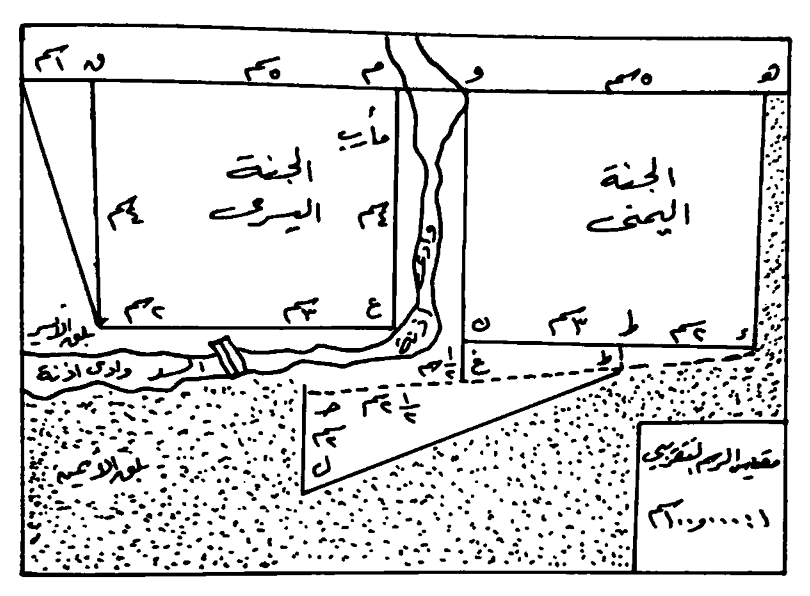
مساحة الجنة اليسرى :

المستطيل م ع ب ق + المثلث ق ل ب

(٤×٥) + ½ ×٤×٤ = ٢٢ كم مربع مساحة الجنة اليسرى

فتكون مساحة الجنتين = ٢٧٫٥+٢٢ = ٤٩ ½ = ٤٩٫٥ كم مربع .

والتقدير السابق لمساحة الجنتين يختلف عن تقديرات المؤرخين ولكنه أقربها للواقع .



خريطة رقم ١٠ــ تقسيم الجنتين إلى أشكال هندسية لتقدير مساحتهما

وهذا الحساب لمساحة الجنتين على اعتبار أن أراضي الجنتين تمتد بين السد ومدينة مأرب كما هو مشهور في كتب المؤرخين وكما هو الاعتقاد السائد لدى سكان مأرب اليوم .

بيد أن هناك من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الجنتين كانتا تمتدان إلى ما بعد مدينة مأرب ، أو قل إن الأراضي الزراعية التي كانت تستفيد من مياه سد مأرب لم تكن مقتصرة على الأراضي الواقعة بين السد والمدينة بل تمتد في جنبات الوادي مسافة كبيرة بعد مدينة مأرب ، ومن هذه الأسباب :

١ــ ان الأراضي المُنبسطة بعد مدينة مأرب ما هي إلا امتداد إلى الأراضي التي قبلها ، وحتى انحدارها يتم تدريجيا و ببطء شديد نحو الشمال الشرقي ، ودلنا على ذلك انحدار وادي اذنة نفسهومعنى ذلك أنه لايوجد ما يمنع استفادة هذه الأراضي من مياه السد إذا ما توفرت .

٢ــ لم تترك الرمال الكثيفة التي حملتها الرياح معالم أو آثارا للأراضي الزراعية وراء مأرب بالوضوح الذي تركته في الأراضي الممتدة بين مأرب والسد ، إلا أن بعض سكان بلدة الحصون

أكدوا لي وجود قنوات مائية محفورة باتجاه السد في منطقة «نعيرة» التي تبعد عن مأرب مسافة (٣٥) كم جهة الشمال الشرقي، فإن ثبت أن هذه القنوات كانت متصلة بسد مأرب خاصة (لا سد آخر غيره) تكون مساحة الأراضي التي كانت تستفيد من سد مأرب شاسعة تبلغ:

٣٥ كم (ما بين نعيرة ومأرب)+ ٦ كم(ما بين مأرب والسد)×١٠ (معدل عرض الأرض) وتساوي (٤١٠ كم مربع: مساحة الأراضي المستفيدة من سد مأرب قديما.

٣- ونلمح في شعر الهمداني ما يؤيد امتداد الأراضي الزراعية المستفيدة من مياه السد إلى ما بعد مدينة مأرب بكثير: قال الهمداني في شعر له(١)

وجنتا مأرب من بعد ذا مثل	والعرش فيها وسد وسط واديها
....	....
تسقى به جنتاها ثم بعدهما	مسافة الخمس موصولا لياليها

والمسافة بين السد ومأرب تقطع في سويعات للراجل أو الراكب، فإذا لم يكن في شعر الهمداني مبالغة ـ ولا اخال ذلك لما اشتهر عنه من دقة في الوصف ـ فإن مسافة خمسة أيام بلياليها مسافة تبلغ مئات الكيلومترات، وهذا يتناسب كل التناسب مع شهرة سد مأرب التاريخية ومع ذكر الأقوام التي كانت تقطن تلك الديار.

وأرض واسعة كهذه كانت تُسقى من مياه سد مأرب قبل خرابه يجعلنا ندعو بالتوفيق (من كل قلوبنا) لدولة اليمن الشمالي ودول عربية أخرى تشاكها في إعادة بناء سد مأرب من جديد.



(١) الإكليل جـ٨ ص ٥٧

الفصل الرابع
إعادة بناء سد مأرب

كان من ضمن مواضيع خطة دراستي عن سد مأرب موضوع « امكانية إعادة بناء سد مأرب » وكنت أنوي تقديمه في الرسالة كاقتراح مدروس موثوق بنجاحه ـ ألحّ في تنفيذه لما له من أهمية اقتصادية وتاريخية . فقد رأيت من خلال دراستي عن السد أنه عاصر الدول السبئية طوال تاريخها ، وأن السبئيين كانوا يعمدون إلى ترميمه وإصلاحه كلما رأوا ضرورة لذلك. وهذا الاهتمام والإصلاح المستمر له من قبل السبئيين في العصور القديمة يؤكد أنهم كانوا يدركون تماما القيمة الاقتصادية العظيمة لسدهم .

وكنت أتساءل : لماذا لم يفكر اليمنيون بإعادة بناء السد ؟ أليست الأرض الصحراوية الواسعة حول مدينة مأرب اليوم هي بعينها اراضي الجنتين اليمنى واليسرى اللتين جعلهما الله آية للسبئيين ؟ أليس وادي اذنة اليوم هو ذلك الوادي الذي أقام عليه السبئيون سدهم ؟ أعجز اليمنيون في الوقت الحاضر أن يقوموا بعمل قام به أجدادهم قبل آلاف السنين ؟

هذه التساؤلات كانت في ذهني منذ بدأتُ دراستي عن سد مأرب ، ولاشك أنها راودت الكثيرين ممن قرأوا أو كتبوا عن السد من قبلي .

وكان من الممكن أن تبقى هذه التساؤلات في الأذهان لولا أن حلت لنا الصحافة ووكالات الأنباء في الفترة الأخيرة جوابا على تلك التساؤلات وهو:

إن دولة اليمن تشاركها بعض الدول العربية تُفكر جديا في إعادة بناء سد مأرب ، وانها خصصت الأموال اللازمة لدراسة هذا المشروع الحيوي .

وهكذا بدت الأمنية التي يتمناها الكثيرون محققة أو تكاد ، فأبدلت موضوع « امكانية إعادة بناء سد مأرب » الذي كان مجرد اقتراح كنت أنوى تقديمه إلى موضوع . هذاالفصل الذي يتناول فكرة إعادة بناء السد والخطوات التي تم تنفيذها بهذا الصدد .

لقد بقى سد مأرب في زوايا النسيان طوال التاريخ الإسلامي ، إذ أن آخر ترميم له ذلك الذي حدث في زمن أبرهة الحبشي عام (٥٤٣م) و يبدو أن إصلاح السد زمن أبرهة لم يدم طويلا ، فلم تُشير كتب السيرة والتاريخ الإسلامي إلى أن السد كان قائما في بداية ظهور الاسلام ، ومعنى ذلك أن آخر خراب للسد حدث بعد إصلاح أبرهة عام (٥٤٣م) وقبل عام (٦١٠م) وهوبداية نزول الوحي

على الرسول عليه السلام.

وقد تتبعت تاريخ اليمن في عصور الإسلام فلم أجد أحدا من الحكام أو المسؤولين يقترح أو يفكر في إعادة بناء سد مأرب خلال هذه الفترة الطويلة رغم أن السد أثبت نجاحه المطلق في العصور القديمة.

فما هي أسباب هذا الاهمال (للسد) في العصور الإسلامية؟

هل يرجع ذلك إلى انشغال اليمنيين في الفتوحات الإسلامية؟

أم أن عدم الاستقرار السياسي والمنازعات على الحكم ثم الأطماع الاستعمارية في اليمن بعد ذلك ـ كان لها دخل في ذلك الإهمال؟

أو نعيد سبب الإهمال إلى أن الإمكانيات الاقتصادية لليمن لم تُتِح لهم القدرة على إعادة بناء السد لاسيما أن ذلك يحتاج إلى نفقات باهظة؟

قد تكون هذه الأسباب مجتمعة أو بعضها أسبابا منطقية منعت اليمنيين من إعادة بناء السد في العصور الإسلامية.

المشروع الجديد لإعادة بناء السد:

نُشِرَت أنباء إعادة بناء السد قبيل زيارتي لليمن بقليل، ولهذا كان الوقت مناسبا كي أتصل بالمسؤولين واستفسر عن خطوات ومراحل تنفيذ المشروع.

وأكثر من أفادني ممن اتصلت بهم: الأخ مقبل أحمد غنيم (مدير التخطيط بوزارة الزراعة اليمنية) الذي أطلعني على ملف سد مأرب وذكر لي معلومات عن بداية الفكرة ومراحلها الأولى فقال[1]:

«إن فكرة إعادة بناء السد خرجت إلى حيز التنفيذ في السبعينات عندما تبرّعت دولة الإمارات العربية وعلى رأسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بمبالغ مالية لدراسة هذا المشروع من مختلف جوانبه. وقد أبدى الشيخ زايد اهتمامه بهذا المشروع مساهمةً منه في تطوير اقتصاد بلد عربي شقيق، ولأنه (الشيخ زايد) أصلا من جبل نهيان الموجود في تلك المنطقة، إضافة إلى التاريخ العريق لهذا السد (الذي هو جزء من التاريخ العربي والإسلامي).

وقد رَسَت مناقصة دراسة المشروع على شركة سويسرية هي:

Electrowatt Engineering Services Ltd.

(١) محادثة شفهية اذن بنشرها

ولا تزال تقوم بالدراسة ، وقد مضى على ذلك ثمانية أشهر (كان ذلك في شهر يونيو ١٩٧٧م » .

وسألت الأخ مقبل عن بداية العمل والمكان المقترح للسد فقال :

« يبدأ تنفيذ المشروع بعد انجاز طريق صنعاء ــ مأرب (وقد بدأ تنفيذ هذا الطريق بالفعل من قبل شركة الخزافي تحت إشراف وزارة الأشغال اليمنية) . » .

أما بالنسبة لمكان السد فلم يتقرر بعد ، و يعتقد (الأخ مقبل) أن يكون بعد السد القديم .

الفوائد الاقتصادية المُتوخّاة من بناء السد :

يمكن أن نستخلص الفوائد الاقتصادية من إعادة بناء السد في المجالات التالية :

أولا : تطوير الزراعة في اليمن :

اليمن الشمالي بلد زراعي بالدرجة الأولى ، ورغم نشاط الفلاح اليمني واستغلاله للمرتفعات وزراعتها على شكل مدرجات ، إلا أن الإنتاج الزراعي لايزيد عن حاجة السكان في معظم الأحوال بل قد يستوردون بعض المحاصيل الزراعية في الوقت الحاضر كالحمضيات و بعض الفواكه .

ولاشك ان إعادة بناء السد ستضيف إلى الأراضي الزراعية مساحات شاسعة تبلغ مئات الكيلومترات المربعة . وهذه الأراضي يمكن أن ترتوي بمياه دائمة وتُزرع عدة مرات في السنة ، وفي هذا مضاعفة الإنتاج الزراعي في هذه المنطقة بحيث تكون المنطقة الزراعية الأولى في اليمن كما كانت قديما .

والعبرة في ضخامة هذا المشروع تتأتى أولا وآخرا من مقدار ما يستطيع السد خزنه من مياه :

فالمياه متوفرة (يسيل وادي اذنة بالماء أكثر من شهرين في العام كما ذكر أهل مأرب) .

والأرض التي يمكن أن تُسقى بمياه السد تتناسبُ طرديا مع مخزون السد من المياه .

واليمنيون لديهم الخبرة في الزراعة توارثوها عن أجدادهم جيلا بعد جيل .

فإن كانت هذه العوامل الثلاثة متوفرة ، يبقى مقياس ضخامة المشروع : هو قُدرة السد على تحمل مخزون كميات كبيرة من المياه من جانب ، وسعة بحيرة السد من جانب آخر .

ولهذا فإن مكان السد الجديد له أهمية قصوى لا تقل عن أهمية المشروع نفسه ، وسنعود إلى النظر في مكان السد الجديد بعد قليل .

ثانيا : المجال الصناعي :

لاشك أن المسؤولين اليمنيين وضعوا في حسابهم « توليد طاقة كهربائية » من مياه السد الجديد ، وهذه الطاقة يمكن أن تدير مصانع للصناعات الزراعية لاسيما وأن المنطقة مناسبة

لزراعة المحاصيل النقدية كالقطن والجوت وقصب السكر.

و يُضاف إلى ذلك أن المنطقة غنية بثرواتها الطبيعية والمعدنية: كالحديد والأحجار الرخامية والصخور الملحية ــ التي يمكن أن تُستغل على نطاق واسع إذا ما قُدّر لهذه المنطقة أن تحيا من جديد.

ثالثا: النشاط السياحي:

ليس في مأرب اليوم ما يشجع السياح على زيارتها رغم أنها من مناطق العالم الغنية بآثارها. وأسباب ذلك كثيرة منها:

١ــ ان آثارها مهملة ومبعثرة و بعضها لايكاد يظهر من بين الأ تر بة، هذا غير الآثار المدفونة تماما. وقد ذكر لي محافظ مأرب أنهم سيحيطون المناطق الأ ثرية بسياج شائك، وأرجو أن يكون ذلك قد تم في هذه الأ يام.

٢ــ عدم توفر الحاجيات الأساسية في مأرب: فلا فنادق معقولة ولا مواد غذائية مناسبة. و يكفي القول: إن احتياج فيلم تصو ير يُكلّف جهودا كبيرة: فإما الرجوع إلى صنعاء أو الذهاب إلى بلدة الحصون إن كان ذلك متوفرا فيها.

٣ــ سبل المواصلات إلى مأرب شاقة سواء أكان ذلك بطريق البر (تستغرق أكثر من سبع ساعات) أوعن طريق الجو إلى مطار مأرب الترابي الذي يبعد عن مأرب عشرة كيلومترات في طريق ترابي شاق، وأكثر منه مشقة الانخفاضات الجوية في خط الطيران بين صنعاء ومأرب.

إلا أن إعادة بناء السد كفيلة بحل هذه المشكلات التي تعترض السياح: فالطريق المعبد بين صنعاء ومأرب يُسهّل الوصول إلى المناطق الأ ثرية في مأرب إضافة إلى أن الأ راضي الزراعية توفر المواد الغذائية، بل إن السد نفسه يكون عاملَ جذبٍ جديدٍ للسياح لزيارة هذه المنطقة.

أين سيُقام السد الجديد؟

لم يَتَحدد بعدُ مكان السد الجديد، والذين زاروا السد يدركون تماما دِقة اختيار المكان المناسب لإقامة السد الجديد.

حسب ما شاهدته خلال زيارتي لسد مأرب لا أقول إن السبئيين أقاموا سدهم القديم في مكان لايصلح غيره لإقامة سد فيه، وإنما أؤكد أن السبئيين اختاروا أنسب مكان لاقامة سدهم بحيث لو تأخروا قليلا أو تقدّموا لما كان ذلك السد المثالي في تكاليف نفقاته وهندسة بنائه ونظام صرف مياهه ــ و بالتالي فوائده الاقتصادية الكبيرة لهم وقد تحدثت عن ذلك كله أثناء وصفي سد مأرب.

ومكان السد الجديد بين احتمالات ثلاثة:

الاحتمال الأول:

أن يكون في مكان السدالقديم، وهو كما ذكرت أنسب مكان، إلا أن الخطورة تحدث من ضياع آثار السد القديم، ذلك أن العمل في السد الجديد يتطلب ازاحة أنقاض السد القديم، وفي هذا ضرر كبير للسياحة في منطقة مأرب، إذ أن شهرة سد مأرب هي التي تدفع السياح (في الدرجة الأولى) لزيارة المنطقة.

الاحتمال الثاني:

أن يُبنى السد الجديد في مكان متأخر عن السد القديم، وفي هذا خسارة اقتصادية فالمنطقة التي تقع وراء السد أراض سهلية كانت من ضمن الأراضي الزراعية التي يرويها السد القديم، ومعنى ذلك أن كثيرا من الأراضي الزراعية تدخُل ضِمن بحيرة السد.كما أن تكاليف السد تتضاعف في هذه الحالة، لأن الحاجة تكون ماسة لإقامة حواجز ضخمة ـ غير السد ـ لِتَمْنع تَسَرُّب المياه دون نظام إلى الجنتين اليمنى واليسرى: أي انهم يحتاجون لبناء سد وحواجز مسافة عشرة كيلومترات على الأقل وهي عرض الجنتين.

الاحتمال الثالث:

أن يُبنى السد الجديد قبل السد القديم بقليل، و بهذا تكون جوانبُ السد مرتكزة على جبلي بلق الأيمن والأيسر. إلا أن المشكلة الصعبة ـ في هذه الحالة ـ هي كيفية تصريف مياه السد، فوادي اذنة ـ في هذا المكان ـ يبدو كأخدود عميق بين جبلين مرتفعين أكثر من ثلاثمائة متر عن مستوى الأراضي الزراعية.

وفي اعتقادي أن أنسب مكان لإقامة السد الجديد عندالضيقة الأولى قبل السد القديم بأربعة كيلومترات. إذ توجد أراض منخفضة محاطة بالجبال تبلغ مساحتها عشرات الكيلومترات تصلح أن تكون خزانا طبيعيا لمياه السد الجديد، ثم تُحفر قنوات أو تُمد أنابيب معدنية أو اسمنتية من بحيرة السد هذه ـ إلى الجنتين اليمنى واليسرى بحيث تأتي هذه القنوات أو الأنابيب إلى يمين جبل بلق الأيمن وإلى يسار جبل بلق الأيسر.



الخاتمة

النتائج:

لايستطيعُ أحدٌ من الباحثين في تاريخ عرب الجنوب أن يدّعي أنه أتى بالقول الفصل في هذا التاريخ، ذلك ان الدراسة فيه أعقد من أن تكون في مقدور فرد أو مجموعة من الأفراد. ولهذا فإن كل الدراسات في هذا الميدان لا تتعدى كونها مُجرّد آراء واستنتاجات ووجهات نظر قابلة للمناقشة، فإن ثبتت صحتها تكون خطوة إلى الأمام للوصول إلى حقيقة هذا التاريخ، وإن لم تثبُت صحتها فتلك محاولة لم يُقدّر لها النجاح وعسى أن تكون حافزا لتكرار المحاولة.

وفي هذا الكتاب وجهات نظر جديدة تُطرح لأ ول مرة، و بها آراء واستنتاجات آمل أن تكون ذات فائدة، إضافة إلى مواضيع كانت متناثرة فجمعتُها ودراساتٍ كانت ناقصة سعيت إلى اتمامها، ومن ذلك:

تقسيم الحكم السبئي في جنوب الجزيرة إلى فترات زمنية معينة، مع تحديد لتأريخ بداية كل فترة ونهايتها وفق تحليلات ومقارنات واستنتاجات مدروسة. وقد أفاد هذا التقسيم في حل كثير من المشكلات والألغاز في تاريخ عرب الجنوب: كالتداخل التاريخي بين ممالك جنوب الجزيرة قديما وأسباب تجاهل السبئيين في المصادر الإسلامية وعدم ورود ذكر لمملكة حمير في النقوش بينما لا تذكر المصادر الإسلامية غيرها، وسِرّ التبدُّل السريع في معبودات عرب الجنوب ومشكلة سبأ المُحيرة التي هي سبئية في القرآن الكريم وحميرية عند المؤرخين بينما لم يرد ذكرها في النقوش والكتابات إطلاقا.

كما بحثنا في مواضيع لم يُشِر إليها المؤرخون إلا لماما: كالاقتصاد السبئي وطبقات المجتمع ومركز المرأة في المجتمع السبئي ومميزات العمارة السبئية وصلة معبودات السبئيين بالمياه وأثر ذلك في إنشاء السدود وأسباب الهجرات من جنوب الجزيرة العربية والآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ترتَّبت على خراب سد مارب.

وفي الكتاب أيضا دراسات ميدانية تفصيلية لمنطقة مارب من حيث: الموقع والتضاريس والمناخ والإنسان والنبات والحيوان والآثار التاريخية — مع التركيز على سد مارب، فقد أوليته جُلّ عنايتي في دراستي الميدانية وتناولت كلّ جزء من أجزاء هذا السد بوصفٍ تفصيلي مقرون بمقاييس وصور

وخرائط ورسوم توضيحية بحيث يمكن القول ان دراسته أتت متكاملة ووافية.

أما وجهات النظر والآراء الجديدة في هذا الكتاب فهي:

١ـ حددت تاريخ بداية الدولة السبئية الأولى في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل المسيح (٢٢٥٠ق م) تقريبا. وقد اعتمدت في ذلك على تحليل مصادر متنوعة كانت النتيجة أنها متقاربة حول بداية الدولة السبئية.

٢ـ أشرت إلى أن ملكة سبأ هي آخر حكام الدولة السبئية الأولى وذلك في النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد.

٣ـ طرحت فكرة جديدة توصلت إليها من خلال الدراسة وهي:

مكارب سبأ وملوكها ليسوا من السبئيين الذين بقوا في جنوب الجزيرة وإنما هم من سكان المستعمرات السبئية التجارية أو من السبئيين الذين رحلوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها.

٤ـ اثبتُ أنه من الخطأ اعتبار (علهان نهفان عام ١١٥ ق.م) أول «ملوك سبأ وذي ريدان» أو أول ملوك الحميريين كما يذكر ذلك كثير من الباحثين.

٥ـ حددت زمن خراب سد مأرب بفعل سيل العرم بين عامي (٤٢٠ـ ٤٥٠م).

٦ـ دونت في الكتاب طريقة صرف مياه سد مأرب التي كان يتبعها السبئيون قديما، وهي غير طريقة العوارض الخشبية المذكورة في كتب المؤرخين.

٧ـ عثرت أثناء وجودي عند سد مأرب على رسومات وخرائط لم يُشِرْ لها الذين زاروا السد من قبل.

هذا وأرجو أن يكون في مواضيع كتابي وما تضمّنه من آراء ودراسات فائدة للسير بتاريخ عرب الجنوب خطوات إلى الإمام في درب طويل ووعر.

التوصيات:

١ـ عرضت في مقدمة الكتاب المنهج المتكامل الذي ينبغي السير عليه عند دراسة تاريخ عرب الجنوب، وأضيف هنا ضرورة الاستفادة من النقوش الموجودة حاليا في دراسة مواضيع مختلفة ومتنوعة في هذا التاريخ، فقد لاحظت أثناء دراستي عن سد مأرب ان الفائدة التي جناها كثير من المؤرخين مقتصرة على معرفة الملوك والحكام في حين أن النصوص تحوى بين سطورها معلومات مهمة عن النواحي الاجتماعية والاقتصادية في العصور السبئية.

٢ـ التخصص في دراسة مواضيع تاريخ عرب الجنوب، ذلك أن هذا التاريخ واسع الأبواب بعيد المدى، كثير المتاهات ـ تحتاج الدراسة والبحث فيه إلى جهود متضافرة، وهذه لا تتأتى إلا بالدراسة التفصيلية لكل موضوع من مواضيعه.

وقد بدأت خطوة بدراستي التفصيلية لسد مأرب اخترتها من مواضيع متعددة لا تزال في حاجة لدراسة، آمل أن أتولى دراسة بعضها مستقبلا أو يتولى غيري بحثها كي نتمكن مجتمعين من سد

الفجوات والثغرات في تاريخنا العربي القديم.

٣ـ والوصية الأخيرة التي وددت أن أسجلها في كل سطر من سطور هذاالكتاب واستصرخ وألح في تنفيذها بأسرع وقت ممكن قبل أن يفوت الأ وان هي:

تلك الآثار المدفونة تحت الرمال وتلك التي تدفن رياح السموم جزءا منها كل يوم وتلك التي بدأت في الانهيار ــ تنادي وتستغيث الهيئات والعلماء والمسؤولين لينقذوها من الضياع كما ضاع غيرها، فهل من منقذٍ قبل فوات الآوان؟



(ملحق رقم ١)

قوائم ملوك وحكام السبئيين في المصادر القديمة والحديثة

أسماء ملوك اليمن القدماء عند مؤرخي العرب

قائمة حمزة الأصفهاني

عبد شمس وهو سبأ
حمير بن سبأ
الحارث الرائش
ابرهة ذو المنار
افريقس بن ابرهة
أخوه العبد ذو الأذعار
الهدهاد بن شرحبيل
بلقيس بنت الهدهاد
ناشرينعم
شمريرعش
ابومالك
الأقرن بن مالك
ذوجيشان بن الأقرن
تبع الأقرن بن شمر
كليكرب بن تبع
اسعد ابو كرب
ابنه حسان بن تبع
عمرو بن تبع
عبيد بن كلال
تبع بن حسان بن تبع
مرثد بن عبيد كلال
وليعة بن مرثد
ابرهة بن الصباح
صهبان بن محرث
حسان بن عمر بن تبع

قائمة نشوان الحميري

يعرب بن قحطان
يشجب بن يعرب
سبأ بن يشجب
حمير وكهلان ابنا سبأ
الهميسع بن حمير
ايمن بن الهميسع
زهير بن أيمن
عريب بن زهير
قطن بن عريب
جيدان بن قطن
الغوث بن جيدان
وائل بن الغوث
عبدشمس بن وائل
الصوار بن عبدشمس
ذويقدم بن الصوار
ذوانس بن ذي يقدم
عمرو بن ذي ابين
ابنه الملطاط بن عمرو
شدد بن الملطاط
وتار بن شدد
بتع بن زيد
علهان ونهفان ابني بتع
شهران بن بتع
ابنه تالب رئام
حاشد ذومرع

قائمة ابن خلدون

الحارث الرائش
ابنه ذو المنار
افريقس بن ابرهة
اخوه العبد ذو الأذعار
الهدهاد بن شرحبيل
بلقيس بنت الهدهاد
ناشر يهنعم
ابنه شمر يرعش
تبع الأقرن واسمه زيد
تبان بن اسعد ابو كرب
ربيعة بن نصر بن الحارث
حسان بن تبان اسعد
اخوه عمر بن تبان
عبد كلال
تبع الأصغر بن حسان
مرثد بن عبد كلال
وليعة بن مرثد
ابرهة بن الصباح
حسان بن عمرو بن تبع
لخنيعة ذو شناتر
ذو نواس زرعة المسمى يوسف
سيف بن ذي يزن

قائمة حمزة الأصفهاني	قائمة نشوان الحميري (١).
ذو شناتر	الحارث الرائش
ذو نواس	ابنه ذو المنار واسمه ابرهة
ذو وجدان	العبد ذو الأذعار
	اخوه افريقس بن ابرهة
	الهدهاد بن شرحبيل
	ابنته بلقيس
	ياسر يهنعم
	شمر يرعش بن افريقس
	الأقرن بن شمر
	الرائد تبع الأكبر بن الأقرن
	تبع الأوسط وهو اسعد
	ابنه حسان بن بتع
	عمرو بن تبع الآخر بن حسان
	عبد كلال بن مثوب
	ذو معاهر
	ذو نواس
	سيف بن ذي يزن

(١) عن كتاب محمد الأكوع: اليمن الخضراء ص ٣٤٠ وما بعدها.

ملاحظة: اخترت القوائم الثلاث (من قوائم كثيرة) على اعتبار أنها قوائم لأشهر المؤرخين، إلا أنني اعتمدت على قائمة نشوان الحميري عند حديثي عن ملوك اليمن للأسباب التالية:

١ ـ إن نشوان يمني ومن حمير.

٢ ـ إن قائمته تضمنت أسماء ملوك لم تذكر في القوائم الأخرى.

٣ ـ إن قائمته مرتبة نسبيا وعليها شروح وافية عن كل ملك،

قوائم مكارب وملوك سبأ الذين ذكرتهم النقوش

أولا: المكارب:

قائمة جورجي زيدان(١):

يثعمر
ذمرعلي
يدع ايل بن ذمرعلي
سمهعلي ينوف
كرب ايل وتاربن ذمرعلي
يثعمربين بن سمهعلي ينوف
سمهعلي
يثعمروتاربن سمهعلي
يدع ايل ذرح بن سمهعلي
سمهعلي ينوف بن يدع إيل
يثعمروتاربن يدع ايل
يدع ايل بين بن يثعمر
سمهعلي ينوف بن يثعمر
كرب ايل بين
ذمرعلي وتار

قائمة هومل(٢)

سمه علي
يدع آل ذرح
يثع امروتر
يدع آل بين
يثع امر
كرب ايل بين
سمه علي نيف
ذمرعلي
سمه علي ينوف
يثع امربين
ذمرعلي
كرب آل وتر

قائمة فلبي(٣)

سمه علي اقدم مكرب (٨٢٠ق.م)
يدع آل ذرح
سمه علي ينف
يثع امروتر
يدع آل بين
ذمرعلي ذرح
يثع امروتر
كرب آل بين
ذمرعلي وتركرب البين
سمه علي ينف
يثع امربين بن سمه
ذمرعلي ينف
كرب آل وتر (آخرهم)

---

(١) جورجي زيدان العرب قبل الاسلام ص ١٣٩
(٢) جواد علي، المفصل جـ٢ ص ٣٠٧
(٣) جواد علي المرجع السابق ص ٣١٣

ثانيا : الملوك :

قائمة جورجي زيدان(١)

ذمرعلي
ذرح
سمهعلي ذرح
كرب ايل سمهعلي ذرح
اليشرح بن سمهعلي
يدع ايل وتار
يثعمر
كرب ايل وتر
يثعمربين
يكرب ملك وتار
يدع ايل بين
يريم ايمن

قائمة هومل(٢)

كرب آل وتر
سمه علي ذرح
الشرح بن سمه علي ذرح
كرب آل وتربن سمه على ذرح
يدع آل بين كرب آل وتر
يكرب ملك وتر
يثع امربين
كرب آل وتر
سمه علي نيف
الشرح
ذمرعلي بين
وهب ايل
أنمرم يهنعم
ذمرعلى ذرح
نشا كرب يهنعم
نصرم يهنعم
وهب آل يحز
كرب آل وتريهنعم
فرعم يهنب

قائمة فلبي(٣)

كرب آل وتر
سمه علي ذرح
كرب آل وتربه سمه
الشرح بن سمه علي ذرح
يدع آل بين بن كرب
يكرب ملك وتربن يدع
يثع أمربين بن يكرب
كرب آل وتربن يثع
سمه علي نيف
الشرح بن سمه
ذمرعلي بين
يدع آل وتر
ذمرعلي بين
كرب آل وتر (فجوة بينهما)
وهب آل
انمار يهنعم
ذمرعلي ذرح
نشا كرب يهنعم
نصرم يهنعم
وهب آل يحز
كرب آل وتر
فرعم ينهب

---

(١) العرب قبل الإسلام ص ١٣٩
(٢) جواد علي ، المفصل ج ٢ ص ٣٤٨
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٩

قوائم ملوك سبأ وذي ريدان (فترة الصراع على السلطة)

قائمة جورجي زيدان

علهان نهفان
شعر وتار بن علهان بن نهفان
يريم ايمن بن علهان بن نهفان
فرعم ينهب
اليشرح يحضب وابنه يازل
اليشرح يحمل بن يزل بين
وتار
كرب ايل وتار يوهنعم
ذمارعلي ذرح بن كرب ايل
هلك امير بن كرب ايل
ذمرعلي بين
وهب ايل يحز
(ملوك مجهولون)
ياسر انعم(١)

قائمة مطهر الارياني

ذمارعلي وتر يهنعم
نشا كرب يهامن بن ذمرعلي
اليشرح يحضب الأول
واتر يهامن بن اليشرح
سعد شمس اسرع وابنه مرثد
ياسر يهصدق
ذمارعلي يهبر الأول
ثاران يهنعم
وهب ال يحوز
علهان نهفان
شعر اوتر
ياسر يهنعم
شمر يهرعش
الشرح يحضب واخوه يازل
نشا كرب يأمن يهرحب(٢)

القائمة التي رتبتها بناء على دراستي لهذه الفترة

ذمارعلي وتر بن سمهعلي
نشا كرب يهامن بن ذمرعلي
كرب ال بين بن ذمرعلي
يهقم بن ذمرعلي ذرح
اليشرح يحضب الأول
واتر يهامن بن اليشرح يحضب
علهان نهفان
سعد شمس ومرثد يهحمد
شعر اوتر بن علهان نهفان
يريم ايمن الثاني ابن شعر اوتر
لحيعثت يرخم
لعيز يهنف
ياسر يهصدق
ذمارعلي يهبر
ثاران يهنعم
اليشرح يحضب الثاني
اخوه يازل
نشا كرب يهمن بن اليشرح
ياسر يهنعم
شمر يهرعش(٣)

---

(١) العرب قبل الإسلام ص ١٤٣
(٢) انظر في تاريخ اليمن (أرقام الملوك)
(٣) انظر الباب الأول ــ فترة الصراع على السلطة ــ الجدول رقم ١

قوائم ملوك التبابعة

قائمة جورجي زيدان :	قائمة محمد يحيى حداد	القائمة التي وضعتها من المقارنة بين المصادر المختلفة
شمر يرعش	شمر يهرعش بن ياسر يهنعم	شمر يهرعش بن ياسر يهنعم
ذو القرنين أو افريقس (الصعب)	ملك كرب يهامن	ذمر علي يهبر
عمرو زوج بلقيس	اب كرب اسعد	كرب ايل وتر يهنعم
بلقيس وتسمى الفارعة	حسان يهامن	ياسر يهنعم (الثاني)
المدهاد (اخوها)	شرحب آل يعفر	ذرا امر يامن بن ياسر يهنعم
مليكرب يوهنعم	عبد كلال	يريم يرحب
ابو بكر اسد بن مليكرب	شرحب آل يكف	(الاحتلال الحبشي الأول ٣٤٠ــ ٠٧٥
حسان بن اسعد	معد يكرب يهنعم بن شرحب	ملك كرب يهامن
شرحبيل يعفر بن اسعد	لحيعت ينوف بن شرحب	ابو كرب اسعد
شرحبيل ينوف	مرثد الن	شرحبيل يعفر بن ابي كرب
معد كرب ينعم وابنه لحيعه	ذو نواس	عبد كلال
مرثد اللات ينوف	سيف بن ذي يزن(٢)	شرحب آل يكف
ذو نواس		معد يكرب يهنعم بن شرحب
ذوجدن (١)		لحيعت ينوف بن شرحب
		....
		....
		وفيم يرخم ذي عثل
		مرثد الن ينوف
		ذو نواس
		(الاحتلال الحبشي الثاني ٥٢٥ــ ٥٧٥
		سيف بن ذي يزن(٣)

---

(١) العرب قبل الاسلام ص ١٤٣

(٢) تاريخ اليمن السياسي ص ٩٣ وما بعدها

(٣) انظر الباب الأول ــ الدولة السبئية

المصادر

أ ــ كتب دينية :

١ ــ القرآن الكريم
٢ ــ الكتاب المقدس
٣ ــ تفسير أبي السعود جـ١، ٢، ٣، ابو السعود بن محمد العمادي (تحقيق عبدالقادر عطا) ١٩٧١م مطبعة السعادة ــ القاهرة
٤ ــ تفسير ابن كثير جـ٣، الحافظ عماد الدين بن كثير (٧٧٤هـ ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م، دار احياء التراث العربي ــ بيروت
٥ ــ تفسير القرطبي جزء ٥٩، القرطبي ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م دار الشعب ــ القاهرة
٦ ــ التفسير الكبير (البحر المحيط) جـ٧، الغرناطي، اثيرالدين بن حيان (٧٤٥هـ) طبعة اولى ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة ــ القاهرة
٧ ــ الدرر المنثور (التفسير بالمأثور) جـ٥، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، الخانجي بمصر، المثنى بغداد
٨ ــ السيرة النبوية جـ١، ابن هشام (٢١٨هـ) تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبدالحفيظ شلبي، طبعة ١٩٣٦م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة
٩ ــ صحيح البخاري مجلد (٦ ــ ٨) الامام ابوعبدالله البخاري، دار الفكر ــ بيروت
١٠ ــ فتح القدير (تفسير) جـ٤، الشوكاني، محمد بن علي (١٢٥٠هـ) نشر محفوظ العلي ــ بيروت
١١ ــ الكشاف (تفسير) جـ٣، الزمخشري، محمود بن عمر (٥٢٨هـ) الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ، ١٩٥٣م ــ مطبعة الاستقامة ــ القاهرة
١٢ ــ مختصر تفسير ابن كثير (المجلد الثاني) تحقيق محمد الصابوني ١٣٩٣ طبعة اولى دار القرآن الكريم ــ بيروت
١٣ ــ مسند الامام احمد جـ٤، الامام احمد بن حنبل (٢٤١هـ) شرح وفهرسة احمد شاكر ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م دار المعارف، مصر.

ب ــ كتب تاريخية :

١٤ ــ الأصنام، الكلبي: هشام بن محمد بن السائب (٢٠٤هـ) تحقيق احمد زكي باشا، طبعة ثانية

١٣٤٣هـ) ١٩٢٤م، دار الكتب المصرية.
١٥ــ الاعلاق النفيسة (المجلد السابع) ابن رسته، مطبعة بريل ١٨٩١، ليدن، هولندا
١٦ــ الإكليل ــ الجزء الثاني، الهمداني، الحسن بن احمد (٣٣٤هـ) تحقيق: محمد الأكوع الحوالي، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة
١٧ــ الإكليل ــ الجزء الثامن، الهمداني، الحسن بن احمد، تحقيق: انستاس الكرملي، ١٩٣١م، دار السلام بغداد
١٨ــ تاريخ الاسلام جـ١، حسن ابراهيم حسن، ١٩٦٤ الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية
١٩ــ تاريخ العرب ــ جـ١، فيليب حتى وآخرون، ١٩٦٥م الطبعة الرابعة، دار الكشاف، بيروت
٢٠ــ تاريخ العرب ــ عصر ما قبل الاسلام، محمد مبروك نافع، الظبعة الثانية ١٩٥٢، مطبعة السعادة، مصر
٢١ــ تاريخ اليمن الثقافي جـ٣، احمد شرف الدين، الطبعة الثانية ١٩٦٤م، السنة المحمدية ــ القاهرة
٢٢ــ تاريخ اليمن السياسي، محمد يحيى حداد، ١٩٧٦م، دار الهنا، القاهرة
٢٣ــ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر ــ المجلد الثاني) ابن خلدون: عبدالحمن بن محمد (٨٠٨هـ) ١٩٦٦، دار الكتاب اللبناني ــ بيروت
٢٤ــ تاريخ سني ملوك الارض والانبياء، الأصفهاني، حمزة، الطبعة الثالثة ١٩٦١م، مكتبة الحياة، بيروت
٢٥ــ جمهرة الأنساب (مخطوط) الكلبي، هشام بن محمد بن السائب ــ رقم ٩٩٥٩ح دار الكتب، مصر
٢٦ــ حياة محمد، محمد حسين هيكل، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٦٨م، النهضة المصرية القاهرة
٢٧ــ رحلة في بلاد العربية السعيدة ــ جـ٢، نزيه مؤيد العظم، مطبعة عيسى الحلبي، مصر
٢٨ــ صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) جـ٢، ابن المجاور، جمال الدين الدمشقي، ١٩٥١، مطبعة بريل ليدن، هولندا
٢٩ــ صفة جزيرة العرب، الهمداني: الحسن بن احمد (٣٣٤هـ) تحقيق: محمد الأكوع الحوالي ١٩٧٤م دار اليمامة، الرياض.
٣٠ــ العرب في الشام قبل الاسلام، محمد احمد باشميل، ١٣٩٣، ١٩٧٣م دار الفكر، بيروت
٣١ــ العرب قبل الاسلام، جورجي زيدان، ١٩٣٥م مطبعة دار الهلال
٣٢ــ فجر الاسلام، احمد امين، الطبعة التاسعة ١٩٦٤م، مكتبة النهضة المصرية
٣٣ــ في تاريخ اليمن: نقوش لم تنشر، مطهر الارياني، ١٩٧٣، دار الهنا، القاهرة

٣٤ـ في تاريخ حضارة اليمن القديم ، زيد عنان ، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م ، المطبعة السلفية ، القاهرة
٣٥ـ قلب جزيرة العرب ـ فؤاد حمزة ، الطبعة الثانية ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض
٣٦ـ لهجات اليمن قديما وحديثا ، احمد شرف الدين ، ١٩٧٠م ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة
٣٧ـ معجم البلدان جـ٣ ، ٤ ، الحموي ، ابوعبدالله ياقوت ، ١٩٢٤ ، ليبستك المانيا
٣٨ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، جواد علي ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨ ، دار العلم للملايين ، بيروت
٣٩ـ ملوك حمير وأقيال اليمن ـ نشوان الحميري (تحقيق : علي المؤيد) ١٣٦٨هـ المطبعة السلفية ـ القاهرة
٤٠ـ نشر المحاسن اليمانية في خصائص ونسب القحطانية (مجهول المؤلف) مخطوط رقم ٢٠٨٣ تاريخ (التيمورية) دار الكتب المصرية
٤١ـ هذه هي اليمن ـ عبدالله احمد الثور ، ١٩٦٩م ، مطبعة المدني ، دار حراء ـ القاهرة
٤٢ـ اليمن الخضراء ، محمد الأكوع الحوالي ، ١٩٧١م مطبعة السعادة ، القاهرة
٤٣ـ اليمن عبر التاريخ ، احمد شرف الدين ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م ، مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة
٤٤ـ اليمن ماضيها وحاضرها ، احمد فخري ، ١٩٥٧م ، مطبعة الرسالة ، القاهرة
٤٥ـ اليمن وحضارة العرب ـ عدنان ترسيسي ، ١٩٦٥م ، دار العلم للملايين ، بيروت

جـ ـ كتب اجنبية مترجمة :

٤٦ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان (ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي) الطبعة الرابعة ١٩٦٥م دار العلم للملايين ، بيروت
٤٧ـ تاريخ العرب العام : ل . أ . سيدو (ترجمة عادل زعيتر) ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م
٤٨ـ التاريخ العربي القديم ، ديتلف نيلسون وآخرون (ترجمة وتكملة فؤاد حسنين) ١٩٥٨م ، مكتبة النهضة المصرية
٤٩ـ تاريخ يوسيفوس اليهودي (سليم ابراهيم) المكتبة العمومية ، بيروت
٥٠ـ حضارة العرب ، غوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر) الطبعة الثالثة ١٩٥٦م ، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة
٥١ـ كنوز مدينة بلقيس ، ويندل فيليبس (تعريب عمر الديراوي) ، الطبعة الأولى ١٩٦١م دار العلم للملايين ، بيروت
٥٢ـ هيرودوتس ، أ ج . ايفانز (ترجمة أمين سلامة) الدار القومية للطباعة ، مطبعة مصر

د ـ مراجع عامة:

٥٣ـ تاج العروس جـ ٨، الزبيدي، محمد مرتضى (تحقيق عبدالعزيز مطر) ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م مطبعة حكومة الكويت

٥٤ـ دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الحادي عشر «مادة سبأ»

٥٥ـ دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britannica Vol.,19 London, 1963

٥٦ـ القاموس المحيط، جـ٤، الفيروزابادي، مكتبة النور، دمشق

٥٧ـ لسان العرب، جـ٤، ابن منظور، مطبعة بولاق، المؤسسة المصرية، القاهرة

٥٨ـ مجلة العربي، احمد زكي، العدد ١٨٤ مارس ١٩٧٤م، الكويت

٥٩ـ الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، ١٩٥٩، الدار القومية للطباعة، مطبعة مصر

٦٠ـ اليمن في صور، عبدالله احمد الثور، ١٩٧١م، المطبعة السلفية، القاهرة



فهرس الموضوعات



إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

العنوان	المؤلف
الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
أزمة الطاقة إلى أين ؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر

- السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك (الطبعة الثالثة) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثالثة) — الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خواطر جريئة — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- السنيورة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- جسور إلى القمة (تراجم) — الأستاذ عزيز ضياء
- تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- قضايا ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير — الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
- شيء من الحصاد — الأستاذ حامد حسن مطاوع
- أصداء قلم — الأستاذ محمود عارف
- قضايا سياسية معاصرة — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي — الأستاذ بدر أحمد كريم
- الإعلام موقف — الدكتور محمود محمد سفر
- الجنس الناعم في ظل الإسلام — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية) — الأستاذ طاهر زمخشري
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- سير وتراجم (الطبعة الثالثة) — الأستاذ عمر عبدالجبار
- الموزون والمخزون — الشيخ أبوتراب الظاهري
- لجام الأقلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- نقاد من الغرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- حوار.. في الحزن الدافيء — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- صحة الأسرة — الدكتور زهير أحمد السباعي
- سباعيات (الجزء الثاني) — الأستاذ أحمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- إليها.. (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية) — الأستاذ محمد سعيد العامودي

الكتاب	المؤلف
أيامي	الأستاذ أحمد السباعي
التعليم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
أحاديث وقضايا إنسانية	الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
البعث (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
شمعة ظمأى (ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
الإسلام في نظر أعلام الغرب (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
حتى لا نفقد الذاكرة	الأستاذ سعد البواردي
مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
وحي الصحراء (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
طيور الأبابيل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
قصص من تاغور (ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
زوجتي وأنا (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
لن تلحد	الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
عمر بن أبي ربيعة (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
رجالات الحجاز (تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
حكاية جيلين	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
من أوراقي	الأستاذ محمد سعيد العامودي
الإسلام في معترك الفكر	الشيخ سعيد عبدالعزيز حمدون
إليكم شباب الأمة	الشيخ سعيد عبدالعزيز حمدون
هكذا علمني وردزورث	الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
في رأيي المتواضع	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
العالم إلى أين والعرب إلى أين؟	الدكتور بهاء بن حسين عزي
البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف	الأستاذ عبدالرحمن المعمر
محمد سعيد عبدالمقصود خوجة (حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعد بن حسين
جزء من حلم	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
ماما زبيدة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
إنتاجية مجتمع	الدكتور محمود محمد سفر
خواطر مجنحة	الأستاذ محمد حسين زيدان

تحت الطبع :

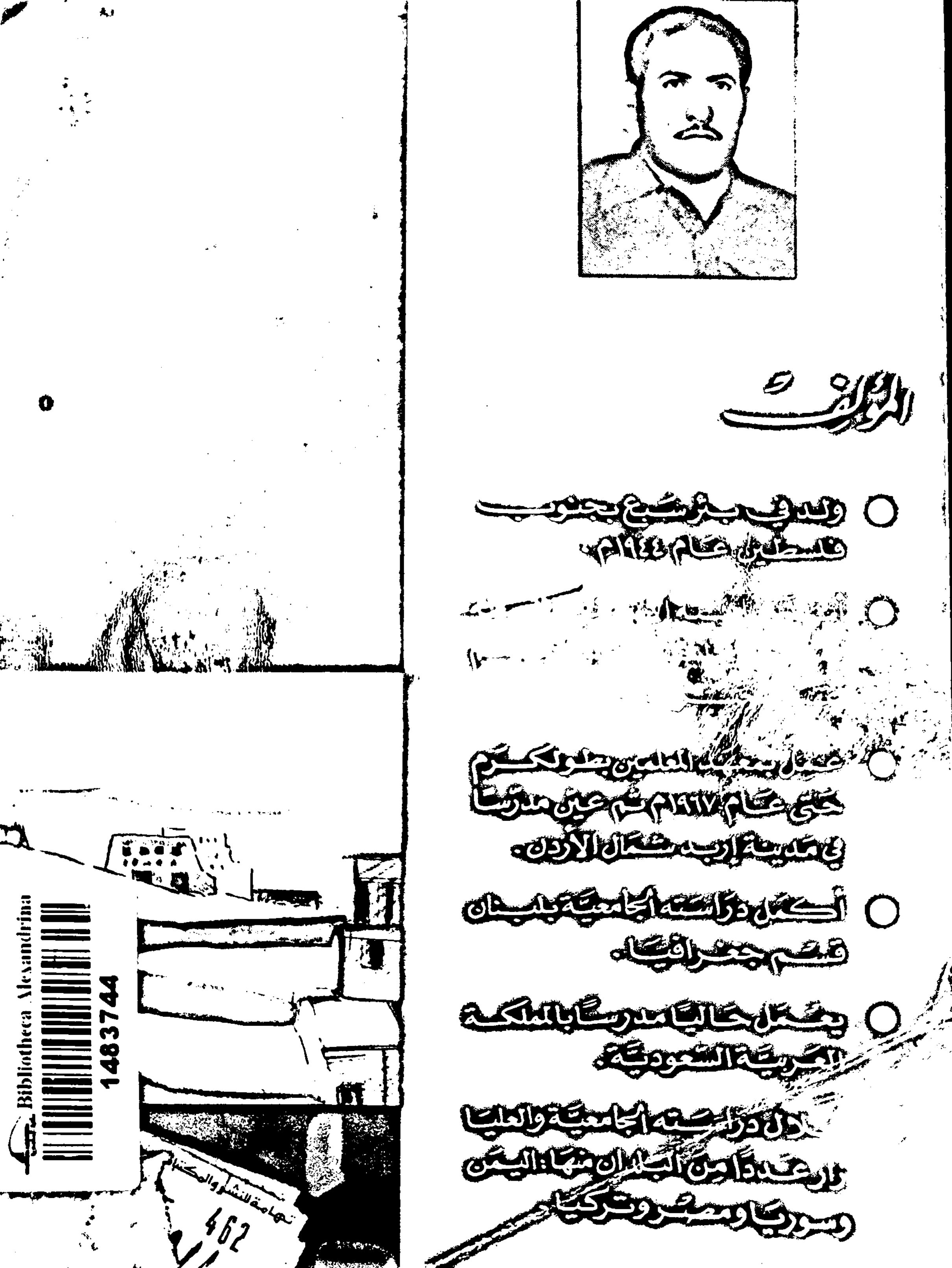
الكتاب	المؤلف
وجيز النقد عند العرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
الطاقة نظرة شاملة	الدكتور عبدالهادي طاهر
لا رقّ في القرآن	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
من مقالات عبدالله عبدالجبار	الأستاذ عبدالله عبدالجبار
ديوان حسين عرب	الأستاذ حسين عرب
العقاد	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
ذات ليلة	الأستاذ حسين عبدالله سراج
من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)	الأستاذ محمد عمر توفيق

- أيام في الشرق الأقصى — الأستاذ علي حسن فدعق
- مغازلات ومعاكسات — الأستاذ حمد الزيد
- الفربال.. نتاجه الفكري والأدبي — (جمعه ونسّقه) الدكتور عباس صالح طشكندي
- التنمية قضية — (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية — (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) — (الطبعة الثانية) — الدكتور أمل محمد شطا
- تاريخ عمارة المسجد الحرام — (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الحضارة تحد — (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا — (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) — (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة :

الكتاب العربي اليمني

- تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي — الأستاذ أحمد الشامي
- بغية المريد وأنس الفريد — الأستاذ عامر بن محمد بن عبدالله (تحقيق) الأستاذ محمد محمد الشعيبي (مراجعة وتعليق) الأستاذ أحمد محمد الشامي



المؤلف

- ولد في بئر سبع جنوب فلسطين عام ١٩٤٤م

- عمل بمعهد المعلمين بطولكرم حتى عام ١٩٦٧م ثم عين مدرسا في مدينة إربد شمال الأردن.

- أكمل دراسته الجامعية بلبنان قسم جغرافيا.

- يعمل حاليا مدرسا بالمملكة العربية السعودية.

خلال دراسته الجامعية والعليا زار عددا من البلدان منها: اليمن وسوريا ومصر وتركيا

Bibliotheca Alexandrina
1483744
تهامة للنشر والمكتبات
462